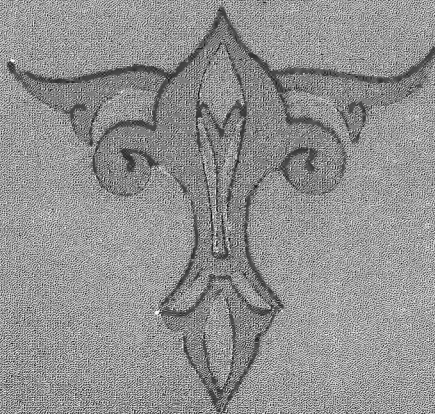


عربي زيدان

# ناتج المندل الاسلحي

الجزء الرابع



# تاريخ المتمدن الإسلامي

مكتبة  
تأليف  
عبد القادر بن محمد القبطي طرابلسي  
مترجم من  
عبد القادر بن محمد القبطي  
مترجم من  
عبد القادر بن محمد القبطي  
منشور الهلال

٩ أكتوبر ١٩٧٢

## المجلد الرابع

يتناول سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة من عهد الراشدين ، فالامويين  
فالعباسيين فالاندلسيين فالفاطميين ، وسياسة كل دولة منها في تأكيد سلطاتها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

## هذا الجزء

كان ينبغي أن يخصص لموضوع هذا الجزء ضعف حجمه الذي اراده له المؤلف ، فان مباحثه متعددة وفروعها كثيرة يتسع فيها مجال القول ، ثم انه يغطي نحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام حافلة بالاحداث والتطورات ، مابين سياسية واجتماعية ، والعالم الاسلامي عالم فسيح ظل يمتد ويتسع خلال هذه القرون الطويلة حتى وصل الى قلب افريقية وشرقي آسيا ، فضلا عن امتداده غربا الى المحيط الاطلسي وجزء كبير من اوربا هو شبيه الجزيرة الايبيرية . ولم يتعرض أحد بعد المرحوم جرجي زيدان لهذا المطلب الا وجد نفسه مضطرا الى الانصراف عن بعض الميادين وتركيز الكلام في بعض الدول دون بعضها الآخر ، كما نرى في كتاب « تاريخ العرب » للاستاذ فيليب حتى ، فقد وقف به عند الحروب الصليبية تقريبا ، وكما نرى في كتاب بروكلمان عن تاريخ الامم الاسلامية ، فقد أسقط الكثير واستطرد عن دول الاسلام في آسيا ، وقفز من الحروب الصليبية الى العصر الحديث . وما نظن ان احدا اقترب من الغاية غير الاب الاسباني « باريخا » Pareja في كتابه المسمى « علم الاسلام » Islamologia وهو عنوان غريب ، ولكنه أرخ لدول الاسلام وحركاته المذهبية والفكرية حتى ايامنا هذه . ولقد استغرق نحو الف صفحة ، ومع ذلك فقد فاتته الكثير

وقد جهد المرحوم جرجي زيدان في تقسيم هذه الفترة الى عصور ، ونهج منهجا خاصا بسطه في مقدمته . وربما اختلف معه بعض الباحثين في هذا التقسيم ، ولكن نظرياته فيه مؤيدة بالبراهين ، وهي نظريات كانت ولا زالت موضع مناقشات وأخذ ورد ، والحقائق انما تتجلى من خلال تبادل الآراء . وقد تركت تقسيمه على حاله ، وان اجتهدت في التنسيق بين الاقسام بعضها وبعض ، وتركت القسم الاخير الذي سماه « الدور الثاني » على حاله ، وكان الاولى به أن يوضع في هيئة خاتمة ، اذ هو خارج عن موضوع الكتاب ، كما اشار هو الى ذلك في المقدمة

ويلاحظ القارئ أن المؤلف أوجز الكلام إيجازا شديدا ابتداء من كلامه على بنى بويه ومن جاء بعدهم ( ص ١٨٦ وما بعدها ) فأوجز أربعة قرون من تاريخ الاسلام في نحو أربعين صفحة ، فجاء الكلام عن هذه القرون وما قام فيها من الدول موجزا عابرا ، ولكنه مع ذلك حافل بالمعلومات القيمة ، خاصة

إذا علمنا ان احدا لم يكتب في هذه العصور الى الآن ، فيما خلا كتاب  
آدم ميتز عن القرن الرابع الهجرى ، وهو مترجم الى العربية  
وقد اجتهدت في سد هذا الفراغ بما امكنتى من التعليق والاشارة الى  
المراجع والاصول والابحاث التى نشرت بعد أيام المؤلف ، ولم اورد مع ذلك  
منها الا ما سمح به الحيز ، وهو قليل

وبعد . . فسرى القارىء ان المرحوم جرجى زيدان قد جمع فاعى ،  
وبحث ونقب ، وانتهى الى آراء هى غاية فى القيمة والعمق ، وقدم للباحثين  
في تاريخ العرب خدمة تجعله بحق رائد المدرسة الحديثة من مؤرخى العرب  
والحمد لله اولا وآخرا ، وهو ولى التوفيق

**حسين مؤنس**



## مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ملاقاه من حفاوة أهل اللغات الأخرى في العالم الاسلامى بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين في أوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على أثر صدور الأجزاء الثلاثة الماضية . لأنهم فضلا عما كتبوه إلينا من عبارات الاستحسان والتشجيع ، وما نشره من التقارير في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم ، قد أخذوا يشتغلون بنقله الى السننهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخر تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية ( الهندستانية ) مطبوعا على الحجر في أمرتسار ( الهند ) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريبا بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب إلينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية في جامعة أكسفورد ، أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف . وبعث إلينا الاستاذ دانييلوف المستشرق الروسى في موسكو أنه أتم نقل الجزء الأول الى اللغة الروسية ويليهِ الجزء الثانى . وقد أخبرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دوائر التمدن الاسلامى وكشف أسرارهِ بما يبلغ اليه الامكان على أسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها ببعضها ببعض مع تطبيق أحكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سداجة أسلوبها في سرد الحوادث وإيراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخى الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص أسانيدِها ومصادرها ، قلما نظروا في علاقاتها أو عللوا أسبابها وإنما نقلوها على علاتها ، وخصوصا ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، أو أمة الى أمة ، أو طائفة الى طائفة . لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحيانا على الطعن في أقوال بعض الخلفاء ، أو تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين

ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكا من موضوعات سائر  
الاجزاء الماضية ، وادعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق  
النتائج على المقدمات ، لانه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في ذلك التمدن

### موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية  
وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية  
والتضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثانى لبيان ثروة الدولة الاسلامية  
ورجالها ، واسباب تكون تلك الثروة واسباب تدهورها . وجعلنا الجزء  
الثالث خاصا بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية ،  
وما احدثه الاسلام من التغيير في القرائح والعقول ، وما تقل عن اللغات  
الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامى في كل ذلك

فبعد ان نظرنا في التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها  
وعلوها ، عمدنا الى البحث في سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمته ،  
ولعله اهم اجزاء الكتاب وأوعرها مسلكا ، لما يحول بيننا وبين اسباب  
الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولاسيما انتقال الخلافة من دولة  
الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع اهل الدولة على الاستئثار بالسلطة ،  
وتأثير الاختلاف الجنسى أو المذهبى في ذلك ، مما لايتيسر العثور عليه في  
كتب القوم لما قدمناه من تحاشى المؤرخين الخوض في مثله . على أننا لم  
نعدم بصيصا من خلال تلك الظلمة ، تلمسنا به سبيلنا في البحث عن  
الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف اسباب أكثر الحوادث ، فبسطناها بما  
يقتضيه ذلك من النظر الفلسفى والحكم العقلى والقياس التمثيلى ، وتحرينا  
الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة أخرى لا تقل  
وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض اسبابها واشتراك نتائجها  
وتلون مظاهرها ، وتعدد أوجهها من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو  
الزمان ، فرأينا بعد امعان النظر أن نقسم الموضوع باعتبار العناصر التى  
سادت في الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة  
اطوار التمدن الاسلامى باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى  
دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذى نحن بصددده ، يتبدى بظهور الاسلام  
وينتهى بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية  
وتسلط المغول عليها

الدور الثاني : هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية و احياء الخلافة الاسلامية ، بجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها

وقسمنا الدور الاول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب احد العناصر الاسلامية على سائرهما . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لاسباب لا تخفى على المطلع ، فيغلب ان تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه . واليك هذه العصور :

١ - العصر العربى الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

٢ - العصر الفارسي الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

٣ - العصر التركى الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

٤ - العصر العربى الثانى : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها

٥ - العصر المغولى : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك

اما العصر التركى الثانى فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسى الثانى عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منهما الدور الاسلامى الثانى وهو خارج عن دائرة بحثنا فى هذا الكتاب

وقسمنا كلا من العصور الخمسة التى درسناها فى هذا الجزء الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد فى العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الامومة والخؤولة ، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ، ثم العبيد والموالى فى الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم ، والنازلين من الاجانب فى جزيرة العرب قبل الاسلام وخصوصا الابناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل فى سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب

ثم تقدمنا الى العصر العربى الاول ، فقسمناه الى ايام الراشدين وايام بنى أمية ، فبيننا أولا أن الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التى جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا فى الفضل من حيث أنسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم

في سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كالمهاجرين والانصار واهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في اول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبيعة العمران الى ان يأذن لقواده وامرائه في الانسياح في الارض ، فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير

وختمنا العصر الاول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر الاول، وهو ايام الامويين ، فذكرنا اولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بنى هاشم وبنى أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين أن يعظم أمر بنى هاشم بالنوبة وهم أقل منهم عدداً وقوة . فما زالوا حتى غلبهم على الدولة ، فأخذها معاوية بن أبي سفيان من علي بن أبي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم ، وبيننا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين احق منهم بالخلافة ، فعمدوا الى التغلب بالعصبية كما كانت في الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النوبة ، فعادوا الى عصبية النسب اولاً بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمنية والمضربة . وبالفعل الامويون في التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين والقوا السكنى في المدن ، فحدثت العصبية الوطنية ، اى تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في سبيل التغلب على بنى هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال ، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرحهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق او بغير حق ، قضيقوا على الرعية من المسلمين واهل الذمة ، حتى مل الناس ايامهم وخصوصاً بعدما ظهر من استخفافهم باحكام الشريعة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على اهل الذمة . ويلي ذلك فصل طويل في احكام اهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر ايام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الاول ، فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بنى أمية . وكيف نصروا بنى

العباس - وهم في الاصل من شيعة على - وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لأن العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل أبو مسلم الخراساني الملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من أكبر دعائهم وأنصارهم ، وفيهم أبو مسلم نفسه

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم في تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك ، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما أصاب أبا مسلم وأصحابه ، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ، ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، أخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد أضمرُوا ارجاع البيعة الى العلويين أو تسليم الدولة للفرس ، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها ، وبيننا كيف تضاعفت نفعة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابنه الامين والمأمون ، وكان الفرس أحوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على أن يبايع بعده لعل الرضا ، أي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية : سياستهم في معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول في أهل الذمة واحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية

ثم تقدمنا الى العصر التركي الاول ، وذكرنا الاسباب التي دعت الى تدخل الاتراك في الدولة من أيام المعتصم ، وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا ، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاج الخلفاء في دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما ، واطلقوا ايدي النساء في مصالح الدولة ، قال ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء . . فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع :

فارسية ، وتركية ، وعربية ، وكردية ، وكلها تباع الخليفة العباسي ،  
فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من أول  
الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين  
منذ أهملوهم وأسقطوهم من الديوان ، وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين ،  
وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في مصر ، لمقاومة الدولة  
العباسية ، وأوشك الفاطميون - وهم علويون - أن يتغلبوا على العباسيين ،  
لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم . على أن الفاطميين ما لبثوا أن تضعفوا  
وغلّبهم الاكراد على دولتهم ، وأولهم صلاح الدين ، فأعاد البيعة الى  
العباسيين ، وانقضى هذا العصر وقد تضعفت المملكة الاسلامية وانقسمت  
على نفسها ، وطمع فيها أعداؤها المحيطون بها ، فجاءها المغول وهى في تلك  
الحال ، فاكسحوها وزادوها ضعفا واختلالا ، وهو العصر المغولي ، وبه  
ينتهى هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على  
أوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث  
وأسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ، ملتزمين الصديق والاخلاص  
والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل (١)

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وأبهاء الدولة وآداب  
الاجتماع ، وبه ينتهى الكتاب

(١) طبع هذا الجزء خمس طبعات قبل هذه ، منها الرابعة سنة ١٩٢٧ والخامسة سنة ١٩٤٧

## العصر العربي الأول



## العصر العربي الاول

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٢٢ هـ - ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في أيدي العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعصر العربي . والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضى بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين : دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منهما احكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتى بيانها . ولا بد لنا تمهيدا لذلك ان نأتى بفدلكة في حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمننا بيانه في هذا الباب ..

### تمهيد في العرب قبل الاسلام

#### البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبدواة أقدم من الحضارة ، لأنها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالإنسان كان في أول أدواره بدويا يحترف الزراعة والفلاحة ، أو ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز أو النحل والدود لتنتاجها واستخراج فضلاتها ، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعى للمرعى (\*) . فالتجأوا الى السهول والبرارى ، وكان همهم بلوغ الضرورى من القوت والسكن والدفع بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ما هو أكثر من ذلك من أسباب الغنى والرفاهية، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا وترفوا

فالبدواة تقوم اما على الفلاحة والزرع ، أو على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الفلة وهم سكان المداشر (\*) والقرى والجبال ، وكانوا قليلين في بادية العرب . وانما يكثر

---

(\*) يوسع المؤلف هنا معنى البدواة ، فيجعلها تشمل كل المجتمعات البدائية بما فيها الزراعة ، وهذا التوسيع مقبول من ناحية الاستعمال العربى ، فان العرب كانوا يطلقون لفظ البادية على ما نسميه الأرياف ( بالإضافة الى الصحارى ) فاذا قال العربى « أهل البادية » فهم من ذلك أهل الصحراء وأهل الأرياف المزروعة ، غير أنه يغلب ان تطلق البادية على الصحراء وما يجاورها مباشرة من الأرض المزروعة على الطر خاصة . اما من الناحية الاجتماعية فان البدواة هى حياة الصحارى ، سواء أكانت تزرع بالطر أو لا تزرع اصلا ، وأهل الزراعة المستقرون يسمون حضرا ، لان الزراعة في ذاتها وأيا كان مستواها تعد مرحلة من مراحل الحضارة (\*) الصحيح لفة مجش و الجبع مجاشر ، جاء في لسان العرب ٢٠٧/٥ : الجش بقل الربيع، وجشروا الخيل وجشروها ( بتشديد الشين ) أرسلوها في الجش ، والجش ان يخرجوا بخيلهم فيرعوها امام بيوتهم ، واصبحوا جشرا ( بسكون الشين ) وجشرا ( بفتحها ) اذا كانوا يبيتون في

هذا الصنف من البدو في بلاد البربر بشمالى افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم صنفان : اهل سائمة ، واهل ابل . فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لقلة المراعى الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالى افريقيا ، والترك واخوانهم التركمان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادى تركستان وخراسان ونحوهما



واما اهل الابل فأشهرهم بدو العرب ، وهم أكثر ظعننا وأبعد في القفار مجالا من اهل السائمة ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الابل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لما خض النتاج في رماله ، لأن الابل أصعب الحيوانات فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار ، فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وقيامهم بالدفاع عن انفسهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غرارا في المجالس وعلى الزحال وفوق الاقتاب ، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين ببأسهم ، حتى صار البأس لهم خلقا ، ولذلك كان أكثر البدو توغلا في القفار أشدهم بأسا وأصبرهم على المشاق (١)

مكانهم لا يرجعون إلى اهلهم ، والجشار ( بتشديد الشين ) صاحب الجشر ، وفي حديث عثمان رضى الله عنه انه قال : « لا يفتركم جشركم عن صلاتكم » . فالجشر على ذلك هو المرعى الذى يقيم الرعاة فيه بعض الوقت . ويطلق الجشر في القرب الاسلامى ( القرب والاندلس ) على مواضع من البريف تعمم بالرعاة والزرايع في مواسم المطر ، وتقوم فيها ابنية مؤقتة يقيم فيها الناس ثم يرتحلون منها ويتركونها خالية

اما دشر فهو تحريف من جشر ، يقول دوزى ان سببه ثقل الجيم قبل الشين ، فتقلب في النطق الى دال فيقال دش بدلا من جش ، ودشيش بدلا من جشيش ، ودشر بدلا من جشر ، والمدشر هو الجشر . ومن معانى لفظ جش طحن وكسر ، فيقال دشيش الغول ، ويراد به جشيش الغول ، أى الغول الذى تدور عليه الرجا ، ومن هنا لفظ دش بمعنى كسر ، ودششش بمعنى حطم او قتل

انظر : Dozy. Supplément aux dict. arabes, 1, 442-3

(١) المؤلف هنا ينقل عن ابن خلدون حرفيا تقريبا ( انظر فصل « في ان جيل العرب ن » الخلقه طبعى » ص ١٠٥ - ١٠٦ طبعه الاب لويس شيخو ، بيروت ١٨٨٦ ) . وقد استغنى المؤلف عن بعض العبارات بدافع الاختصار ، ولهذا يستحسن ان يراجع القارئ الفصل برمته هناك ، وهو صغير وسنكتفى هنا بتوضيح بعض عبارات مما أورده المؤلف . فالمراد بالمسارح في النص المرامى . وعبارة « واما اهل الابل » الى قوله الى الدفء « اشارة الى اضطراب هؤلاء البدو الى التنقل بين سفوح الجبال والتلال العشوشية والوديان الواطئة ، فهم يقضون الشتاء في الاودية والصيف على سفوح التلال ، ولكل قبيلة منهم لهذا مشتى ومصيف محددان

فكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ، ولا سيما في أواسطها . وأشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ، ومارب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والاجباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية

### العصية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصية ضرورية لاهل البادية . لان الناس مفطورون على المطامع ، ودابهم التخاصم والتنازع ، فاهل المدن يدفع عدوانهم الحكام واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضا ، وهي ايضا تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعدده من الجند والسلاح . وأما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبزاؤهم ، بما وقر في نفوس اهل القبيلة أو الحى من الوقر لهم . . واكرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتیانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشد بها شوكتهم ويخشى جانبهم

واهل البلد الواحد ، أو المصلحة الواحدة ، لابد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف أحوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لادين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمان خصوصا في البداوة . لذلك عنى العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالقوا في استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الاولين

فأقرب أسباب العصبية عندهم الاخوة والابوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة ، كال ابي طالب وآل العباس مثلا ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بنى هاشم . ومن الفصائل تتألف الافخاذ ، مثل بنى هاشم وبنى أمية ، وكلاهما من بنى عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطون ، مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العماثر ( جمع عمارة ) مثل بنى قريش وبنى كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العماثر تتألف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو

معروفان ، وهم يسمون في علم الاجتماع الترانسهيومانز Transhumans ، ولا يزال منهم الكثيرون في جزيرة العرب وشمال افريقية وصحارى تركستان وغيرها . والمراد بقوله : « طلبا لما خص النتائج في رماله » ان هؤلاء البدو يلتصقون في رمال الصحراء الظروف الملائمة لولادة الابل وما يعقبها من مخاضها

النسب الابعد ، مثل عدنان وقحطان

### آساب العرب

والذى عليه النسابون أن سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون فى اصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هى التى بادت وضاعت أخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثاً تحليلياً فى نسب هذه القبائل وأماكنها فى مقالة نشرت فى الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهى القبائل التى ظهر الاسلام وهى موجودة ، فقامت به ونشرت وأنشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان ، ترجع كل منهما الى أب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع فى أنسابها الى قحطان وهو يقطان الذى ينتهى نسبه الى أرفكشاد ( أبو أرفخشذ ) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية فى اليمن ، ولذلك عرفت أيضاً بالقبائل اليمنية أو عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض أمقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف أيضاً بالاسماعيلية ، ولما كان مقر أكثرها فى الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، أو بعرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصىها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا تأتى بما يهمنا منها فى هذا المقام — فالعرب القحطانية أقدم من العدنانية ، أو تمدنت قبلها على الأقل ، ومنها بنو حمير الذين أنشأوا تمدناً فى اليمن ، ومنهم الملوك التابعة وآثارهم فى حضرموت وخرائب اليمن ، لا يزال أكثرها مدفوناً فى الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك فى تلك القفار . على أن بعضهم ألف الكتب فى هذا الموضوع ، وذهب الى أن التمدن اليمنى أقدم من التمدن المصرى ، وأن الفراعنة أخذوا أصول تمدنهم عن أولئك العرب القحطانية (\*) . والمظنون أن ملكة سبأ التى زارت سليمان

(\*) لا يمكن القطع فى هذا الموضوع برأى حاسم لانعدام الأدلة التاريخية التى تؤيد ما يقوله المؤلف أو تنفيه ، ولو أننا نستطيع القول بأن أبحاث التاريخ المصرى القديم لم تدل على أن أهل مصر أخذوا عن أهل اليمن شيئاً بصورة مباشرة . وكل ما يمكننا قوله هو أن هناك نفراً من العلماء يذهبون الى أن جماعات من أهل اليمن هاجرت الى ما يعرف الآن بالصومال ، وهناك تكاثرات ثم هاجرت مصعدة مع النيل فاستقرت فى حوضه واختلطت بمن وجدته هناك من البشر ، ومن هذا الخليط تكون الجنس المصرى القديم الذى أنشأ دول مصر الاولى وفرا الوجه البحرى ووجد البلاد فكان ذلك ميلاداً لمصر القديمة وحضارتها ، وليس معنى ذلك أن المصريين أخذوا عن اليمن أصول حضارتهم ، بل معناه أن الحضارتين المصرية واليمنية أنشأهما شعبان يرجعان الى أصل واحد

الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه الدولة

\*\*\*

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كان سيل العرم أو انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين ، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروى السفحين الى اعلاهما . بناء بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريبا) وكانت الدولة قد شاخت ، احسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط ، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان في الشام ، وبنو لخم في العراق ، وبنو الأوس والخزرج في المدينة ، والأزد في منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فأخرجوا الأحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من أعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضرمي وسكان المدن (\*) . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقي من القحطانية الحضرمي في يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك أشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي : سبأ وخمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطىء ولخم وكندة وقضاعة وكتب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها

\*\*\*

وأما القبائل العدنانية ، أو عرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام الا قليلا ، ولم ينشئوا دولة الا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة ، مواطنهم غالبا في نجد والحجاز والمراق وتهامة ، وكلها بادية رحالة الا قريشا فقد كانوا حضرا يقيمون في مكة ، وبعض أهل الطائف . وأعظم القبائل العدنانية قبيلة « معد » ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصرا لأرميا النبي (١) . وتفرع من معد أباد ونزار ، وسكنت أباد العراق وتشعبت الى بطون وأفخاذ. وأما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضل الأعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبي (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر ، فسكنت ربيعة في

(\*) مع استثناء أهل مدن الحجاز مكة ويثرب والطائف وما إليها

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١

جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة وأسد وعذرة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بنى عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطنا من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبي (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها

وأشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وأمّية وعبد القيس وغيرها ، وبعضها فروع لبعض الآخر . ولكل قبيلة أو عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تعرف بها رايته وتسم بها أبلها ، أى تنقش عليها علامة خاصة بها كيا بالنار يقال لها الميسم (١) وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويداع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مصر مثلا تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها (٢) واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا أن العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة (\*)

#### عصبة النسب

وبين القبائل ، أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها ، عصبة النسب تجمعها بعضها على بعض — الأقرب فالأقرب الى الأبعد فالأبعد . فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه أوسع العصبيات ، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة ، أو الأفخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو أبى طالب مثلا تخصما ، وكلاهما من بنى هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمّية تخصما ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وقس على ذلك

وكل من القبائل أو البطون أو الأفخاذ يفخر سواه بحسنات قومه ويذكر

(١) الاغانى ٤ ج ١٩ (٢) المسعودى ٢١١ ج ١

(\*) راجع عنهم جمهرة انساب العرب لابن حزم ( القاهرة ١٩٤٨ ) من ٢٠٨

مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب إنما هو بين القبائل القحطانية ( أو اليمنية ) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لأنهم قلما يذكرون انتساب القبائل إلى إحدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتسبت الحرب بين قيس و كلب » ولا يذكرون أن قيسا من العدنانية و كلبا من القحطانية ، لاعتقادهم أن القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، أو معد واليمن ، أو مضر وحميز ، أو هوازن وكهلان ، أو قيس وهمدان ، أو نجو ذلك

### العرب والعجم قبل الاسلام

على أن العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم «العجم» ، ويفخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الأعجم للدلالة على الخرس ، أو أن العجم مشتق من العجمة ، فالعجمى عندهم غير العربى ، والأعجم الأخرس (١) والأخزر عندهم الذى فى عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص ، فإذا قيل للعربى يا أخزر عد ذلك القول اهانة لأنه أخرجه من العرب . على أن العجمى فى الأصل الفارسى ، والعجم الفرس ، لأن الفرس أقدم من خالط العرب من الأمم الغربية عن لسانهم ، ثم أطلقوا لفظ العجم على كل أجنبى غير عربى

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فإن الفرس فى أيام دولتهم كثيرا ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسيطون على مدن الفرس حتى فى أيام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هذا قد تعمد أذى العرب وأخراجهم من بلاده ، وخصوصا قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك بينى تميم فى البحرين . وما زالت الصفائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن إلى استنجد كسرى على الاحباش فى القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جندا أخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، إلى أن جاء الاسلام وتحول السلطان إلى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصا فى أيام بنى أمية ،



لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشيوعية للطعن في العرب ،  
وسياتى بيان ذلك

### الأمومة والخولة

الأصل في العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب الى الأب ، مثل سائر  
الأمم الراقية ، على أن الأمومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيرا ما كانت  
المزاوجة أو المصاهرة سببا كبيرا للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على  
الاجمال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لاتزال محتقرة حتى  
تصير أما . . فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل  
أمه على امرائه ، لأن الأم في اعتقاده أبقى له من امرائه . ومن أمثلة ذلك  
أن صخر بن عمرو بن الشريد - أخا الخنساء - لما حضر محاربة بنى أسد،  
طعنه ربيعة بن ثور الاسدى فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي صخر  
مدة في أشد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمى تمرضانه ،  
فضجرت زوجته منه ، فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت : « لا هو حى  
فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمى مضجعى ومكانى  
وأى امرئ ساوى بأم حليلة فلا عاش الا فى شقا وهوان (١)

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعززون في المرأة الا أن تكون أما (٢) ولم يكن  
ذلك خاصا بحال المرأة عند العرب ، فقد كان هذا شأنها أيضا عند اليونان،  
لانهم كانوا يعدون المرأة أمة يحبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال  
البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس  
بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أما علت منزلتها وصار إليها الأمر والنهى في  
بيتها ، ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية  
الخولة عند العرب ، وهى نصره عشيرة الأم لأولادها ، وبعبارة أخرى  
لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ،  
أو بالعكس

\*\*\*

وكان للخولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، وأقرب الشواهد عليها  
نصرة أهل المدينة للنبي (صلعم) في هجرته اليهم ، فان الخولة كانت من أهم  
أسباب نصرتهم ، لأن أم النبي من بنى النجار من الخزرج وهى قبيلة  
قططانية ، وأبوه من قريش وهى قبيلة مضرية . فلما توفى والده ذهب

(١) ابن خلكان ١٣٢ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢

به أمه إلى المدينة ، لكي تلتجئ إلى أخواله بنى النجار وهم كثيرون ، وكانوا من أقرب أهلها إلى الدين ، وقد ترهب أحدهم في الجاهلية ، وليس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، واتخذ بيته مسجدا . فأقامت عندهم على الرحب والسعة ، ثم ذهبت به إلى أعمامه في مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه ، هاجر إلى أخواله في المدينة ، وأهلها يعرفون ذلك فيه ، لأن خؤولة بنى النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله ، فلما نزل المدينة رحب به أهلها ، وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت إليهم بقرابة . وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعا عنه (١) ثم تهافت أهل المدينة إلى مبايعته . وكان في أثناء غزواته إذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار (٢) وهم يستهلكون في سبيل نصرته ، ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار إذا هجؤهم خصوا بنى النجار منهم بالذكر ، لتصدرهم في ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو ابن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق  
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا لدى جنب سلع والاماني تصدق  
فما راعهم بالشر الا فجاءة كراديس خيل في الازقة تمرق (٣)

### \*\*\*

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الاسلام ، وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة ، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان ، نصره بنو كلب وهم يمنية ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه ، وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنة يزيد . ولما أفضت الخلافة إلى يزيد ، كان الكلبية من حزبه لأنهم أخواله ، وأمثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام ، منها أن المأمون نصره القرس لأن أمه منهم ، وكان أخوه الأمين ضده وحزبه عربي لأن أمه عربية ، فلجأ المأمون إلى خراسان وأقام بمرور عند أخواله ، فأخرجوا الخلافة من يد الأمين وسلموها إليه . والمعتصم كانت أمه تركية وكان ميله إلى الأتراك كثيرا ، وقد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الأم في الدولة ، مما سيأتي تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون أحزابهم بالتزوج من القبائل

(١) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٢) ابن هشام ٨١ ج ٢ (٣) ابن هشام ١١٠ ج ٢

المختلفة ، فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم (\*)

### توانع العصبية العربية

الحلف :

فعلمة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على انهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام . وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولوتباعدت أنسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بنى النضير وبنى قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان أهل وادي القرى حلفاء بنى هاشم ، وسيأتى ذكرهم في الموالي

وللتحالف أو الحلف عندهم شروط وأسباب ، منها أن يكون الحليف أسيراً لا يستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها (١) والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها (٢) أما إذا قتل فديته نصف دية الصريح (٣) (\*\*\*)

(\*) دور الامومة دور طبيعي في تطور الجنس البشرى ، وهو يعرف عند علماء الاجتماع بالمatriarchat وهو سسابق على دور الابوة ( باترياركات ) Patriarchat ويراد بدور الامومة . ذلك الدور الذي كانت الام فيه رأس الاسرة وصاحبة الامر فيها ، ويكون ذلك عادة في الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج ، لان الاب لم يكن دائم القسم في الاسرة ، وانما هو يخرج للصيد او الحرب ، وقد يخرج ولا يعود ، فتقوم الام بشئون الاولاد ، وينتقل دور الاب الى احد اخوتها ، اى الى خال الاولاد ، ولهذا كان الخال في ذلك الدور هو الاب الفعلى للاولاد ، ومن هنا جاءت أهمية الخؤولة . وعندما تقدمت المجتمعات وتقررت قواعد الزواج واستقر الاب في أسرته أصبح هو رأس الاسرة ، ودخلت الجماعة في دور الابوة

وقد طبق روبرتسون سميت هذه القواعد في دراسته من الزواج والقسرية عند العرب القدماء Robertson, Smith, Kinship and Marriage in Ancient Arabia وقرر ان العرب مروا بدور الخؤولة بدليل وجود قبائل كثيرة منسوبة الى الامهات ( باهلة ، كندة ، جذيمة . الخ )

وقد عارضه في ذلك الراى نفر من علماء العرب ومنهم المرحوم جبرجى زيدان نفسه

(١) الاغانى ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغانى ١٦٧ ج ٢

(\*\*) الحلف او التحالف تقليد عربى قديم هدفه ربط قبيلة بقبيلة او مجموعة من القبائل برابطة اخرى غير رابطة النسب ، وقد ذهب بعضهم الى ان لفظ الحلف مشتق من حلف ، لان المتحالفين يقسمون بيمينتا ، ولكن يبدو ان ذلك غير صحيح ، لان القسم جاء فيما بعد ، ومن غير الثابت على أى حال ان المتحالفين كانوا يقسمون على شيء كشرط من شروط عقد الحلف . وقد يتحالف فرد مع قبيلة على ان يكون حليفاً ، وفي هذه الحالة يختلط معنى الحلف بمعنى الجوار . واشهر الاحلاف كما ذكر المؤلف حلف المطيين وقد تولى مقدمه بنو عبد مناف فيما بينهم ( بنو المطلب وبنو هاشم وبنو نوفل وبنو عبد شمس وبنو الحارث ) ليواجهوا بنو عبد الدار ومن انضم اليهم ، وكان هؤلاء لا يريدون التنازل عن امتيازاتهم ، وعقدوا مع بنى مخزوم وبنى جحح حلفاً سمي بحلف الاحلاف . وقد تطور حلف المطيين واعيد تكوينه باسم حلف الفضول ( وتكون هذه المرة من بنى عبد شمس ونوفل واسد وعامر ) وللفظ الفضول غير واضح المعنى ،

## الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو ان يدعى الرجل رجلاً يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبداً أو أسيراً أو مولياً ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، أن أمية جد بني أمية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه أبا عمرو ، فصار اسمه عندهم أبا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة

وأشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية ذاهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زيادا من غلام رومى من موالى ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهوراً عند العرب ، فكانوا يعتبرون زيادا مجهول الأب فسموه « زياد بن أبيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور ، واختص زيادا بالاستلحاق ، فاستشهد خماراً من أهل الطائف اسمه أبو مريم السلولى ، فشهد أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فاتاه بسمية فحملت منه بزياد ، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون أن معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد ، وقد تم له ما أراد . فسمى زياد من حينئذ « زياد بن أبي سفيان » بعد أن كان يعرف بزياد بن أبيه أو ابن سمية (١) وما زال آل زياد معدودين من قريش ، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور ، وصاروا من موالى ثقيف (٢) ومثل هؤلاء آل أبي بكر ، فقد كانوا من موالى النبی (صلعم) والحقوا بثقيف ، فردهم المهدي الى أصلهم

وان كان بعض المؤرخين يذهب الى ان معناه حلف الافاضل او أهل الفضل - وهناك أحلاف أخرى مثل حلف الرباب ( بكسر الراء ، انظر منه الطبرى ، طبعة أوربا ، ٢٢٢١/١ ، والاشتقاق لابن دريد ، طبعة فستنلند ، ص ١١١ ) وحلف لعقة الدم (انظر منه ابن هشام ١٢٥/١ والأغانى ، ٢٦/٧)

انظر : علاوة على ما ذكر في النص :

كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة فستنلند ، ص ٢٩٨

تفسير الطبرى ، ٢٥/٥

Caetani, Annali dell'Islam, I, Introd. 85-87.

Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme,

1, 254-255.

Th. W. Juynbull, Handbuch des islamischen Gesetzes, p. 258.

W. Robertson Smith, Kinship and Marriage etc. p. 53 ff.

Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, p. 480.

I. Goldziher, Islamstudien, I, 63-69.

أحمد الصالح الملى : محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، الفهرس

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٦

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا » ، وقد يكون الرجل دعى ادعياء فيكون هو دعيا في رهطه ورهطه دعى في قبيلة مثل ابن هرمة ، فقد كان دعيا في الخلع والخلج ادعياء في قريش ، وكثيرا ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة ، لنزولهم فيهم أو لنصرتهم اياهم ، كما أصاب بنى العم من أهل البصرة ، فانهم نزولوا بنى تميم في أيام عمر بن الخطاب ، فأسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم : « انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا ، وانتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب (١)

### \*\*\*

وكانوا يعدون الدعى من أنفسهم ، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح (٢) ويورثونه ، وكثيرا ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليتهم ، رغبة منهم في أن يرثوهم ، وقد يابى المولى أن يلحقوه اذا عرف غرضهم ، كما أصاب نصيبا المغنى المشهور ، اذ أراد مواليه أن يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لأن أكون مولى لاتقا أحب الى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت انكم تريدون مالى » (٣)

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الخلف « المؤاخاة » ، وقد تكون بين القبائل أو بين الافراد ، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن ، فاذا آخيت العربى أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه

### الخلع

و ضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحا أو دعيا خلعه ، أى نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعه ما قد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ، ويشهدون على أنفسهم أنهم خلعوه ، ويبعثون مناديا بذلك فلا تحتل القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحداية الشاعر الجاهلى (٤) وقد يكتبون بالخلع كتابا

ومن أشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة فى الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومى واختصما فى الطريق ، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر ، وعمرو من بنى سهم فكتب الى أبيه أن يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا أذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك مناديا الى مكة (٥)

(٣) الاغانى ١٣٤ ج ١

(٢) الاغانى ٩٤ ج ١٧

(١) الاغانى ٧٦ ج ٣

(٥) الاغانى ٥٢ ج ٨

(٤) الاغانى ٢ ج ١٣

وكان الخلاء في البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام أصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الأحول من شعراء الدولة الأموية خليعا ، يجمع صعاليك الأزدي وخلاءها فيغير بهم على أحبياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتاع الخلاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

### العبيد في الجاهلية (١)

#### الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد ، والقوى يستعبد الضعيف . وكان الانسان في أول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله ، إلا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حراث الأرض ورعاية الماشية ، أو نحو ذلك من الصناعات ، أو يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر وأشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالاسرى بالآلاف والالوف ، ويبيعونهم بيع الأغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة ، صاروا يتزوجون بالجواري ، وبعد أن كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل أو جلد ، أصبح قصاصه منوطا برأى القضاة ، وإذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه

على أن العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية ، لا يخلو منهم بيت ، وأكثرهم من الاسرى أو ابنائهم ، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها ، ويبيعونهم في أسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين دراهما رومانيا الى أربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الأتراك في الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون أبناء الأمراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك أن أبرويز ملك الفرس أهدى الى موريقيس Mauricius ملك الروم مائة غلام من أبناء أراكنة الترك في غاية الحسن والجمال ، في آذانهم أقراط من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، في جملة هدايا أخرى . فأهداه ملك الروم هدية فاخرة ، في جملة عشرين جارية من بنات ملوك بروجان Burgundians والجلالة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجواهر (١)

(\*) يريد بالعبيد هنا الرق ، وكنا نستصوب استبدال كلمة العبيد هنا وفي الفقرة التالية بلفظ « الرق »

## العبيد عند العرب

والعرب أيضا كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب ، أو ممن يتساعونهم من الأمم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشة وما حولها من الأمم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم في أسواقها في المواسم ، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن أشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار (١) فاذا اشترى احدهم عبدا وضع في عنقه حبلا وقاده الى منزله (٢) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفقدى نفسه . وكانوا يتاعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة ، الا اذا دبر المولى عبده أى قال له : « أنت حر بعد موتى » فانه يكون حرا . وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس ، وممن اخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامي الشهير ، فانه كان هو وأمه لرجل من الازد تزوج امرأة من بنى عقيل فساق اليها بشارا وأمه في صداقها (٣)

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيما عند الأمراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبى بكر ومعه ألف عبد غير من كان معه من عشيرته (٤) . ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله ، فعبد الله بن أبى ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عددهم كثيرا وفيهم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم (٥) على أنهم كانوا يستعينون بهم في القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر (٦) واذا شهد حربا لا يضرب لهم بسهم (٧) بل يكون سهمه لسيده

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » ، وهو العبد الذى يعمل في الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cenf في المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبى لهب مع العاصم بن هشام ، فانهما تقامرا على أن من قمر كان عبدا لصاحبه ، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله (٨) وكانوا يسترقون المدينين أيضا

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم ، فاذا

(١) المسعودى ٢٨٢ ج ١ (٢) المعارف لابن قتيبة ١١٢  
(٣) الاغانى ٢٠ ج ٣ (٤) المسعودى ٢٨٧ ج ١  
(٦) الاغانى ١٢٤ ج ١٤ (٧) المعارف لابن قتيبة ١١٠  
(٨) الاغانى ١٠٠ ج ٣



انجب احدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقى عبدا . وأشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنتره العيسى بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلما أنجب ألقاه بتسبه (١) وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لايعتقون عبيدهم الا لسبب هام . وإذا أحب العبد العتق ، استباع أى طلب البيع ، فإذا رضى صاحبه باعه لسواه . أما بعد الاسلام فقد كثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتى ذكرها (٢)

### المولى فى الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه أن يكون عبدا معتقا ، فكل عبد اعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان فى الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه أو الى قبيلته أو رهنه . فعولى العباس مثلا هو مولى بنى هاشم ، وهو أيضا مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى أهل المدينة ، أو مولى أهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، ولكنهم يسمون قرابة الأهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، وأكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . وأما عند التحقيق فالمولى ثلاثة أنواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رحم

(١) الاغانى ١٤٨ ج ٧

(٢) يقول العرب «عبد» والجمع عبيد وعباد ، ويقولون للأنثى من الرقيق إماء والمفردة « أمة » ، ويستعملون لفظ الجنس « رقيق » ، ولم يرد هذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وإنما تستعمل مكانه كلمة « الرقاب » والمفرد رقبة أو ما ملكت اليمين . ويقال أيضا عبد مملوك ، لتأييد معنى الملك ، ومملوك فقط ، وغير ذلك . وقد عرفت كل هذه المصطلحات تطورات شتى على طول تاريخ الاسلام ، فالمملوك والرقاب والجارية والفتى مثلا فى القرن الرابع الهجرى لا تحمل نفس المعانى التى كانت لها فى القرن الاول . وقد كان الرق معروفا فى الجاهلية ، وكان الرقيق من المتاجر التى تدور على القرشيين ربعا عظيما ، ومن اشتهر بالتجارة فيه عبد الله بن جدعان ، وكان معظم الرقيق الذى كانوا يتاجرون فيه من الاحباش ، وكان فيهم القليلون من الروم وربما من العرب أيضا ، وإن كان الغالب أن يكون الرقيق العربى ابنا لجارية فلزمه رق أمه ، وكان المفروض ألا يعترف به أبوه ابنا شرعيا له إلا اذا شاء ذلك ، وقصة عنتره بن شداد التى بين أيدينا إنما هى لذلك قصة ذات موضوع ، فهى تصور جهاد ابن جارية للخروج من رقه بإرغام أبيه على الاعتراف به ابنا شرعيا ، وفى سبيل ذلك أتى عنتره بما أتى به من ضروب البسالة

انظر :

G. Jacob, Altarabische Bedwinenleben, Berlin 1897, p. 137-139, 213  
Bischr Fares, L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Paris 1932, p. 71.  
Lammens, Le berceau de l'Islam. Rome, 1914, p. 299.

دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة ، مادة « عبد » بقلم و. برونشفيج

فمولى العتاقة هو الذى كان أسيرا أو عبدا واعتق ، وكانوا يعتقون الأسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير فى صدر الاسلام ، لان المسلمين كثيرا ما كانوا يستعينون بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعتاق . ومن امثلة ذلك أن المسلمين لما حاصروا الطائف فى السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبى (صلم) مناديا فنادى : « ايما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة (١) وقد يكون الاعتاق لسبب آخر

واذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى للمالك تلك الناصية . ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبى (صلم) بعد واقعة أحد جوابا على قول هبيرة بن أبى وهب :

الا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت اهل القلب ومن الفينة فيها  
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا موالىها (٢)

## المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك أن يكتب العبد على نفسه صكا بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجما « تقسيطا » ، فأبو سعيد المقرئ أحد كبار التابعين كان عبدا لرجل من جندع ، وكتبه على أربعين ألفا وشاة لكل أضحية فأداها (٣)

قلنا أن من اعتق عبدا كان ولاءه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولاءه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على أنهم كانوا يشترطون أحيانا ألا يكون ولاءه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهى أن يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « أنت سائبة » يعتق ولا يكون ولاءه لمعتقه ، ويضع ماله حيث شاء . ومن أشهر المعتقين سائبة سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة ، وأصله من اصطخر وكان مملوكا لبثينة امرأة أبى حذيفة ، فأعتقته سائبة (٤)

على ان الاسلام نهى عن أن يكون الولاء لغير المعتق ، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة أم المؤمنين تستعينها فى كتابتها وعليها خمس أواق نجمت عليها فى خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « أرايت ان عددت

(١) العقد الفرید ٢ ج ٣ (٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢

(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤ (٤) المعارف ٩٢

لهم عدة واحدة إيبيعك اهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لى ؟ » فذهبت بريرة الى أهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا أن يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله (صلم) فذكرت ذلك له فقال : اشترىها فاعتقها فانما الولاء لمن اعتق » (١) الا أن يشتري أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري ، كما أصاب أبا معشر أحد أصحاب الحديث ، فقد كان مكاتبا لامرأة من بنى مخزوم فأدى وعق ثم اشترت أم موسى بنت منصور الحميرية ولاءه (٢)

ومن اسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك أن يقول الرجل لعبده أنت حر بعد موتى فلا يرثه أهله (٣)

#### مولى القدر

ويقال له أيضا مولى حلف أو اصطناع ، وذلك أن ينتمى الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها ، أو بالمخالفة أو المخالطة أو الملازمة على أن يتعاقب ذلك أجيالا . ومن أمثلة الموالى بالمخالفة أو المخالطة اليهود في يثرب ( المدينة ) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالى الاوس والخزرج ، فولأؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته أن اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل أن ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن ، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فأقاموا في ضيق ، حتى اتفق أن أميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم ، وكأنه استعانهم عليهم فاتفقوا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا داهمهم أحد من الاوس أو الخزرج بشيء يكرهونه ، لايمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس أو الخزرج يتعززون بهم (٤) ويحالفونهم على أنهم مواليتهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالى بنى النجار أخوال النبی ( صلم ) أو موالى غيرهم من عرب المدينة .

ومن هذا القبيل أكثر موالى العرب بعد الاسلام ، فقد كان العرب أهل

(١) البخارى ٦٠ ج ٢ (٢) الماروف ١٧٢

(٣) التدبير هو أن يقرر الرجل أن عبده معتق بعد موته ، واصله قول الرجل لعبده : « أنت حر من دبر منى » أى بعد موتى . والمذاهب الاسلامية كلها تجيزه على اختلاف في الأحكام ، وكلها تقر استحقاق الرجوع عن قرار العتق تدبيرا ، فاذا أراد الرجل الرجوع فيه أباح له الشافعيون والحنابلة بيع العبد الى رجل آخر ، فيسقط حق العبد في الحرية بعد موت مالكه الاول ، أما الحنفيون فلا يجيزون ذلك الا اذا كان الوعد بالتحريم مقيدا بشرط . وكان للمالك أن يضاجع عبده المدبرة ، ويجزى على أولادها في هذه الحالة ما يجزى عليها

(٤) الاغانى ٩٧ ج ١٩

السيادة والشوكة ، وأهل البلاد يلزمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالة ، وهى أن يقول شخص لآخر : « أنت مولاي ترثنى اذا مت ، وتعقل عنى اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالى ، فقد كان البرامكة مثلا من موالى الرشيد ، ومن هم دونهم من العجم موالى الامراء ، وهكذا

وكان المولى فى الجاهلية ربما كان نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا ، لا فرق فى ذلك عندهم ، فموالى النبى (صلعم) كان أحدهم حبشى الاصل والآخر يونانى الاصل والآخر قبطى الاصل والآخر فارسى الاصل (١) (\*) وعدس مولى عتبة بن أبى ربيعة كان من أهالى ثينوى وقتل يوم بدر على النصرانية (٢) أما بعد ظهور الاسلام فأصبح الولاء خاصا بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى والآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة

#### مولى الرحم

وأما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالى بعض القبائل ، فينسب إلى القبيلة التى تزوج من مواليها . ومن أمثلة ذلك سديف الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بنى هاشم لأنه تزوج مولا لآل أبى لهب ( من بنى هاشم ) (٣)

وللموالى عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة ، فأحكامهم العامة ان المولى أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد ، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر فى الزواج والميراث . فالمولى لا يتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر (٤) كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجسد نصف حد الحر

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، وأهمها الارث ، فموالى العتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث ولا يورث ، ومولى الرحم يرث ويورث (٥) فمن أعتق عبدا كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم أو يكتسبونه بالعمل

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢

(\*) الآراء مختلفة فى عدة موالى الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف صاروا الى ولاءه ، وقد مقّد لهم فصولا معظم من كتبوا السيرة ، غير ان أدق احصاء أورده ابن الاثير ( انظر طبعة المطبعة المنيرية الاولى ، ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ ) ، وتحدث منهم القريرى فى « امتاع الاسماع » حديثا مطولا ، والمولى الحبشى المشار اليه فى المتن هو بلال ، واليونانى هو يسار ، والفارسى سلمان ، والقبطى هو مابور الذى أهده اياه القوقس مع مارية القبطية واختها سيرين ، وكان خصيا (٢) المسعودى ٣١ ج ١ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤ (٤) الاغانى ١٧٦ ج ٢ (٥) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

أو غيره ، وإذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم (١)  
 وكان للموالى شأن فى عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم فى  
 الاسلام ، حتى كانوا سببا فى قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة (٢).

### النزلة الاجانب فى الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن  
 يتبعهم من العبيد والموالى والخلفاء ونحوهم ، وفيها أيضا جماعة من النزلة  
 نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند ، وفيهم  
 الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم  
 يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيهم ،  
 كالكلدان والريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود  
 والنصارى ، ومنهم من يدخلون فى جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس  
 والهنود ، فتضيع اصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور  
 الاسلام عربا صرفا ، الا بعض اليهود كبنى قينقاع والنضير وغيرهم ،  
 وشرذمات من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

#### الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون فى بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس  
 الاحرار او « الابناء » تمييزا لهم عن الفرس الموالى . وأبناء الفرس الاحرار  
 هم ابناء الجند الفارسي الذى جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذى يزن الحميري  
 على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف  
 المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده فى حديث طويل ، فسير كسرى  
 معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل  
 الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم  
 واخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذى يزن ووهرز أربع سنين . وكان  
 سيف قد اتخذ من الاحباش خدما ، فخلوا به يوما وهو فى الصيد وقتلوه  
 وهربوا فى رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوه جميعا ، وتضعض امر

(١) Gibbon's Roman Empire, II.

(٢) الماده عن المولى والموالى والولاء غزيرة جدا فى كتب الفقه الاسلامى خاصة بحيث يتعذر  
 ايرادها هنا ، وقد افاض ابن منظور فى اللسان المرتضى الزبيدى فى تاج العروس فى الكلام على  
 انواع الولاء والموالى ( ماده ولى ) ولهذا نكتفى بان نورد بعض الابحاث الاوربية الحديثة فى الموضوع:

Von Kremer, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen II, 154.

Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien, I, 104 sqq.

Schacht, Origins of Muhammedan jurisprudence, 265, 279.

R. Levy, Introduction to the Sociology of Islam, I, 117-127.

والراجع التى اوردها برونشفيج فى مقال «عبد» فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية ،

اليمن ولم يولوا عليهم أحدا من العرب ، فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فاسلما

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، ورزقوا الأولاد والأحفاد وعرفوا بالأبناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طائوس بن كيسان أحد اعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم

وكان مثل هؤلاء الفرس أيضا في الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت أسماؤهم باختلاف أماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون في اليمن الانباء كما رأيت ، وفي صنعاء خاصة يسمون بنى الاحرار ، وفي الكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالجزيرة الحضارمة ، وبالشام الجراجمة (١) . وكان للأبناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجندوا للمسلمين ونصروهم ، وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالي (\*)

#### سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم ، الا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ، مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية في الامم المتقدمة

فالرياسة عندهم او الامارة انما ينالها اهل العصبة والجاه ، واذا تساوت العصبة في جماعة قدموا اكبرهم سنا ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معا ، واذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب ، واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا فانهم يقرعون بين اهل الرياسة ، فمن

(١) الاغانى ٧٦ ج ١٦

(\*) يطلق لفظ « الانباء » ايضا على اولاد سعد بن زيد بن عبد مناة بن تميم ، علما ان اثنين منهم هما كعب وعمرو ، وكانوا يسكنون بالدنهان  
اما لقب الانباء فيطلق عادة على أبناء الفرس خاصة من كان في اليمن ، وكان اول دخول الفرس اليمن على ايام خسرو الاول الملقب بأنوشروان (٥٢١ - ٥٧٩ م) استجابة لاستجداد سيف بن ذى يزن الحميري بسبب توالى غارات الاحباش على اليمن ، فأرسل حملة قوية طردت الاحباش ، ثم عاد هؤلاء الآخرون مرة اخرى فأرسل الفرس قوة اخرى طردت الاحباش من اليمن بصورة نهائية واستقرت الحماية الفارسية في اليمن حتى جاء الاسلام فاسلم قائدها باذان ورجالها وابنائهم الذين عرفوا بالانباء

واطلق لفظ « الانباء » ايضا على اولاد انصار الدولة العباسية الاول ، والتسمية اختصار لعبارة « أبناء الدولة »

انظر :

Wüstenfeld, Register zu den genealogischen Tabellen der arabischen Stämme  
Noeldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden (Leyden, 1879)  
De Goeje, Glossar zu Tabari

وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة . . ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . واما حضرم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدى من تميم ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بنى الريان من بنى الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالى ثلاثة آباء منها في الرياسة على الاقل . ولاهمل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة (\*) : وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن ابن على : - « ول اهل البيوتات تستصلح بهم عشائركم »

والامير البدوى مع سلطته المطلقة قلما يستتيد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن احد ولا يمتن احدا . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون القاب التفضيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوى امره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس وابهاء الضيم ، او هى انفة البدواة ، على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان (\*\*) ، والامير يخاطب رعاياه بالقباب الوقار ، كالأب والعم والخال والابن او ابن الأخ ، على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فانسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

### مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على أن العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التى تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنيا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تاصل في أمة أغناها عن القضاء - والحكومة انما تقضى بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا في خلق العربى ، ويزيد

(\*) راجع الفصل القيم الذى كتبه السيد محمود شكرى الالوسى في كتابه « بلوغ الادب في معرفة احوال العرب » ومثوانه « بيوتات العرب » الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩١

(\*\*) أى يتكلمون في المجلس بحسب السن ، يتكلم الأكبر فمن يليه وهكذا



تمكنا فيه كلما بعد عن المدن وأوغل في الصحراء ، لأن الفسدر والنكت لا يعيشان الا في القصور السماء في ظل الحدائق القناء

وترى الوفاء مطبوعا في اقوال اهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ، ويتجلى في عاداتهم وأخلاقهم وفي سائر أعمالهم ، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلقة أحسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمه فضمه شريك بن عدى ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفي حنظلة فجاء في الوقت المعين ، لا جند يقوده ولا حراس تخفرونه ، مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة (١)

وأغرب من ذلك وفاء السموال ( صموئيل ) بن عاديا ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحا وامتعة تساوى مالا كثيرا ، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموال ، فلم يسلمها . ولما ألح عليه أجابه : « لا أغدر بدمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء الواجب على » . فجرد الملك عليه جيشا وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموال أسيرا عند الملك ، فهدد السموال بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة ، فأبى التسليم وقال : « ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فافعل ما شئت » . فذبح ولده والسموال ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائبا ، وأما السموال فصبر على ما تحمله من التكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرئ القيس فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين ، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصا اذا أضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الدل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيا . . فهذه كلها مناقب العرب أهل البادية

#### الجوار

ومن قبيل الوفاء بالمعهد وحفظ الذمام ايضا « الجوار » ، فان البدوى يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الاصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعى حتى قيل : « جارك القريب ولا أخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع أن أصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على

الإطلاق ، فإذا خاف أحدهم سوءا جاء إلى رجل يحميه ، ويكفى أن يقول له : « أجرني » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط في أهله ولا يفرط في جاره ومن أمثلة ذلك أن الأعشى امتدح الأسود الغنصى فأعطاه جائزة من الخلل والعنبر ، فرجع وطريقه على بنى عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرني .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الجن والإنس .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « أجرني .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الإنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت ؟ » ، قال : « إذا مت وأنت جارى بعثت إلى أهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت أنك تجيرني » (١)

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته ، فيكفى أن يعقد طرف ثوبه إلى جانب طنب البيت ، فإذا فعل ذلك صار جارا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به أن يجيره وأن يطلب له بظلامته (٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه أن عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر أنصابا ميلا في ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، إشارة إلى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته (٣)

وما زال الجوار مرغبا عند العرب بعد الإسلام ، إلا من خالط الأمم الأخرى في البلاد المفتوحة . على أن تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة ، والرجل يومئذ إنما يستجير من حاكم يطلبه ، فإذا استجار به مظلوم قالوا : « إنما يجير الرجل على عشيرته ، وأما على سلطانه فلا » خوفا على مناصبهم ، كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بنى زياد واستجار بالأخنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الأخنف خوف العزل ، وقال له : « إذا شئت أن أجبرك من بنى سعد فعلت » ، فذهب إلى غيره من وجهاء العرب فأبوا أجارته لنفس هذا السبب (٤)

#### الأربعية

ومن المناسبات التي تفنى العرب عن الوازع القهري أو القوة الحاكمة « الأربعية » ، وهي من مقتضيات المصنوع الجاهلية البدوية ، أو ما يجسرى

(١) الأغاني ٨٢ ج ٨ (٢) الأغاني ١٨٤ ج ٢  
(٣) الأغاني ١٢٩ ج ١٥ (٤) الأغاني ٥٦ ج ١٧

مجراها من أحوال الفروسية التي يعبر عنها الأفرنج بقولهم *Chevalerie* ،  
 ومرجع ذلك إلى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الأحدثنة . وكان الأريجية  
 شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم أهل خيال  
 وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون  
 الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما يذل العربي حياته في سبيل كلمة  
 يقولها ، أو فرارا من كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة  
 والمباهاة في المواسم والأندية ، مما يرغب في الفضائل ويغنى عن زجر الحكام  
 ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له في  
 موضوعنا

## سياسة العرب

### في عصر الراشدين

من سنة ١١ - ٤١ هـ

الجامعة الإسلامية

قد رأيت أن العرب إنما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الإسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدا واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد أن كان اليمنى يفاخر الحجازي ، والمضري يفاخر الحميري ، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الإسلام» ، فقال النبي : «المسلمون اخوة» ، وقال في خطبة ألقاها يوم فتح مكة : «يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب» (١) (\*) وقال من خطبة في حجة الوداع : «أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى» (٢) (\*\*)

واقتدى بالنبي خلفاؤه الأولون ، لاسيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الإيهم ملك غسان بعد أن أسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة أن فزاريا وطىء زاره فأنحل ، فرقع جبلة بده وهشم الفزاري ، فشكاه إلى عمر فاراد أن بهشم انف جبلة ، فقال : «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟» فأجابه عمر : «إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية» ، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد إلى الفرار (٣)

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢

(\*) بقية حديث ابن هشام تكمل ما يريد المؤلف قوله هنا . قال ابن هشام بعد ذلك : «ثم تلا هذه الآية ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقكم ) الآية كلها ، ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » - ابن هشام : السيرة ج ٥٤ - ٥٥

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١

(\*\*) رجعت إلى نص خطبة حجة الوداع عند ابن هشام فلم أجد فيها هذا الحديث الشريف ، ثم رجعت إلى نص الخطبة كما نقلها الدكتور حسين هيكل في كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم فلم أجدها أيضا . وإنما الذي فيها مما يتفق مع المعنى الذي يريد المؤلف هنا : «أيها الناس ، اسمعوا قولى وأعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ..»  
أنظر : سيرة ابن هشام ، طبعة السقا والإبيارى وشلبي ، القاهرة ١٩٣٦ ج ٤ ص ٢٥١ - ٢٥٢  
حياة محمد للدكتور هيكل ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٥٨ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤  
(٣) الأغانى ٤ ج ١٤

فيؤخذ من ذلك أن الجامعة الكبرى إنما هي الاسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الأمم لأنهم قوام الاسلام ، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيرا ، لأنهم أصل العرب ومادة الاسلام (١) وقال : « إياكم وأخلاق العجم » ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر أول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سييهم ، ومن أقواله : « قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم » ، وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى أيامه (٢) عملا بالحديث « لا سبا في الاسلام »

وكان عمر لا يدع أحدا من العجم يدخل المدينة (٣) وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين وأخرج اليهود منها ، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة (٤) لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضيع عصبيتهم ، ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدكم عن أصله قال : من قرية كذا .. » (٥)

#### الجامعة العربية :

ثم ان عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها ، قدحرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : « ليست الحجاز لكم بدار الا على النجعة .. سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها » (٦) لعلهم أن في العراق والشام عربا يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناعمين على الفرس من أيام دولتهم ، لا كانوا يسومونهم إياه من الاضطهاد . وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية ، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبة العربية وليس للدين . وخصوصا عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على غورات الفرس - فأبو زيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني ، وإنما حارب حمية للعرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمرى في جمع عظيم من النمر - وهم نصارى - وقالوا : « نقاتل مع قومنا » (٧) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية ، بقطع النظر عن الدين

وكثيرا ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم ، يرشدونهم

(٢) ابن الاثير ١٨٦ ج ٢

(١) ابن الاثير ٢٥ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢

(٣) المسعودي ٢٩ ج ١

(٧) ابن الاثير ٢١٥ ج ٢

(٦) ابن خلدون ١٢٢ ج ١

(٥) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه ، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له : «انى لست من دينكم ولكننى انصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان راوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم» (١) وقد نفعته هذه النصيحة ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم ، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب واياذ والنمر - وهم نصارى - أبى هؤلاء الجزية ، وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم: «أنهم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية فلا تمن عدوك عليك» فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ، ولكنه شرط عليهم أن لا ينصروا اولادهم (٢)

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية ، وكان يعد ذلك حقا واجبا . فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة ، انضمت اليه عربها النصارى ، الا قبيلة اياذ ، فانهم تحملوا الى بلاد الروم ، فكتب الوليد الى عمر بذلك ، فكتب عمر الى ملك الروم : «بلغنى أن حيا من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه النينا أو لتخرجن النصارى اليك» فأخرجهم ملك الروم (٣)

#### الانسياح في الارض :

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعا للجامعة العربية ، والاستعانة بها على الروم والفرس ، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الارض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر ، فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم ، كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر ، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية ، فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له : «انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا وأعجز عن القتال والحرب » فلم يجبه عمر ، ولما ألح عليه اطاعه وهو يتردد وقال له : «سر . . انى مستخير الله في سيرك ، وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى ، فاذا أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئا من أرضها فاتصرف ، والا ان دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره» . فسار عمرو بجنده مسرعا خوفا من أن يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهى من مصر ،

ففض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئا في ارضها فامض واعلم اني ممدك » ، فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون اليها ولا نصل اليهم » . ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء ، حتى اذا اراد ان ياتيهم اتاهم على راحتته ، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بدا من الانسياح في الارض اذن لقواده بالفتح ، ولكنه ظل على رأيه في القرشين على الخصوص ، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال : « أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولي عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد (١)

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضى ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وان يختص قريشا بالأقامة في المدينة لانها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه ، على أنه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدا من الاذن في الانسياح (\*)

#### (١) ابن الاثير ١٠ ج ٢

(\*) لم تتقدم الدراسات حول عمر بن الخطاب في العصر الحديث خطوة واحدة عما كانت عليه في القرن الرابع الهجري ، وكل من كتبوا عنه من مؤرخي المسلمين المحدثين يدورون حول معان كهذه التي أوردتها الطبري في كتابه : « الرياض النضرة في مناقب العشرة » ، القاهرة ١٣٢٧ . اما المستشرقون فلم يخرجوا عما قاله الاب هنري لامانس في مقاله المعروف « ثالوث ابى بكر وعمر وابى عبيدة بن الجراح » :

Henri Lammens, Le Triumvirat Abu Bakr-Umar-Abu Ubaidah ibn al Jarrah dans Etudes sur le siècle des Umayyades

وما كتبه ليسونى كايتمانى في المجلد الخامس ، من تاريخه الطويل Annali dell'Islam وهو اوسع دراسة حديثة لعمر واعماله . ولكن كايتمانى اساء الظن وذهب ملهيا ماديا صرفا في الدرس والتحليل ، وغايتة عنه نواحي الجمال في الشخصية المعربة . واغرب ماذهب اليه تشبيهه عمر بالقدس بولس ، مع ان الفرق بين الاثنين عظيم ، فالقدس بولس داعية ومنظم دماء وواضع طقوس ، وهو الذي اخرج من حياة المسيح واقفاله طقوسا وعبادات ، اما عمر فكان رجل دولة ومنظما من الطراز الاول ، وكان الى جانب ذلك على خلق متين واثمان لا يتزعزع . وبهنا هنا - في مجال التعليق على كلام المؤلف - موقفه من العرب واثمانه بالعروبة ، فقد كان عربيا صريحا يعرف مواضع قوة العرب ومواضع ضعفهم ، فاجتهد في الافادة من مواطن القسوة على احسن صورة ممكنة ، وحرص على ان يجنب العرب التعرض لمواطن الضعف ، ومن هنا كان حرصه على الا يختلطوا بالناس ويستقروا في الارضين فيستقيموا الى الدمة ، وهم عدد قليل وسط

فالعصبية التي قام بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصا عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا «العرب» ارادوا «المسلمين» ، وبالعكس. ولفظ «طيبوتا» عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبية عديدة تختلف باختلاف الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل (\*)

### طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي (صلعم) بالدعوة الاسلامية، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرقوا بالمهاجرين ، وهم أقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة واقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم «الانصار» وهم طبقة اخرى ، والطبقتان معا تسميان «الصحابة» أى الذين صحبوا النبي أو عرفوه . وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصره الاسلام أو نشره . فواقعة بدر كان

محيط واسع من البشر فتذهب ريعهم . وربما كان موقفه من الصحابة أعظم دليل على مهلته السياسية ، فقد عرف ان تفرقهم في النواحي يتيح الفرصة لالتفاف الناس حولهم ، وربما اغرى ذلك بعضهم بطلب السلطان ، فالزمهم بالقام في المدينة أو مكة تحت بصره ، وقد خدمهم بذلك خدمة كبرى لم يعرفوا قدرها الا بعد مقتله ، فقد تعرضوا للسياسة واخذتهم التيارات ووقع الشقاق بينهم مما ادى الى وقوع الفتنة

ومن النواحي الخاصة التي امتاز بها عمر اعتماده على الشباب دون الشيوخ ، وكان شباب بنى امية اقرب الى قلبه من غيرهم لادراكهم شؤون الادارة وتقديرهم للمسئولية ونمو الشعور بالنظام في قلوبهم ، ولهذا فقد ولي الكثيرين منهم الولايات العظيمة ، وهو في الحقيقة الذى مهد لهم الطريق للسلطان ، وقد عبر القرطبي عن ذلك في كتابه « النزاع والتخاصم بين بنى امية وبنى هاشم » بقوله انه هو الذى « حدد انيابهم » ، وتلويح الدولة الاموية لهذا يبدأ من خلافة عمر ، بل من اواخر ايام الرسول صلى الله عليه وسلم

ويذهب المستشرقون الى ان عمر نقل الدولة الاسلامية من اسلامية الى عربية ، وجعل الصدارة فيها للعرب ، واعتز بخصال العروبة واجتهد في المحافظة على الكيان العربى سليما ، وهذا كله صحيح . ولكن عمر لم يقطع قدر غير العرب كما يقول فلهاوزن وكايتانى ، فالواقع ان عمر ، رغم ايمانه بالعرب واعتزازه بهم ، هو الذى ابتكر فكرة ربط الشعوب المفتوحة الى العرب برابطة الولاء ، فرفع اهل هذه البلاد الى مرتبة المواطنة الكاملة في الدولة تحت اسم «الموالى» ولم يكن الموالى اقل في شيء من العرب ، سواء في الحقوق او الواجبات ، وهو الذى حال بين العرب الفاتحين وتملك الاراضى المفتوحة ، فحال بذلك بين الموالى وبين ان يصيروا رقيقا ، ومن هذه الناحية يعتبر عمر من اعظم المبكرين في ميدان التشريع العام لا الاسلامى فقط . وموضوع عمر في حاجة الى دراسات طويلة جديدة لا تدور حول « مناقب العشرة » بقدر ما تدور حول ميقرته السياسية وقدرته التنظيمية ، وتمكنه رغم ضعف الاداة التي كانت بين يديه من السيطرة على جيوش قوية منتصرة كان من الممكن ان يستبد قوادها بما فتحوا . وتتشع قيمة ذلك كله اذا نظرنا الى ما وقع بعد وفاته بسنوات قلائل ، أى في خلافة عثمان

(\*) يستعمل المؤلف هنا لفظ جامعة بمعنى الرابطة، فالجامعة الاسلامية هي الرابطة الاسلامية وكذلك الجامعة العربية هي رابطة العروبة



لها شأن عظيم في تأييد الاسلام ، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا «البدرين» أو «أهل بدر» ، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة على يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم «أصحاب الجمل» ، وشيعة بنى أمية يفضلون «أصحاب صفين» مثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه

على أن الصحابة يتفاضلون أيضا في السبق الى الهجرة أو الى البيعة، ومنهم أصحاب بيعة العقبة وأصحاب الفار (\*) . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه. ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية أو الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم (\*\*).

على أن عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهابا تاما ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح أشرف الانساب عندهم ، أقربها الى قبيلة النبي «قريش» فالنسب القرشي أشرف الانساب ، وللقريشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء وخصوصا بعد اشتهاار الحديث : «الائمة من قریش» (١) فاعتقدوا الفضل للقريشيين على الناس كافة في كل شيء ، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا : «لا تحمل لستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية» (٢) (\*\*\*) ، وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة (٣) وأن القرشي لا يتزندق (٤) وانه لا ينبغي

(\*) لا ادري ما المراد بأصحاب الفار هنا ، لان الفار ليس فيه الا صاحب واحد هو ابو بكر الصديق ، ولعل المراد هنا اصحاب الشعب وهم الذين حاصرتهم قریش مع الرسول صلى الله عليه وسلم في شعب خارج مكة وقاطعهم وكتبوا وثيقة مقاطعتهم في « الصحيفة » المشهورة (\*\*\*) لا بعد الحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم من اصحاب المناصب ، ولم يكونوا كذلك طبقات متميزة ، بل لم يكونوا جماعات ذات وحدة وامتياز معين ، وانما هم افراد امتاز بعضهم بميزات الشخصية ، وهم في هذا يختلفون عن اصحاب المناصب الحقيقية كالقضاة وامراء الجند وعمال النواحي ومن اليهم

(١) العقد الفريد ٤٠ ج ٢ (٢) الاغانى ٨٨ ج ١٥

(\*\*\*) معنى ذلك ان القرشيات وحدهن هن اللائي يحملن ويلدن حتى تصل سنهن الى الستين ، والبريات وحدهن هن اللائي يحملن ويلدن حتى سن الخمسين . وقد وجدت اصل الخبر في طبعة الساسي من الاغانى ج ١٥ ص ٨٥ ونصه : اخبرني الحرشي بن ابي العلاء والطوسي قالا : حدثنا الزبير بن بكار ، واخبرني احمد بن محمد بن سعيد الهمداني ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوي ، قال : حدثني الزهير بن بكار ان هنذا حملت بموسى بن عبد الله ولها ستون سنة ، قال : ولا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية .

(٣) الاغانى ١١٠ ج ١٤ (٤) الاغانى ٦٠ ج ١٤

للقرشى أن يستغرق فى شيء من العلم غير الاخبار (١) وظلت الرياسة فى قریش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص، ولا سيما فى أيام بنى أمية، اذ ذهب دھشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية، فاخصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر - والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الوس والخزرج) - فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التى نشأت فى ذلك العهد، فكان الانصار مع على ومعظم المهاجرين مع معاوية، وعادوا الى المهاجرة والمفاخرة بالاشعار وغيرها وكان الانصار اهل المدينة من أشجع الناس وهم اهل الشورى، يعتقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة على وسائر اهل البيت. فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من اقوى مقاوميه، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون فى اذلالهم، وكثيرا ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب - يروى أن بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية فى ابان خلافته، فدخل الحاجب وقال: «هل تأذن للانصار؟»، وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال: «ما هذا اللقب يا امير المؤمنين؟ اردد الناس الى انسابهم»

#### سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام فى عصر الراشدين دولة سياسية، بل هى خلافة دينية أساس احكامها التقوى والرفق والعدل، مما لم يسمع بمثله فى عصر من العصور. ورجل هذا العصر، بل رجل الاسلام على الاطلاق «عمر بن الخطاب»، فان ما يروونه من أعماله واحكامه ينذر اجتماعه فى البشر، ومناقبه مدونة فى الكتب ومشهورة. واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه، لولا قصر مدة حكمه، ويكفيه من الاثر فى الاسلام قتاله اهل الردة، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبى، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهى لاتزال فى طفولتها، فشمروا ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وأيد الدين، وكذلك يقال عن على وعثمان

ابو بكر :

وعصر الراشدين هو فى الحقيقة عصر الاسلام الذهبى، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل. فقد أسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون الفا، وهى ثروة طائلة يومئذ، أنفقها كلها فى سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة. وكان له فى خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار. وكان منزله فى السبخ بضواحي

المدينة يغدو اليه على رجله ، ويندر أن يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنع . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحى اغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا» فقال : «بلى لعمرى لاحلبنها لكم ، واني لارجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه» . وبعد خلافته ستة أشهر تحول الى المدينة وقال : « ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم» . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له : ٦٠٠ درهم في السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة أرض كنت له ، أن تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين

عمر بن الخطاب :

أما عمر بن الخطاب ، ففي أيامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم ، وأنصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدي رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه أزار مرقع بجلد . وإذا أنفق عطاءه واحتاج الى المال أتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على أموال المسلمين ، لا ينفقها الا في مصالحهم ، ويتولى أمورهم بنفسه ديناً وسياسة ، فيسعى في نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويعرض الناس على التقوى ، وإذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث أناساً من القراء يعلمون أهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب (١) وكان شديداً على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم ، فمن رأى فيه أعوجاجاً قومه ، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير ، فان عمر نقم عليه لأمر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده بأنه غلام وخالد لا يجيبه (٢) وقد يضرب عامله بالدرّة أو يوبخه ، وليس فيهم من يرد في وجهه أو يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، أو يطمع في أموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الأب لبنيه ، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة ، وإذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد أهلهم بما يحتاجون اليه (٣) وكان عادلاً في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في أيامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون في الاسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان

(١) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢

(١) الاغانى ٥٨ ج ١٦

(٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب

قابضاً على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت أركانها ، ونقض كثير من أهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان (١) وغيرهما من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان :

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوى قرابته من بنى أمية ، حتى نغم عليه سائر المسلمين ، وخصوصاً أهل المدينة لأسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لأنفسهم . على أن عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا أنه كان عند خازنه ١٥٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠ درهم ، وله ضياع بوادي القرى وحسين وغيرهما قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار ، فضلاً عما خلفه من الخيل والابل ، وفي إقامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال (٢) وتعودوا الغنى والترف ، فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كآبروه ، وساعدهم على التمتع قيام معاوية واطماعهم في الاموال ، وسيأتي بيان ذلك

علي بن ابي طالب :

أما على فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالاسلام، حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون، وانما همه الدين وعمدته في أعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده أنه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينمان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضجهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من أصبهان في أيام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمرا في ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ » ، فقال : « أبو العيال أحق بحمله » . ومن أقواله في كيف يجب أن يكون المسلمون قوله : « خمس البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظما ، عمش العيون من البكاء » (٣) . ومن أمثلة عدله انه رأى درعا له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضي ، فوقف على بجانب خصمه احتراماً للعدل . وكان اذا بعث رجاله في حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفروا الاذى عن النساء

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق ، كما كان يفعل

(١) ابن الاثير ٦٠ ج ٣ (٢) السمودي ٣٠١ ج ١

(٣) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣

عمر • ولو تولى أمور المسلمين في زمن عمر ، والناس في دهشة النبوة وصدق  
التدين ، لكان نصيبه من الحكم أطول ، ولما بدا في تديره ضعف ، ولكنه  
تولاها وقد فسدت النيات ، وطمع العمال في الأحكام ، وأطمعهم وأدهاهم  
معاوية بن أبي سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل، وعلى  
يضيع الأحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة في المحافظة  
على الدين وأسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبد الله بن  
عباس ، وكان عاملا له على البصرة ، فوشى به أبو الأسود الدؤلي الى علي ،  
فكتب علي الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي ، فأجابه : « أما بعد  
فان الذي بلغك باطل ، واني لما تحت يدي لضابط وله حافظ ، فلا تصدق  
الظنين والسلام » • فكتب اليه علي : « أما بعد فأعلمني ما أخذت من الجزية،  
ومن أين أخذت ، وفيما وضعت » • فكتب اليه ابن عباس : « أما بعد فقد  
فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، اني رزئته من أهل هذه البلاد ، فأبعث الى  
عملك من أحببت فاني طاعن عنه والسلام » ، واستدعى أخواله من بني هلال  
ابن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هذه أرزاقنا  
اجتمعت » فبعه أهل البصرة الى مكة (١) ولم ينتفع على به ولا بأحزابه (\*)

#### (١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٣

(\*) لم ينفرد علي بن ابي طالب بالشك في تصرف عبد الله بن عباس في الاموال ، فقد  
رفض عمر بن الخطاب ان يوليه ولاية « مخافة ان يستحل الفء على التأويل » كما قال عمر .  
والواقع ان عبد الله بن عباس لم يكن موقفا في السياسة والادارة بقدر توفيقه في ميدان العلم ،  
وربما كان الافضل له لو ظل بعيدا عن السياسة ، فقد اضطرب في ميدانها اضطرابا شديدا  
وتحمل اذى كثيرا . ولاشك في أن تاريخ ابن عباس كما تقصه علينا المراجع في حاجة الى تصفية ،  
فقد دخل عليه تحريف كثير خلال العصر العباسي ، لان عبد الله كان جد العباسيين . وقد ولد  
عبد الله أثناء حصار بني هاشم في الشعب ، وتوفي سنة ٦٨٦/٦٨ - ٦٨٧ في الطائف ، وحضر  
عصور الفتنة الاولى كلها وشاؤك فيها الى جانب علي حينا ومياعدا له حينا ، وهو يعتبر من غير  
شك مؤسس العلوم الاسلامية من تفسير وحديث ، ولكننا لانتقد انه جرى في التدريس على  
الاسلوب المنظم الذي تنسبه اليه الروايات ، وهو من اصحاب المذاهب الكبرى في التأويل والفتيا،  
وان كان بعض فتاواه موضع نقد الفقهاء كقوله بتحليل زواج النعمة الذي ينكره عامة أهل السنة  
وفي ميدان الادارة اخذ عليه تصرفه في مال البصرة ، الذي يشير اليه المؤلف هنا ، وقد ظل على  
يطالبه به ، وربما كان هذا هو السبب في اتخافه عنه . وقد ظل هذا المال معلقا حتى موته  
آياه معاوية بن ابي سفيان جزاء له على توسطه بينه وبين الحسن بن علي مما ادى الى تنازل  
هذا الاخير . وقد أساء نفر من المستشرقين الحكم على عبد الله بن عباس ، وخاصة لامنس وكايتاني

أنظر : طبقات ابن سعد ( طبعة سخاو ) ج ٢ كرامة ١١٩/٢ - ١٢٣ و ١٢٥

البلاذري : انساب الاشراف ، مخطوطة باريس أوراق ٧١٤ و ٧٣١ وما يليها

الكشي : معرفة اخبار الرجال ، طبعة بومباي ، ص ٣٦ - ٤٢

ابن الاثير : اسد الغابة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ ، ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٥

سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، مخطوطة باريس ، أوراق ١٨٧ وما يليها

ابن حجر : الاصابة ، طبعة كلكتا ، ٨٠٢/٢ - ٨١٣

نصر بن مزاحم النخعي : وقعة صفين ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٥ ، الفهرس  
وانظر فهرس الطبري وابن الاثير والعقد الفريد ( طبعة لجنة التأليف )

Coetani, Chronographia Islamica

حوادث سنة ٦٨ هجرية

Coetani, Annali dell'Islam

فترة ٢٤ - ٢٥

Lamemens, Etudes sur le règne du Calife Umayyade Muawiya, Index

فعلى لم يفعل بآبن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء وزد على ذلك أن رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والائفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فكمل الاسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة

على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، أو تقتضيه سياسة الملك ، وانما هي خلافة دينية وفقت الى رجال ينسدر اجتماعهم في عصر ، والى أحوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والائفة البدوية والأريحية العربية . فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاصقت فأتت بالمجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور (١) فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد - سنة الله في خلقه

#### انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا في دار الفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء ، خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة ، على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرا ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز . ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل « السكّة ( المحراث ) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » (٢) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الحجاج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصونا أو معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية

جولدسيهر : مذاهب المسلمين في تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، الفهرس

وانظر بصفة خاصة مقال L. Veccia Vaglieri وعنوانه :

Il conflitto Ali-Muawiya e la secessione Kharigita riesaminati alla luce di fonti ibadite

Annali dell'Istituto Univ. Orient. di Napoli Vol. IV

في :

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(٢) ابن خلدون ١١٩ ج ١

أو جيش الاحتلال (١) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي (صلعم) « أن لا يترك في جزيرة العرب دينان » (٢) ، وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين (٣) فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لا قلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك ، كما ستري

فكانت السياسة في صدر الاسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، (\*) وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا ، حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم وأذن بانسيابهم في الأرض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وإفريقية وغيرها . ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة فخرجوا وتفرق العرب في الأرض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس (٤) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد (\*\*\*)

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب (٢) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ (٣) ابن هشام ٥٠ ج ٢ (\*) يغلب أن المراد ببلاد العرب وضواحيها المدن التي أنشأها العرب في الولايات المفتوحة وما يحيط بهذه المدن ، لأن بلاد العرب شبه جزيرة فسيحة لا ضواحي لها (٤) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

(\*\*) عبر ابن خلدون عن ذلك في تاريخه تعبيرا غاية في الدقة والاحكام ، قال : « وكان المتولون لتمهيد قواعد الامر وبناء أساسه من أول الاسلام والدين والخلافة من بعده والملك قبائل من العرب موفورة العدد غزيرة الاحياء ، فنصروا الايمان والملة ، ووطدوا أكتاف الخلافة ، وفتحوا الامصار والاقاليم ، وغلبوا عليها الامم والدول اما من مضر فقريش وكثانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن وبطونهم من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن اليهم من الشعوب والبطون والافخاذ والمشائر والحلفاء والموالي

واما من ربيعة فبنو ثعلبة بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بني شكر وبني حنيفة وبني مجل وبني ذهل وبني شيبان وتيم الله . ثم بنو التمر بن قاسط ، ثم عبد القيس ومن اليهم

واما من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم ، فأنصار الله الخزرج والاوز ابنا قبيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الازد ، ثم همدان وخثعم وبجيلة ، ثم مدحج وكافة بطونها ، ولخم وبطونها ، وكندة وملوكها

واما من حمير بن سبأ ففضاعة وجميع بطونها ، ومن الى هذه القبائل والافخاذ والمشائر والاحلاف

هؤلاء كلهم انفتحتهم الدولة الاسلامية العربية فتقاسمتهم الثغور القصية ، واكتنهم الانظار المتبادلة ، واستلحتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حي يطرف ولا حلة تنجع ولا عشير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جنابة ، ولا عصابة ( تنجد ) بصريح . الا سمع من ذكر اسمائهم في أنساب اعدائهم متفرقين في الامصار التي الحموها بجملتهم ، فتقطعوا في البلاد ، ودخلوا بين الناس فامتحنوا واستهينوا ... »

العبر ( طيبة بولاق ) ج ٦ ص ٣ . وقد اصلحت الاخطاء المطبعية ، وبلاحظ ان طبعة بيروت الجديدة باشراف الاستاذ دافر تحمل كل أغلاط طبعة بولاق ، وتضيف اليها أغلاط أخرى

### الاستكثار بالناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل، وهو جيش يوم الصفقة (١) (ﷺ) والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه، نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يملغون ان يمنعه ويذودوا عنه ، أن ينحر أحدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة أولاد فاشتد أثره بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقيطيات ، استكثروا من أمهات الاولاد ، فضلا عن الزوجات، فكثروا نسلهم - والترف يزداد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل - وتسابقوا الى احراز الجوارى ، حتى ان بعضهم أحسن ثمانين امرأة معا ، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة (٢) فلاغربة اذا ولد لاحدهم خمسون ولدا أو مئة ولد أو أكثر . ذكروا أنه وقع للأرض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد (٣) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكرا و ٥٠ أنثى (٤) (ﷺ) وخلف تميم بن المعز الفاطمي أكثر من مئة ذكر و ٦٠ أنثى (٥) وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدا منهم ستون يركبون الخيل (٦) وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و ١١ بنتا (٧) وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام، كالعباسيين والأيوبيين وغيرهم

### انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الأرض ، حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقا وشواطئ المحيط الأطلسي غربا ، وضفاف نهر لوار شمالا وأواسط افريقيا جنوبا ، وملأوا الأرض فتحا ونصرا ، واحتلوا مدائن كسرى وقبصر ، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف ، واختلطت

(١) العقد الفريد ٧٨ ج ٣

(ﷺ) يوم الصفقة من أيام العرب ، وقد اتينا بخبره بالتفصيل في الطبعة الجديدة من « تاريخ العرب قبل الاسلام » للمؤلف

(٢) الاغانى ١٤٢ ج ١٤ والمعارف ١٠٠

(٣) ابن خلكان ١٤٧ ج ٢ (٤) فتح الطبيب ١٦٤ ج ١

(٥) ابن خلكان ٩٩ ج ١ (٦) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٧) ابن خلكان ٤٥٣ ج ١



أنسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطنتهم (\*\*) . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية، واليك أسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من أول الاسلام :

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمر
قريش	قطلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	توخ
هذيل	عجل	خثعم	بهره
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	منحج	وغيرها
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	المر بن قاسط	زيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الأشعريون	
سعد بن بكر وعامر		لحم وكندة	
ابن صعصة			

على ان هذه القبائل لم تكن في أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس ، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم (\*\*) الثغور القصية وأكلتهم الاقطار المتباعدة ،

(\*\*) قال ابن خلدون في مستهل الجزء السادس من تاريخه ( طبعة بولاق ص ١ - ٢ ) : « ... وافترقوا على الثغور البعيدة والاقطار البائنة عن ممالك الاسلام ، فنزلوا بها حامية ومراطين ، عصا وفرادى ، وتناقل الملك من عنصر الى عنصر ، ومن بيت الى بيت ، واستفحل ملكهم في بنى أمية وبنى العباس من بعدهم بالعراق ، ثم دولة بنى أمية الاخرى بالاندلس ، وبلغوا من الترف والبلخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ، فانغمسوا في الدنيا ، ونبتت اجبالهم في ماء النعيم ، واستأنزوا مهلا الدمة ، واستطابوا خفض العيش ، وطال نومهم في ظل الترف والسلم ، حتى الفوا الحضارة ونسوا عهد البادية ، وانفلتت من أيديهم الملكة التي نالوا بها الملك وغلوا الاسم ، من خشونة الدين وبدواة الاخلاق ومضاه المضر ، فاستوت الرمية والحلمية ... »

(\*\*) هذا النص من ابن خلدون ، وقد روينا بهجسته في تعليقنا في ذيل صفحة ٤٩ واصلاحنا « فنبا منهم » الى « فتقاسمتهم » وهو أصوب

واستلحمتهم الوقائع وضاعت أسبابهم بشوالى الاجيال حتى خرجت الدولة  
من أيديهم

#### انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الارض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا  
أيضا بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماسا لسعة العيش في البلاد  
العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جلت بطون من خزاعة إلى مصر والشام  
في صدر الاسلام ، لأن أرضهم أجذبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى (١)  
وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جذب ، حتى كانت لهم أعوام خاصة  
يجلون فيها إلى مصر والشام ، يسمونها أعوام الجلاء (٢) وكانوا يفعلون ذلك  
قبل الاسلام : اذا أجذبت أرضهم يمشوا العراق وفارس ، فيعطيهما الفرس  
التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون إلى بلادهم (٣)  
خوفا من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب  
لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعلامهم  
وجعلوها فينا لهم

على أن الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو اكتافها ،  
أن يكون بإيعاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصا بعد رجوع العرب إلى  
عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس في عهد الدولة الاموية .  
فكان الامير أو الخليفة اذا تولى بلدا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية  
أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، أو من ينتمى اليها بالحلف ونحوه ،  
يسكنهم في ضواحي بلده لاستتصارهم عند الحاجة ، فيطلق لهم المرعى  
ويفرض لهم العطاء ، كما حدث في ولاية الوليد بن رقاعة على مصر في خلافة  
هشام بن عبد الملك الأموي ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس ( العدنانية )  
لأنهم نصره وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم في مصر إلا بعض البطون ، وقيس  
قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام إلى نقلهم  
عبيد الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتا ،  
فأذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر ، أي أن يقبضوا  
رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم في القسطنطينية ، فأنزلهم في الحوف  
الشرقي ( الشرقية والدقهلية ) ولا سيما في بلييس وأمرهم بالزرع (٤) ثم  
تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها

#### بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبة الامير أو الخليفة في  
التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبنو هلال ،

(١) الاغانى ٦ ج ١٣ (٢) الاغانى ٤٧ ج ١١  
(٣) ابن الأثير ٢٢٨ ج ٢ (٤) المقرئى ٨٠ ج ١

وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون احياء تاجعة اهل بادية ، محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكثروا يطوفون رحلة الصيف والشتاء اطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، وربما اغار بنو سليم على الحجاج ايام الموسم بمكة و ايام الزيارة بالمدينة . ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا في البلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما افضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ، ونقل أشياعهم من بنى هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد ، في العدو الشرقية من نهر النيل ، فأقاموا هناك . وكان لهم أضرار في البلاد ، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين أن المعز بن زيري عامل الفاطميين في أفريقية ، شق عصا الطاعة وباع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطرز والرايات ، فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره أبو محمد الحسن بن علي اليازوري ، أن يقرب اليه احياء هلال وسليم المذكورين ، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال أفريقية ، ويرسلهم لاستلام أمورها ، فاذا فازوا كانت إحدى الحسينيين ، والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرصهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا برا الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعا في الكسب ، وأصبحت أفريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين ، فاقسموا البلاد فيما بينهم (١) (\*)

(١) ابن خلدون ١٤ ج ٦ (\*) كان دخول العرب الهلالية من الحوادث الفاصلة في تاريخ المغرب الاسلامي ، فقد قضوا على دولة بنى زيري الصنهاجيين في تونس وعلى دولة أبناء عمومتهم بنى حماد أصحاب القلعة المعروفة باسمهم فيما يعرف الآن بالجزائر ، وانقطعت نتيجة لغارتهم الصلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك وجهة خاصة منفصلا عن بقية المجموعة الاسلامية ، مما كان له اسوأ الاثر على مصر المغرب والاتدلس في اواخر العصور الوسطى ويرجع السبب في الخلاف بين زيري والفاطميين الى سوء سياسة وزراء هؤلاء الاخيرين ، وخاصة أبو القاسم أحمد بن علي الجرجاني وأبو محمد الحسن بن علي اليازوري المذكور ، وهذا الاخير هو المسئول عن اطلاق عرب بنى هلال وبنى سليم على المغرب ، فغربوا كل ما مروا به ، وكانوا - كما يقول ابن خلدون - كالجراد المنتشر

انظر ، ابن خلدون : المعبر ، ج ٦ ص ١٢ وما يليها

وقد درس الموضوع دراسة مستفيضة جورج مارسيه . انظر :

George Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle.  
Constantine — Paris 1913

ثم عاد الى الموضوع مرة اخرى في كتابه

La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Âge. Paris, 1946.

وفارة بنى هلال هذه على المغرب هي المحور الذي دارت حوله سيرة الهلالية ، وهي مجموعة من القصص الشمسي ورد لنا في مورثي أهمها السيرة الشامية والسيرة الحجازية . وتعرف رحلة الهلالية في القصص باسم تغريبة بنى هلال ، وهي معروفة في مصر باسم قصة الزناتي خليفة ، وقد درسها الدكتور عبد الحميد يونس في كتابه المعروف « الهلالية في التاريخ والادب الشمسي » - القاهرة ، ١٩٥٦ . وانظر مقال J. Schleifer في دائرة المعارف الاسلامية عن « هلال »

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من اصول العرب وساداتهم جماعة اورثوها أعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية (١) وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومروعه . ناهيك بما كان يتنقل من القبائل أو البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة أو نحوها (\*)

### العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية ، وقد اثروا في سياستها وجندوها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه ، فلاغرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولا خاصة

الرق في الاسلام :

قلنا أن الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان أكثره بالاسر أو الشراء ، وأما في الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصا في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جندا أو فتحوا بلدا ، أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله ، واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم ، وهى كثيرة ربما زاد عدد الاسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختصمون أعناقهم ويقسمونهم على الاسهم (\*) وقد يصيب الفارس من العرب مائة

(١) نفح الطيب ١٢٧ ج ١

(\*) أوقى مرجع لدراسة هجرات العرب الى الاندلس هو « جمهرة انساب العرب » لابن حزم ، القاهرة ١٩٥٥ . وقد درس هذا الموضوع المستشرق الاسباني Elias Teres في مقال نشر في مجلة Al-Andalus سنة ١٩٥٧ تحت عنوان Linajes arabes en Al-Andalus (٢) القاعده انه اذا تم فتح بلد عنوة يحل للمسلمين ان يقتلوا المحاربين أو من يعين على الحرب ، أما المرأة والشيخ الغائب والاعمى والمقعذ ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، مالم يكن احدهم ذا رأى في الحرب ، يوجه قومه ويؤلب على المسلمين . وان طلب المحاربون صلحا اثناء الحرب أجيبوا اليه متى رأى الامام ذلك ، قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ، ووجب اذ ذاك تنفيذ شروط الصلح التى تعاقدا عليها ، فاذا لم يكن هناك صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد ، فهناك اسرى حرب ، وهناك أهل البلد المفتوح ممن لم يكونوا في الجيش المحارب ، فأما الاسرى فالامام مخير بين اطلاقهم دون فدية أو مقابل فدية ، أو فدايلهم بأسير مسلم بين يدى الاعداء أو الاحتفاظ بهم رقيقا . ونادرا ما كان الاسير يقتل . أما أهل البلد غير المحاربين ، فان وضعهم من الناحية النظرية وضع الاسرى ، ولكن عمر بن الخطاب اعتبرهم ملكا للدولة واعتقهم ، فأصبحوا موالى للعرب ، وتركهم يعملون فى الارض أو فى مهنهم على أن يؤدوا الخراج عما يزرعون من ارض والجزية من رؤوسهم ، وتستقط الجزية بالاسلام ، فلا يبقى الا الخراج ولم تجر العادة باسترقاق أهل البلد المفتوح عنوة بصورة عامة ، بل الغالب أن هذا كان يجرى على المحاربين وأهلهم وعبيدهم ، وعلى كبار رجال الدولة الذين قاوموا العرب وأهلهم وعبيدهم ، وربما جرى على أهل المدن الذين قاتلوا المسلمين قتالا عنيفا ، وفى هذه الحالات كان أولئك جميعا يعتبرون رقيقا يؤخذ خمسمهم للدولة للتصرف فيهم على أنهم فى « ، ويوزع الباقى على الفاتحين

والغالب ان عمليات الاسترقاق لم تكن تجرى على هذا النحو الا عقب المواقع او عقب دخول المسلمين البلد مباشرة ، لم يملن الامان ، ويصبح بقية أهل البلد موالى للدولة الاسلامية ويتركون احرارا ، على أن يؤدوا خراج الارض بصفة مستمرة وجزية الرعوس الى أن يسلموا والولاء نفسه رابطة تختلف كل الاختلاف من الرق ، فهو فى حالة دخول قبيل كبير فى ولاء

أسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالى الايام ألف عبد أو أكثر (١) وهم عند الامراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على أن الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد (٢)

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثارا ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع اسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر (٣) وتكاثر الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة (٤) وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالاندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم (٥) (٦)

الدولة الاسلامية أشبه بالحلف ، وفي الظروف التي تكونت فيها الامبراطورية الاسلامية لم يكن من الممكن أن تظل أغلبية ضخمة موالى عناقة لاقلية صغيرة من العرب ، وخاصة بعد دخول أعداد عظيمة جدا من الموالى في الاسلام وظهور تفوقهم في ميادين السياسة والحرب والعلم ، ومن هنا فالتناحى عند الاقلية العربية تخوفا من طغيان الموالى عليهم ، وهذا هو السر فيما صدر عن بعض العرب من أقوال وأفعال اعتبرها بعضهم دليلا على احتقار العرب للموالى ، ولكن الدولة اعتبرت الموالى مواطنين والفقهاء اعتبروهم اخوة في الدين ، وتحول الولاء شيئا فشيئا الى رابطة أخوة بين العرب وغيرهم

وفيما عدا الولاء العام للدولة كان هناك الولاء لافراد ، فان الخلفاء مثلا كانوا يعتبرون ما صار اليهم في الخمس من الموالى مواليتهم خاصة ، وكان هؤلاء الموالى يتمسكون بذلك الولاء ، حتى يصيروا من رجال صاحب الامر ، فصار لكل خليفة من خلفاء بني أمية موال كثيرين يعيشون في الاقاليم محتمين بولائه ، ومن أشهرهم موالى بني أمية في الاندلس ، وهم الذين أقاموا دولة عبد الرحمن الداخل ، وهناك موالى القواد والمحاربين ، وموالى من كان الخمس يقسم عليهم من أهل البيت والصحابه والقرشيين ومن اليهم ، هؤلاء كان ولاؤهم بنسب اما اليهم شخصيا أو الى قبائلهم ، فيقال مثلا مولى عبد الله بن عباس أو مولى بني هاشم ، ولم يكن هؤلاء رقيقا ولا عبيدا وانما عتقاء أو اولياء ، ولم تكن تبعيتهم لاصحاب ولائهم الا نوعا من الصلة المعنوية بينهم ، الا في بعض حالات الاثر . ثم لم تلبث هذه الصلة أن ضاعت على الزمن ، ولم يعد الولاء الا صلة عاطفية يحتفظ بها المولى ، لانها تربطه بالاصل العربى

انظر : ميد الوهاب النجار : الموالى في الاسلام - القاهرة ١٩٤٨

احمد أمين : فجر الاسلام - الطبعة الخامسة ص ٨٤ وما يليها

والمراجع التي أوردتها روبرت برونشفيج في مادة « عبد » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية ، ومادة « مولى » في Handwörterbuch des Islams

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ (٢) الدمري ٤٩ ج ١

(٣) نفح الطيب ٢١٣ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦

(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١

(٦) المعلومات هنا مستقاة من مراجع شتى ، بعضها ليس مما يستند الى ما فيه في الاحكام التاريخية ، مثل حياة الحيوان للدمري ، ثم أنها تتعلق بعصور متطاولة لم تكن الظروف فيها واحدة ، فهي تمتد من القرن الهجرى الاول الى زمن واقعة الأرك وقد وقعت في أوائل القرن السابع الهجرى . وغير خاف ان معاملة الاسرى تغيرت خلال هذه الاعصر الطويلة ، وخاصة ابتداء من القرن الثالث الهجرى بسبب اشتداد الحروب بين الدولة الاسلامية وخصومها من ناحية ، وانتقال الشؤون العسكرية للدولة الاسلامية الى اجناس مثل الاتراك والسلاجقة ثم يلتزموا كثيرا بما قرره السلف في القرون الاولى

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكا للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالفوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قريش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربنا : « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » (١) (\*)

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا أسراهم ويحزروا أثمانهم ، لمعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقى الأسرى في حوزته عبيدا إلا الأمراء ، حتى يفتيدهم أهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الأسباب

ومن مصادر الرقيق في الاسلام - غير الأسر - أن بعض العمال ، وخصوصا في افريقية وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق (٢) وكان بعض أهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقا من أولادهم (٣) غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الأصلي في جملة الغنائم (\*\*\*)

أما أحكام الأسرى في الاسلام فالخليفة ( أو من يقوم مقامه ) مخير بين أربعة أشياء : أما القتل ، وأما الاسترقاق ، وأما الفداء بمال أو أسرى ، وأما المن عليهم بغير فداء ، فإن أسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية (٤) فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الأحوال

ومن ملك رقيقا بالأسر أو الشراء أو غير ذلك كان مخيرا في استبقائه أو يبيعه أو المن عليه بالعق ، ومن أعتق عبدا صار مولاه . وللعق أسباب كثيرة ، أهمها في الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين ، فإذا أسلم العبد وظهر التقوى أطلقه سيده ، فقد أعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة ألف عبد (٥) وأعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠ مملوك ومملوكة (\*\*\*) وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، أو وفاء لنذر ، أو التماسا للثواب ، أو شكرا لله على

(١) ابن الأثير ٢٧٦ ج ٢ (\*) لم يكن هذا هو الأساس ، وقد بسطنا حكم الشرع في أهل البلد المفتوح في تعليق سابق ، أما قول سعيد بن العاص أن السواد بستان قريش فقد أنكره عليه الناس ولم يأخذ به أحد ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربنا مشكوك فيه  
(٢) المقرئ ٣١٣ ج ١ (٣) ابن الأثير ١٣ ج ٣

(\*) ما يقوله المقرئ من أن بعض العمال كان يؤدي خراج بلده رقيقا غير صحيح ، فلم يحدث أبدا أن جبي الخراج رقيقا ، وإنما الذي كان يحدث في أوائل سنوات الفتح أن يرسل العامل إلى الخليفة ما وقع في الخمس من الرقيق . أما ما يقوله ابن الأثير من أن بعض أهل الذمة من البربر كانوا يقدمون في خراجهم أولادهم ، فلم يحدث الأمرة واحدة ، عقب غزو عمرو بن العاص بركة ، ولم يقدم الأولاد في الجزية ، بل كان لهم أن يبيعوا أولادهم ليؤدوا الجزية بأثمانهم (٤) الماواردي ١٢٥ (٥) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١

(\*) (\*) (\*) الأغلب أن المراد هنا محمد بن سليمان الكاتب وزير الخليفة المكتفي العباسي ، وهو الذي قضى على الحسين بن زكرويه القرمطي سنة ٢٩١ واستعاد مصر من الطولونيين في السنة التالية . وكان أولئك المالك من أسارى القرامطة ومن ممالك الطولونيين فاطمهم

نعمة ، أو نحو ذلك . وكان بعض أهل الورع يتتبعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن أبى ربيعة لما أسن أن لا يقول بيت شعر إلا اعتق رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة (١) ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد ، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المرى صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب ، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح في العبيد : « أى عبد قاتل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالاً أعجب منه الناس وانهزم الأعداء (٢) وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصره الاسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبي (صلعم) يوم حصار الطائف ، اذ قال : « كل عبد نزل الى فهو حر » (٣) وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم في الاسلام على نية أن يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما أرادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فحل حربهم

على أن الاسلام جاء رحمة للارقاء ، فأوصى النبي بهم خيراً بقوله : « لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون » (٤) وقال : « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى »

وفي القرآن الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة (٥) وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبى بقول الأئمة : « لا سباً في الاسلام ، ولا رق على عربى في الاسلام » . ومن أحكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر (٦) واذا أحسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون في أيدي العرب بالفتوح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودى والمجوسى والصابى والسامرى وغيرهم ، فهؤلاء اما أن يفتديهم أهلهم ، أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ، أو يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، أو رعاية الابل أو الماشية ، أو لبرى القسى ورمى النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت القتال ، أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذى لا يعرف صناعة يساوى مائة دينار ، فاذا كان راعياً للابل يحسن القيام بها يقدرون قيمته ب ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسى يباع بأربعمائة دينار ، فاذا

(١) الاغانى ٦٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ٧٨ ج ٥ (٣) المعارف ١٧  
(٤) القريزى ١٣٧ ج ١ (٥) البخارى ٥٩ ج ٢ (٦) الاغانى ١٥٢

كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك اثمان العبيد في  
اواسط دولة بنى أمية (١)

وأما القن فهو العبد الذى يشتغل فى الارض ، وهو خاص بالقرى ،  
ويسمى المزارع المقيم « فلاحا فرارا » ، فاذا أقطعت أرضه ، أوبيعت لأحد ،  
أو دخلت فى ملك أحد بالفتح أو غيره ، كان الفلاح تبعا لها وصار « عبدا قنا » ،  
الا أنه لا يربو أن يباع أو يعتق ، ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراد ، بل هو  
قن ما بقى حيا ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيدا لملك الارض أو  
مقطعها ، وقد أشرنا اليه فى كلامنا عن العبيد فى الجاهلية

#### الموالى فى الاسلام

والباقون فى الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالبا ، اذ يطلب أن  
يعتقوهم مكافأة لهم ، ومن أعتق منهم صار مولى ، ولذلك كان الموالى من  
المسلمين غير العرب ، استنكفا من استرقاق المسلم ، ثم أطلقه بنو أمية على  
كل مسلم غير عربى ، فاذا قالوا « الموالى » أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم  
الذين كانوا مجوسا أو ذميين واعتنقوا الاسلام ، أو كانوا ممن لازم العرب أو  
التجأوا اليهم ، ويسمونهم « الحمراء » فاذا قالوا « الحمراء » أرادوا  
الموالى . والحمراء فى القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب

وأصبح الموالى فى الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، كان  
لها شأن عظيم فى تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية  
العربية ، لقول النبى (صلعم) : « مولى القوم منهم » (٢) وقوله : « من ادعى  
الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٣) وأهل  
الرجل عند العرب الموالى والذرارى . ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه ،  
لأنه لم يعتقه الا حبا فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى  
أهله وينتسب الى مولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . أو  
ينتسب الى قبيلته فيقال مثلا ابن سريج مولى بنى نوفل ، ومحرز مولى عبد  
الدار ، وحكم الوادى مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولى بنى مخزوم ،  
وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصا من يعيش  
من الموالى فى بيت موالىهم ، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه ، حتى  
اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم

وللموالى فضل كبير فى الاسلام ، لأن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة  
والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم ، لاشتغال العرب عن هذه العلوم

(١) الاغانى ١٣٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ١١١ ج ٢ (٣) ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١



بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة (١) ومعظم الموالى الذين خدموا العرب فى صدر الاسلام من بقايا الفىء والغنائم فى فارس وغيرها ، وأكثرهم كانوا غلمانا فى جملة السبى ، قربوا فى الاسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم -- منهم أربعون غلاما كانوا يتعلمون الانجيل فى عين التمر لما فتحها خالد ابن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبى بكر بالمدينة ففرقهم فى أهل البلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليتهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين فى السياسة والحرب والعلم والدين ، منهم موسى ابن نصير فاتح المغرب والاندلس فان أباه منهم ، وحمزان مولى عثمان بن عفان (٢) وأيضاً محمد بن اسحق صاحب المغازى والسير فان جده يسار منهم (٣) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالى الذين أصلهم من السبى فى أثناء الفتح أو بعده

فأبو صفر من سبى دبا فى أيام أبى بكر (رضي الله عنه)، وحماد الراوية أصل أبيه ديلمى من سبى مكثف بن زيد الخيل (٢) وسائب خاثر أصله من فىء كسرى ، ومروان بن أبى حفصة الشاعر الشهير أصله يهودى من سبى اصطخر (٤) والهروى اللغوى المشهور أسير وقع فى سهم عرب نشأوا فى البادية (٥) وابن الاعرابى سندی الاصل ، وأبو دلالة كوفى أسود كان عبداً لرجل من بنى أسد فأعتقه (٦) وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم فى الاسلام

وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الأشر ولم يتوفقه الفداء ، فان بعض موالى المنصور من أولاد المرازبة (٧) وأبو على بن بذيمة الذى يروى عنه وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الاكاسرة ، وقعا فى الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جندادة الصحابى فأعتقهما ابنه جابر (٨) . وانتقى أبو موسى الاشعري ستين غلاماً من أولاد الدهاقين من سبى بيروذ بفارس ، وفرق بعضهم فى المسلمين ، غير الذين افتداهم أهلهم (٩)

وكان للخلفاء والأمراء ثقة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق فى أن يكون أصلهم فارسياً أو ديلمياً أو حبشياً أو رومياً ، فموالى أبى بكر أولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة ، اشتراه أبو بكر بخمس أواق وأعتقه . وهو أول من أذن فى المدينة ، وكان له مقام رفيع فى الاسلام ، وكذلك عامر

(١) الجزء الثالث من هذا الكتاب (٢) بن الاثير ١٩٢ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨

(٤) المعارف ١٢٠ ج ١ (٥) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٦) ابن خلكان ٥٠١ ج ١ (٧) الاغانى ١٢٠ ج ١

(٨) الاغانى ٨٢ ج ٢٠ (٩) المعارف ١٠٣ (١٠) ابن الاثير ٢٣ ج ٣

ابن فهيرة ، وأبو نافع ومرة بن أبي عثمان وغيرهم (١) وقس على ذلك موالى  
عمر وعثمان وعلى وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون فى  
سبيل مواليتهم ، لاعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفى التاريخ شواهد كثيرة  
من هذا القبيل على اختلاف الأعصر . من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبى ،  
لما نشبت الفتنة بين المؤمنين والمؤمن ، كان هو من حزب المؤمنين ، وأراد أن  
يحفظ له الاهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جنود المؤمنين فباغته  
طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبى المذكور الى مواليتهم  
وقال لهم : « ما رأيكم ؟ » انى أرى من معى قد انهزم ، ولست آمن خذلانهم  
ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما  
أحب ، فمن أراد الانصراف فليصرف ، فوالله لأن تبقوا أحب الى من أن  
تموتوا . فقالوا : « والله ما أنصفناك اذن . . تكون قد أعقتنا من الرق ،  
ورفعتنا من الضعة ، وأغنيتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله  
الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (٢)

على أن المولى لا يزال أحط مقاما من العربى . وكان الموالى فى صدر الاسلام  
يتولون كثيرا من مصالح الدولة التى تفتقر الى امانة وثقة ، فضلا عن العلم  
والدين . ولهم الرواتب السنية (٣) لكنهم كانوا محرومين من المناصب  
الرفيعة التى تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلا ، فانهم كانوا يعدونه  
فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد أن يولى مكحول القضاء أبى وقال :  
« قال النبى : لا يقضى بين الناس الا ذو الشرف فى قومه ، وأنا مولى » (٤)

(١) المعارف ٥٨ (٢) ابن الأثير ١٠٦ ج ٦ (٣) الاغانى ١٦٣ ج ١٠ (٤) العقد الفريد ٨ ج ١

## سياسة الدولة

### في عهد الأمويين

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في أيام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية، ففتحو العالم وأسسوا الدولة الإسلامية ، وأخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة، وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى في سياسة بنى أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

### انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد أفضت الى علي بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها ، لقربته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده . فتصدى له معاوية بن أبي سفيان ، وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وانما أقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة ، وقد حارب النبي في عدة أماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون في غزواتهم ، واشتد أزهرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها ، كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبي ، فقال له أبو سفيان وقد أسقط في يده : « لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيما ، فأشار عليه العباس أن يستأمن ، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في اسلامهم (١)

المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك أن بنى عبد

مناف هم أشرف بطون قريش وأكثرهم عددا وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية أكثر عددا من بنى هاشم وأوفر رجالا ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد أبى سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم فى واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة فى الفخذين جميعا ، فلما جاء الاسلام ، والنبي من بنى هاشم شق ذلك على بنى أمية وكانوا من أقوى الساعين فى مقاومته ، فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتب له الامر ، وقد مات عمه أبو طالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم أخوه حمزة ثم العباس وغيره من بنى عبدالمطلب وسائر بنى هاشم ، فخلا الجو لبنى أمية فى مكة ، واستغلظت رياستهم فى قريش ، وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل أبو سفيان بشرف أمية بمكة والتقدم فى قريش ، وكان رئيسهم فى واقعة أحد وقائدهم فى واقعة الاحزاب وما بعدها . فلما استحل أمر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن أبو سفيان كما تقدم ، رأى النبي من حسن السياسة أن يمن على قريش كافة بعد أن ملكهم بالفتح عنوة ، فمن عليهم وأطلق سبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية ، فأسلموا جميعا

فلما مات النبي وتولى الخلافة أبو بكر ، جاء القرشيون ومعظمهم من بنى أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه فى أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والانصار ، فقال لهم أبو بكر : « لقد جئتم الاسلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم فى الجهاد ، فجاهدوا فى حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب أدرك ما فى نفوسهم ، فخاف بقاءهم فى المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم فى الشام ، فاستعمل يزيد بن أبى سفيان عليها ، فانتقل معه سائر قريش ، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفى يزيد المذكور ، فولى عمر مكانه أخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ أقر معاوية على الشام ، فاتصلت رياسة بنى أمية على قريش فى الاسلام كما كانت فى الجاهلية ، وبنو هاشم مشغولون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا (١)

(١) يذهب القرزى فى رسالته القيمة « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » ( القاهرة ١٩٢٧ ) الى أن استيلاء بنى أمية على الامور يرجع الى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكر انه لما توفى الرسول كان عماله على مكة واليمن والبحرين وبيداء وخيبر وفدك وتبوك كلهم من بنى أمية وحلفائهم . فلما تولى أبو بكر ترك بنو سعيد بن العاص أعمالهم واتوا الى المدينة ، فأراد أبو بكر ردهم الى ولاياتهم ، فقالوا : « نحن بنو أبى أحيحة ، لا نعمل لاحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ثم مضوا الى الشام وقاتلوا وقتلوا فى منازلهم ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كوره الا وجد منلها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا » . ثم ايد القرزى كلامه برواية اللواقدي ، وقال بعد ذلك : « فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس هذا الاساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهن أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ، ولا يتبسّط رجالهم ، ولا يمتد فى الولاية أملمهم ؟ أم كيف لا يضعف ظن بنى هاشم ويتقيض رجالهم ويقصر أملمهم ، وكبراهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه على ابن أبى طالب برضى الله عنهما يريد احدهما استسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته عن هذا الامر هل هو فيهم أو فى غيرهم ويأبى الآخر ذلك ؟ . . » ثم يقول بعد ذلك بكثير : « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ! فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأخرج كاسهم وقتل أمراهم » انظر : ص ٤٤ - ٥٦

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه، ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بنى أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسياسة أموية . وكان عثمان ضعيفا يؤثر ذوى قرابته فى مصالح الدولة ، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الاعمال واستأثروا بالأموال ، فشقق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن أبى سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان أهل المدينة قد بايعوا على بن أبى طالب ، وجمهورهم الانصار . فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الانصار ويريدون الخلافة لأهل بيت النبى ( صلعم ) جريا على نصرتهم أباه يوم هجرته (٢) بنو أمية فى الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم فى الجاهلية . وجمهور الصحابة يرون الحق لعل ، فلم ير معاوية سبيلا الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع . فنظر فى الامر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة فى كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك أن خصمه عليا كان يعتبر الخلافة منصبا دينيا ، وهو زاهد فى الدنيا لامطمع له فى غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهب منهم حرمة الدين ، وسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم . فثمرت مساعى معاوية فى اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها فى حديث داز بينه وبين عمرو بن العاص . اذ قال معاوية : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال : « ان هم شدوا أرخت ، واذا أرخوا شددت »

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون أدهى رجال العرب - ومعاوية أدهاهم جميعا - وهم : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة . ولولاهم لم يستتب له الامر ، لأن ابن العاص احتال فى نجاته من واقعة صفين ، بعد أن كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش على على جيوشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يدفع المصاحف لايكاف الحرب ، ثم أشار بالتحكيم وخذع أبا موسى الاشعري نائب على فى ذلك التحكيم فخلع عليا وبايع معاوية (١٠) . ونال عمرو فى مقابل

(\*) يبدو أن مسألة التحكيم قد اختلط امرها على الرواة ، فرووها على صورة لا يقبلها العقل اذ نحن دققنا النظر فيها ، فالروايات تصور أبا موسى الاشعري رجلا ساذجا يخدمه عمرو بن العاص بحيلة لا تجوز على طفل ، فهم يزعمون أنه اتفق مع عمرو بن العاص على أن يخلع كل منهما صاحبه ، مع أن معاوية لم يكن اذ ذاك خليفة ولا مطالبا بالخلافة حتى يجوز خلعهم فى مقابل خلع على الخليفة المبايع له المترف به حتى من معاوية . والروايات تسدل على ذلك الموضوع نقابا من الإبهام حتى ليسر معرفة حقيقة ما وقع ، ويبدو أن الحكيم لم يتفقا على شيء ، فإزداد الهرج ، وزعم دعاة بنى أمية أن أبا موسى خلع صاحبه . اما القول بأن أبا موسى بدأ فخلع عليا فبادر عمرو وقال أنه يثبت صاحبه كما يثبت خاتما فى أصبعه ، فشيء أقرب الى

ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر (١) وزياد بن أبيه رجل لا يعرف له أب ، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى أنه أخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبي سفيان ، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحق زياد أول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية (٢) وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . أما المغيرة بن شعبه فهو أول من ضرب الزيوف في الاسلام وأول من رشى (٣) وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والأطماع ، فاطعم ابن العاص مصر ، واطعم المغيرة فارس ، وجعل زيادا أخاه . وكان يتساهل في محاسبة عماله ويقضى عن سيئاتهم (٤) ويبالغ في اكرامهم . ولو رأوا من على بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن عليا كان دقيقاً في محاسبتهم ، متصلياً في رايه لا يجيد عما يقتضيه ضميره - كذلك كان يفعل أبوبكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا في أيامهما لا يزالون في ابان الحمية الدينية والاريجية العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف على ضعفاً منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد أن كانوا معه ، وأولهم المغيرة ابن شعبه ، فهذا جاء علياً يوم بوع ومعاوية واقف له بالرصاد ، فأشار عليه أن يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله إذا شاء ، فلم يطمعه على ، فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه أن يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من أكبر أنصاره

وقس على ذلك تصرف على مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل على خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو أمية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة على ، وكان الفوز دائماً لأهل الدهاء ، فقضى العلويون معظم أيامهم خائفين شاردين ، ومات أكثرهم قتلاً مع أنهم أهل تقوى ودين وحق ، وأولئك على الضد من ذلك - مما يدل على أن السياسة والدين لا يلتحمان الا نادراً ، وما التحامهما أيام الراشدين الا فلة قلما يتفق مثلها . على أننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وإنما هي خلافة دينية (\*)

التقصص ، وأولى بنا أن نسأل : فم ثبت عمرو صاحبه ؟ فان قيل ثبت في الخلافة فان معاوية لم يكن بخليفة ولا مطالبا بخلافة ، وان قيل ثبت في ولاية الشام ، فليس عمرو بن العاص مندوب معاوية هو الذي يشته في الولاية . إنما يكون التثبيت من جانب الخليفة على بن أبي طالب أو مندوبه ، ويكون في ولاية الشام وحدها

(١) المقرئى ٣٠٠ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٢٥ج ٢ (٣) المعارف ١٨٩ (٤) ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣ (\*) هذا هو رأى معظم المستشرقين ، وهم يصفون الدولة أيام الراشدين بأنها كانت حكومة

دينية ( تيوقراطية ) Theocracy

### رغبة بنى أمية في السيادة

ان المحور الذى كانت تدور عليه سياسة بنى أمية ، والغرض الذى كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التى كانت لهم فى الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، او وخامة الاسباب التى تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم ، فامتدت المملكة الاسلامية فى ايامهم واشتدت شوكتها ، مالم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها (١) وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد ، وكان أشدهم فتكا عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان فى أجمة » (٢)

فرغبة بنى أمية فى السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو أحق منهم بها ، جرحهم الى ارتكاب أمور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة فى ايامهم بشيئين العصبية القرشية ، واصطناع العصبية أو الأحزاب الأخرى ، وهما أساس كل ما ظهر من سياسة بنى أمية كما سترى

### العصبية العربية فى عصر الأمويين

#### العرب وقريش

كانت العصبية العربية فى الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام او الجامعة الاسلامية ، ومازالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية فى الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة فى سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التى ذكرناها . وانما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش » ، وإشار أهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الاسلام ، وخصوصا أهل البصرة والكوفة والشام ، لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى ( صلع ) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم فى قبضة المهاجرين والأنصار ، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ،

(١) الفخرى ٢٥ (٢) ابن الأثير ٦٩١

ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة ، والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من قريش والأنفة عليهم ، فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية

بدات هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش ، حسدا لهم كما ذكرنا ، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء - الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية أو العدنانية . وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في أيام عثمان ، ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة لمجالسته ، فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو أمية وغيرهم من الصحابة قد أخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل ، وبنو أمية أطول بعا يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق في إحدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص أن بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله أحد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادا ، ولو كان لي مثله لأعاشكم الله به عيشا رغدا » . والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة ، وهى عزيمة كثيرة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخبير وعمرها فعظم دخلها (١)

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت أن هذا الملطاط لك » . والملطاط ما كان للأكاسرة على جانبى الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر أبوه عنه وقال : « غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » أى سواد العراق فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الأشتر النخعي حاضرا ، وهو من اليمنية ، وكان شديد التعصب لعلى بن أبى طالب ، فغضب وقال لسعيد : « اتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسياقتنا بستانك ولقومك ؟ » فقام عبد الرحمن الأسدي صاحب شرطة سعيد فقال للأشتر : « أتردون على الأمير مقاتله ؟ » وأغلظ لهم ، فأشار الأشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأ شديدا حتى غشى عليه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : « ان الذين انتخبتم لمسامرتك قتلونى » . فقال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد أبدا » (٢)

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصوصا بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصره أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في أول الاسلام ، اذ جاءهم النبی مهاجرا

(١) ياقوت ٧٨٢ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٧٢ و ٩٧ ج ٣



فراراً من أهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية مدوها بين اليمنية « الأنصار » وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من أنصار علي : « أيها الناس هل من رائح إلى الله تحت العوالي ( أي السيوف ) ؟ » والذي نفسى بيده لنتقاتلنكم على تأويله ( القرآن ) كما فاتلناكم على تنزيله « ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله      واليوم نضربكم على تأويله  
ضرباً يزيل المهاب عن مقليله      ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله (١)

#### القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة على وأنصاره ، إلا الذين تألفهم معاوية بالعطاء، لعلمه أن اكتفائه بقريش ونحوهم لا يجديهم نفعا ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجذل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم على قتلة عثمان لأن امرأة عثمان كانت كلبية ، واستفواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصره يزيد ابنه بعده لانهم أخواله

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم ( وكلاهما من أمية ) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بنو أمية ، كان أنصار ابن الزبير من قيس ( مضرية ) يدعون لابن الزبير ، وأنصار بنو أمية بنو كلب ( يمنية ) يدعون لخالد بن يزيد لأنه ابن اختهم . ونهض أناس من بنو أمية فاعترضوا على صغر سن خالد ، فأجمعوا على بيعه مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير ، أي بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الإسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، أو مضرية ويمنية ، أونزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وإفريقية والاندلس . وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان : مضري ويمني ، تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الأمراء أو العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية ، والعامل اليمني يقدم اليمنية ،

ويختلف ذلك باختلاف الاحوال ، وله تأثير في كل شيء من تصارييف احوالهم ، حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم ، وكثيرا ماكانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى احد هذين الحزبين

فقد رايت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها والحقها بالدوان اى فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفي ايامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصا مصر والشام . وفي ايام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية انصارا لبنى أمية ، ولاسيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية (١) فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يطالب بدمه ورغبة في نصرتهم ليشتد ازره بهم ، فأجمع المضرية على نصره مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر ايامه ، فلما قامت شيعة بنى العباس كانت اليمينية من انصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قريش مازال في كل حال محفوظا ومفضلا على مقام سائر القبائل شرفا ونفوذاً ، فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملا من قريش ، فيذعنون له ويجمعون على طاعته (٢)

على ان قريشا كانوا منقسمين فيما بينهم ، واهم انقساماتهم بين بنى أمية وبنى هاشم ، فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعا لغرضه او وطنه ، وكثيرا ماكانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة ، حتى تحدثم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بنى هاشم في الحجاز والعراق ، وقوة بنى أمية في الشام ، ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيرا ماكان الخصام يبدأ بين الشعراء ، واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات ، وأشهر مناظراتهم في هذا السبيل ماكان بين سديف الشاعر ، الذي ينتسب بولائه الى بنى هاشم ، فقد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبنى أمية ، فكان هذان الشعراء يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب ، والناس ينقسمون في التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية ، وتغير أسماهما الى الحنطين والجزارين (٣) وسديف هذا هو الذي قال شعرا بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموى (\*)

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٧٨ ج ٥ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤  
(\*) سديف هو المعروف بسديف مولى بنى هاشم . انظر عنه الاغانى ، طبعة السامى ٩٢/٤  
١٦ و ١٥٦/١٤ . وسياب هو ابو سيابة المذكور في الاغانى ٩/٥ و ٤٤

### عصية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في أيام بنى أمية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فإن العرب على الأجمال كانوا مقدمين على سائر الأمم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في إقامة هذا الدين ، وأنهم مادته وأصله ، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم ويعبدوا أنفسهم من مواليتهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضا واجبا عليهم ، عملا بالحديث المأثور : « من أبغض العرب أبغضه الله » (١) وكثيرا ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله ابن المقفع المشيئة الشهير - وكان عريقا في النسب الفارسي - ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من أشراف العرب ، فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور : « أى الأمم أعقل ؟ » فظنوه يريد أمته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا . . لانهم وإن ملكوا الأرض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئا بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » حتى سموا فقالوا : « قل أنت » ، قال : « العرب . واذا فاتنى حظى من النسبة اليهم فلا يفوتنى حظى من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت عليها ، أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، وجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم والسننهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

### العرب والموال

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الأقوال افتخارا على سائر الأمم ، وخصوصا على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالى كما تقدم . ومن أقوال أهل العصية للعرب على العجم : « لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر ، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما فى الاثر - ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواحير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على أننا تعرضنا للقتل فيهم ، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا فى مكاببتكم »

وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالى ، وإذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعا لله . وكان نافع بن جبير التابعى الشهير إذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فإذا قالوا : « قرشى » قال : « وا قوماه ! » وإذا قالوا : « عربى » قال : « وا بلوتاه ! » وإذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » (١) . وكانوا يقولون : « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار ، أو كلب ، أو مولى » . وكانوا لا يكتنونهم بالكنى ، ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم فى المواقب ، وإن حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه اجلسوه فى طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب - وسيأتى الكلام على احكام الموالى فى هذا العصر .

وكان العرب فى أيام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالى وأهل الذمة ، ويعدون انفسهم فوقهم جيلة وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم ، وربما أرادوا بالحمراء الموالى على الخصوص . فكان العربى يعد نفسه سيدا على غير العربى ، ويرى انه خلق للسيادة وذلك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون فى صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصا المهن والصناعات . ومن أمثالهم « ان الحق فى الحاكة والمعلمين والغزاليين » لانها صناعات أهل الذمة (٢) وتخاصم عربى ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لاكثر الله فينا مثلك » ، فقال العربى : « بل كثر الله فينا مثلك » ، ف قيل له : « ايدعو عليك وتدمو له ؟ » ، قال : « نعم ، يكسحون طرقتنا ويخرزون خفافنا ويحكون ثيابنا » (٣)

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ ، لانه لازم للسيادة والفتح ، وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالى وأهل الذمة ، ولذلك كان العمال فى أيام بنى أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون (٤)

وكان الامويون فى أيام معاوية يعدون الموالى اتباعا وأرقاء . فلما تكاثر الموالى أدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته ، وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب ، فقال لهما : « أتى رأيت هذه الحمراء ( يعنى الموالى ) وأراها قد قطعت على السلف ، وكأنى أنظر الى وثبة

(١) المقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١  
(٣) المقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٤) المسعودى ١١٤ ج ٢

منهم على العرب والسلطان ، فرأيت أن اقتل شطرا وادع شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ » . فقال الاحنف : « أرى أن نفسي لا تطيب . . أخى لامي وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب » ، وأما سمرة فأشار بقتلهم وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية أن الحزم فى رأى الاحنف فكف عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم ، وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطرا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام (\*)

وكان العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر ، بارتقائهم من رعاية الأبل إلى سياسة الممالك فى بضعة عشر عاما ، فتوهموا فى فطرتهم ما ليس فى سواهم من المناقب والسجاي كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم أهل هذا العصر فى بعض الأمم السائدة فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الأمم (\*\*). فتوهم العرب فى أنفسهم الفضل على سائر الأمم . . حتى فى أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل فى سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عريية كما تقدم ، وأن الفالاج لا يصيب أبدانهم ولا يضرب أحدا من أبنائهم (\*\*\*) الا أن يبدروا بدورهم فى الروميات والصقلييات وما أشبههن فيعرض الفالاج لمن يلدنه (١) ولذلك كانوا فى أيام بنى أمية شديدي العناية فى حفظ أنسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربى » (٢) وحرموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان أبوه قرشيا ، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن على بن الحسين ، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك : « بلغنى أنك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة » (٣) مع أن أمه من بنات ملوك فارس . وأول من ولى الخلافة من أبناء الاماء يزيد ابن الوليد الاموى سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربى من أم أعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الأعجمى عريية ولو كان أميرا وكانت هى من أحقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من باهلة كانت فى بعض قصور الترك فأبى ، مع أن باهلة من أحقر قبائل العرب . ولم يكن

(\*) كان دافعه الى ذلك كما هو ظاهر من النص هو الخوف من كثرة عدد الموالى ، فقد كانوا يزيدون على العرب أضعافا . وموقف العرب من الموالى منشؤه الاستعلاء على غيرهم ، ولكن لا ينبغي أن نفوتنا ملاحظة خوف العرب من الموالى  
(\*\*) يشير المؤلف هنا الى ما كان الإنجلوسكسون مثلا يدعونه لانفسهم من الفضل على غيرهم ، وما زعمه أهل اوربا وامريكا من أنهم آريون ممتازون على الساميين والهاميين ومن سواهم . وقد ذهبت هذه الدعوى الآن فى الظاهر ، أما فى الحقيقة فلا يزال أهل الغرب يشعرون بأنهم قادة الانسانية ، وهم يتصرفون على هذا الاساس

(\*\*\*) أى أن الفالاج لا يصيب أبنائهم الصرحاء . وقد كان هذا صحيحا بالنسبة لعرب الجاهلية ، لان الفالاج يتأتى من زيادة ضغط الدم ، وهذا بدوره يتأتى فى الغالب ، من الاسراف فى أنواع معينة من الطعام ، وكان الجاهليون متقللين من الطعام ، فلم يكن الفالاج يصيبهم ، وقد أشار الى ذلك ابن سينا فى « القانون »

(١) طبقات الأطباء ١٥٠ ج ١ والافانى ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) مراجع الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨

اثقل على طباعهم من استرقاق العربى (١)

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، أخذ هؤلاء في التدمير ونصروا آل على والخوارج وغيرهم من أعداء الامويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعبوية ، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم ، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعبوية يستطيعون الظهور في أيام بنى امية (٢) فلما افضت الخلافة الى بنى العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الامين والمأمون ، ظهوروا والفوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتى

آثار بنى امية في الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثيرة العناية في حفظ الانساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة (٣) وهى التى جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في أيام الراشدين ديناً ، فصار على عهد الامويين عصبية وسيفاً ، ثم صار دولة أبدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية ، أصبحت هذه البلاد بتوالى الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية ، وهى تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركى أو الافرنجى أو غيرهما من أى أمة كانت وتوالد فيها عد نسله عربياً (\*)

وظل العرب في أيام بنى امية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم (٤) وظل كثير من عادات الجاهلية شائعا في أيامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العامة ، فكان أشرف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحدثون ويتذكرون أيام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحدثون (٥) كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربد حلقات للعلماء أو الشعراء يجتمع عليهم الطلبة أو المريدون ، في جملةتها حلقة كانت لرأى

(١) ابن الأثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥ (٢) الاغانى ١٢٥ ج ٤ (٣) القرطبي ٩٤ ج ١ (\*) كان ذلك في الدولة العثمانية ، فقد كان الاتراك يعتبرون أنفسهم سادة أهل البلاد التى يحكمونها ، وكانوا يسمون من سواهم من سكانها عربا واولاد عرب ماداموا مسلمين لا ينتسبون الى أصل تركى

(٤) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٥) الاغانى ١٥٣ ج ١٩

الابل (\*) والفرزدق وجلسائهما بأعلى المربد (١) وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في أيام هذه الدولة ، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض

### العصية الوطنية في عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون في وطن ، لتقلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالفرز والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصر والامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهي ما عبرنا عنه بالعصية الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجا ، ولم يكن ذلك مقصودا في بادئ الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداهتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في أيام جاهليتهم ، واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعى لابلهم وخيلهم . وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جندا محاربا ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية أو الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقا تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جندا . وكانت عساكر الشام أربعة اجناد ، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب ، في معسكرين صاروا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل

(\*) دامي الابل هو ابو جندل عبيد النمرى القيسى المعروف بالراضى او دامي الابل ، وهو من شعراء النقااض ومن طبقة جرير والفرزدق والاخلطل

انظر عنه : احمد الشايب : تاريخ النقااض في الشعر العربى ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٢١ وما يليها

في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب ، حيث بنيت القسطنطينية بعد ذلك (\*) وكان العرب ( أو المسلمون ) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين اهل بداءة وغزو ، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات ، وافضت الخلافة الى بنى أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين افعال أمر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار ، واغفلوا وصية عمر فاقطنوا الارض والضياح وغرسوا المغارس ، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة ، اشهرها البصرة والكوفة والقسطنطينية والقروان من المدن التي بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياح ، وابتنوا المنازل والقصور ، واشتغلوا بالزراعة وتعلموا أشغال أهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك في أعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الربيع لمعاشهم (\*\*) لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفء أو الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق في ذلك الفء حيثما كان مقامه . فاهل المدينة مثلاً يتمتعون بفء العراق ، وكذلك اهل الشام .

(\*) الجند في المصطلح العام هم العسكر ، اما في مصطلح الدولة الاسلامية خلال عصر الراشدين والامويين فيراد بهم الجنود العربى المدون في الديوان ، الذي يفرض لرجاله المظلة ( المربعات ) والارزاق ( ما كان يعطى للجنود علاوة على مرتبه من الزيت والقمح والعسل والنسيج ) . اما في المصطلح الادارى فالجند هو الاقليم العسكري الذي تقوم بحراسته وتقيم فيه حامية عربية . وأول ناحية قسمت الى اجناد - أى ولايات عسكرية - هي الشام ، اذ قسم الى أربعة اجناد كما ذكر المؤلف . وقد اعتبرت البصرة والكوفة اول الامر جنديين ، واعتبرت مصر جنداً ، ثم تحولت البصرة والكوفة الى كورتين ، وقسمت مصر كورتاً ، ولم بعد العراق ومصر جنديين ، أو ولايتين عسكريتين . أما الشام فقد ظل مقسماً الى اجناد ، لان الدولة الاموية اعتبرت الشام كله اقليماً عسكرياً ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس ، فانشئت فيه ست ولايات عسكرية عرفت بالاجناد . وفي غير الشام والاندلس لم يستمر نظام الاجناد ، بل حولت اراضي الدولة الاسلامية كلها الى كور ، أى الى اقسام زراعية مالية . وكانت الاجناد تخضع لنظام ادارى مالى خاص ، فكان قائد الجند يعتبر حاكم الاقليم في حين ان الخلافة كانت تقيم على الولايات الاخرى عاملاً مدنياً وقائداً للعسكر ، وقد يجمع الامر للعامل اذا كان من العسكريين . وبينما كانت الولايات تؤدي خراجاً عن الارض كانت الاجناد تؤدي العشر فقط ، لان الذين كانوا يجمعون الضرائب ويؤدونها الى الدولة كانوا نواد الاجناد ، وهم عرب والعرب لا يدفعون الا العشر على اعتبار انه صدقة لا خراج . وكان المزارعون يؤدون الخراج الى قائد الجند ، فيؤدي منه العشر ويستفضل الباقي ليوزعه على جنده . وقد اخذ العرب نظام الاجناد من الروم ، فان البيزنطيين كانوا قد قسموا دولتهم ابتداء من ايام هرقل الى اقسام عسكرية يسمى واحداً Thema وجيفها Themata وقد مر به العرب الى بند وبنود فيما يتصل باقسام الدولة البيزنطية

(\*\*) المراد بالربيع هنا الاعطيات ونصيب كل جندي من الفء اذا كان ممن يستحقونه



فلما بداوا بالاستيطان في أواخر عصر الراشدين ، وأراد أهل كل مصر أن يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة ، لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك إلى الخليفة إذ ذاك عثمان بن عفان ، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق ، فاستبدله لهم من أهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز أو اليمن أو غيرهما من بلاد العرب (١)

#### تعصب المدن الإسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين انقساماً في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . وأول خلاف وقع بين بلدين إسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في أيام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله ، وكان أساسه الميل إلى أحد طلاب الخلافة يومئذ ، وهم على معاوية وطلحة والزبير ، فكان أهل الشام مع معاوية لأنه أميرهم ومعظمهم من قرشي ، وكان أهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان أهل الكوفة مع الزبير ، وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق إلى علي فضلاً عن أهل المدينة ومصر ، وظل أهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره ، ببيع معاوية وترك مصر لعمرو ابن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل على سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل إليهم ، فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية (٣)

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد إلى الخلفاء باختلاف الأحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالي الأعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على أنها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من أيام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الأمصار فقال : « أهل المدينة أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه ، وأهل الكوفة يردون جميعاً ويصدرون شتى ، وأهل مصر أوفى الناس بشر وأسرعهم إلى ندامة ، وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمفويهم » (٤)

(١) ابن الأثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الأثير ٦٥ ج ٣ (٣) وبعد مقتل الحسين بن علي اختلف أمر أهل العراق ، حتى بعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً فحاز العراق له ، وبذلك أصبح العراق مع الحجاز لابن الزبير ، ثم انضمت إليه مصر بعد ذلك

(٤) يلاحظ في عبارة ابن الكواء تعصب ظاهر لأهل الشام ، وهذا طبيعي من رجل يحدث معاوية بن أبي سفيان زعيم أهل الشام إذ ذاك

وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية، وهى غير عصبية النسب، اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة، كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط، وهم اخلاط من قبائل شتى. فكان لكل بلد في عصر بنى أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها. وهو مؤلف من قبائل تختلف نسبا وعصبية، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها، يقيم كل منها في حى خاص بها يعرف باسمها، فكانت البصرة مثلا مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس، كل خمس لقبيلة، وهى الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية. والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة (١) وفس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام مايقابلها من قبيلتها في البلد الآخر. ففى واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية، ونزلت قبائل مضر الى مضر، وربيعة الى ربيعة. وكذلك فى واقعة صفين، وهى بين اهل الشام وقائدهم معاوية، واهل العراق وقائدهم على. فلما التحم القتال سأل على عن اهل الشام فعرف مواقفهم، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه، فقال للأزد: «اكفونا الازد»، وقال لخثعم: «اكفونا خثعم»، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام. الا أن تكون قبيلة ليس لها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى في الشام ليس بالعراق منها أحد (٢) - فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب، وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم (\*)

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣

(\*) الاصبوب ان تسمى النزعة التى يتحدث عنها المؤلف نزعة محلية لا وطنية، فان عرب البصرة مثلا لم يكن يحركهم شعور « وطنى » وكذلك كان حال عرب الكوفة وعرب مصر وغيرهم. وقد كان كل فريق من العرب نزل قطرا من الاقطار قد أحب أن ينفرد بخيراته ويلدود غيره من العرب عنه، ويصور لنا هذا الشعور قول أحد شيوخ عرب مصر عندما رأى القميج يحمل من مصر الى المدينة: « مالنا يحمل من بلادنا ؟ » ثم اخذ بخطام البعير وحال دون سير القافلة. كان العرب خلال هذا العصر الاول لا يتحمسون « للوطن » العراقى أو الوطن المصرى، بل لا اكتسبوه من حقوق في كل من القطرين. حتى النزاع بين الشام والعراق الذى ملا العصر الاموى كله لم يكن نزاعا وطنيا، بل محليا قبيليا. بل اننا لا نستطيع ان نسمى حركات الانفصال التى قام بها عبد الرحمن الداخل في الاندلس وابن طولون في مصر حركات وطنية او قومية، وانما هى نزعات محلية دفع اليها انانية الحكام ووعيتهم في الانفراد بأقطارهم وخيراتهم دون ان يشارك اهل البلاد الحقيقيون في ذلك، فان ابن طولون والاشعبد مثلا لم يتزعما حركتين مصريتين، بل كان المصريون في واد وهما في واد. وادق تسمية للحركات التى ظهرت في صدر الاسلام انها كانت نزعات محلية عصبية، والتى ظهرت ابتداء من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى انها كانت حركات انفصالية. أما الحركات القومية فلم تظهر الا في القرن السادس عشر الميلادى، عقب استيلاء الاتراك العثمانيين على البلاد الاسلامية واعتزازهم بتركيتهم او عثمانيتهم. فبدأ شعور العروبة يتحرك في نفوس العرب من سكان الدولة الاسلامية، بدأ في صورة رد فعل للنزعة الاتراك العثمانية، ويمكن ان نصف هذه الحركة بانها كانت قومية، أى ان اقوام العرب تحركت للدياد من عروبتها، كما تحركت اقوام ايران للدفاع عن ايرانياتها ضد العثمانيين. وفيما يتصل بالهركات الوطنية في العالم الاسلامى لا يمكن ان يقال انها بدأت قبل القرن التاسع عشر

على أن أهل البلد الواحد كانوا يختلفون عددا ونسبا باختلاف عصبية الأمير أو الخليفة ، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الأحوال مما لا ضابط له ، فتشعب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن أشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الإسلام خلاف أهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام أموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سنية (١) وتقلب هذه الأحوال كثيرا ، واختلفت باختلاف الدول والعصور . فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات : أولا الجامعة العصبية أو جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الإسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين (٢)

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية أن أهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفخرون المسلمين بهما ، لأن الإسلام لا يستغنى عنهما وفيهما شيعة على ولاسيما المدينة . فكان الأمويون - مع عداوتهم للعلويين - لا يرون بدا من زيارة الحرمين ورعاية أهلها ، فيقف ذلك حجر عثرة في سبيل سلطانهم ، وخصوصا بعد أن احتفى ابن الزبير بالكعبة وأخرج بنى أمية وأحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الأمويون التغلب عليه إلا بضرب الكعبة بالمنجنيق . ولهذا السبب خطر للأمويين أن ينقلوا منبر النبي من المدينة إلى الشام ، ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصغيرا للكعبة (٣) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين ، فلم يجدهم ذلك نفعا

### اصطناع الأحزاب في عصر الأمويين

#### سياسة معاوية

ومما احتاج إليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب ، كما فعل معاوية بن أبي سفيان في اكتساب نصره عمرو ابن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو أمية في تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويون أبناء بنت النبي وأحفادها ينازعونهم عليه . على أنه لم يبق في بنى أمية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه أهل هذا الزمان بالسياسة .

(٣) السعدي ١٦٦ ج ٣

(٢) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢

(١) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣

وإذا قسنا أعمال هذا الرجل بأعمال أعظم رجال السياسة من أهل هذا العصر وغيره ، لرايناه يفوق أكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصا إذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من أهل بيت النبي ( صلعم ) وأبناء عمه وأبناء بنته ، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وأن معاوية طليق لا تحل له الخلافة (١) وأنه لم يعتنق الاسلام الا مكرها ، ومع هذا غلب عليهم جميعا فقبض على ازمة الملك وجعله ارثا في نسله ، ولم يسفك في سبيل ذلك دما كثيرا ، وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

أما سعة الصدر فانه كان يفضي عن مطاعن أهل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدا من أن ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين أمرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليا عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من أقرباء علي ، ذكروا أن عقيل أخا علي بن أبي طالب وفد على معاوية وعلى لا يزال حيا ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على أخيه ، وأوسع حلما واحتمالا ، فقال له معاوية : « كيف تركت عليا ؟ » فقال : « تركته على ما يحب الله ورسوله ، والفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جوابا تألم منه » . ثم احب معاوية أن يقطع الحديث مخافة أن يأتي بشيء يسوءه ، فوثب من مجلسه وأمر له أن ينزل وأوصل اليه مالا عظيما . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت عليا أخاك ؟ » . قال : « تركته خيرا لنفسه منك ، وانت خير لي منه » (٢)

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدى ، وغيره من رجال على ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة أو البذل ، فلا يلتقى به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا . وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه ، فيخدع له ويطاوعه ويجيزه . ذكروا أن ابن الزبير - قبل قيامه بالدعوة لنفسه - هرب من عبد الرحمن ابن أم الحكم الى معاوية ، وقد أحرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « أن عبد الرحمن أحرق دارى » فقال معاوية : « وكم تساوى دارك ؟ » قال : « . . . ١٠٠ » ، فطلب منه شاهدا فأتاه بشاهد من اصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه : « اى الشيخين عندكم أكذب ؟ والله انى لأعرف داره ، وما هى الا خصائص قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » (٣) وكان ذلك وأمثاله

مما أسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في إمامه

فأين هذا من تدقيق على في محاسبة عماله ، حتى أغضب أكثرهم وخسر نصرتهم ، وفي جعلتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان أكبر نصير له ، فأغضبه من أجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ على حين أن معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، وإذا وفد أحدهم عليه بالغ في إكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج إذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه (١)

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات وزعماء الأحزاب ولو أطلقوا ألسنتهم عليه . فالاحنف بن قيس التميمي ، أحد السادة التابعين وأهل النفوذ ، كان على رأى على وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق أنه وفد على معاوية بعد أن استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزاة في قلبى إلى يوم القيامة » ، فقال له الاحنف : « والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى اغمادها ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وإن تمش إليها نهول لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين من هذا الذى يهدد ويتعد ؟ » . قال : « هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب » (٢)

على أن معاوية كان إذا خاف عدوا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، وكان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه بما عندهم من آثار أبيه ، ولغنائيه في بلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الأثال الطبيب أن يحتال في قتله ، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص . فدس ابن الأثال إليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات (٣) ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالاشتري النخعي مالك بن الحارث ، وكان من أشد رجال على بطشا أو هو أشدهم جميعا ، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسنا . فلما اضطربت أحوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال في حوزة على ، بعث الاشتري إليها ، فعلم معاوية أنه أن وليها امتنعت عليه ، فبعث إلى المقدم على أهل الخراج في القلزم — وهى في طريق الاشتري لأبد من مروره بها عند قدومه إلى مصر —

(١) ابن الأثير ٢٥٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٣) ابن الأثير ٢٢٩ ج ٣

وقال له : « ان الاشتري قد ولي مصر ، فان كفيته لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت » . فخرج حتى اتى القلزم واقام به ، فلما جاء الاشتري استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان عليا قد وجه الاشتري الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فاخبره بمهلك الاشتري ، فقام معاوية خطيبا وقال : « اما بعد فانه كان لعلى يمينان فقطعت احدهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعنى الاشتري) » (١) فلما بلغ خبر الاشتري الى عمرو بن العاص قال : « ان لله جنودا من العسل » (٢)

#### عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما على واصحابه فكانوا لا يحسدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية ، وكانت اريحيتهم هذه مساعدا كبيرا لفوز معاوية عليهم . ففي واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلى ، ولو تم له ذلك لقضى على معاوية واغراضه ، وذهبت مساعيه ادراج الرياح ، ولذهب امر بنى امية بذهابه واستتب الامر لعلى وأهل بيته . وانما منع من فوز على دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف في عسكره وايقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان محاربا معه وقال له : « هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لتغور الشام بعد اهل الشام ؟ ومن لتغور العراق بعد اهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال على بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه أتم ابن العاص حيلته ، فخلع عليا وبايع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب أمره ، ولولا اريحية ابداه على في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك أن عمروا كان قد برز للنزال ، فبرز له على فلما التقيا عرفه على ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما ايقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : « مكره اخوك لا بطل » ، فثارت الاريحية في نفس على فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة (٣) وذهب عمل عمرو هذا مثلا وفيه يقول الشاعر :

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ (٢) المقرئى ٣٠٠ ج ١ (٣) المسعودى ١٩ ج ٢

ولا خير في صون الحياة بذلة كما صانها يوما بذلته عمرو (\*)

وكذلك كان أصحاب على من حيث الأريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي ، الا من طمع في الدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في على على أقوى احوالها ، ولو تساهل فيها أو أغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكنه لا رأى له في الحرب » (١)

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت في بنى مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون أهمهم اولاد على . على أنه كان يسكتهم بالمسألة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الأخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته

فلما راوه نقلها الى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما ، وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨هـ أربعة الوية في عرفات ، كل منها لزعم يطلب الخلافة لنفسه ، أحدها لبنى أمية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحرورى من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو أمية ، للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التى ساعدتهم على اصطناع الاحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأى على في السياسة

### بذل المال في عصر الامويين

#### العطاء من بيت المال

العطاء من أكبر العوامل التى ساعدت بنى أمية في اصطناع الرجال وكسر شوكة أعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند أو رواتب المسلمين ، وكانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبى ، أو سابقته في الاسلام ، أو غير ذلك مما تراه مفصلاً في كلامنا عن الديوان في أيام عمر (٢) وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم

(\*) ويرى أيضاً :

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما رده يوما بسوائه عمرو

وواضح أن القصة كلها مخترعة ، وكذلك معظم ما يرد في الكتب من الحكايات عن هذه الفترة

(١) الأغانى ١٥ ج ١٥ (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب

حتى النساء والاولاد . واصل هذا العطاء من أموال الفئء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء يأخذون اعطيتهم من أموال الصدقة وهى الزكاة ، ولكل من الصدقة والفئء ديوان خاص وحساب خاص

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم أن يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطى ولمن يعطى ، اغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً ، وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين أو غيرهم من أهل بيت النبي ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد أن كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٢٠٠٠ درهم في السنة جعلها معاوية مليون درهم ، أى انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ أيضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الاسلام ممن يقيمون فى المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة اخرى يتألف بهم أهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال فى أهلها للتمتع بملاذ الحياة ، ومنهم من كان ينفق عطائه على المغنين والشعراء . وأكثرهم سخاء وبذلاً من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يفد على معاوية فى الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه فى أهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد : « كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « ألف ألف درهم » ، قال : « قد أضعفناها لك » ، قال : « فذاك أبى وأمى » ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال : « قد أضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد : « أعطى رجلاً واحداً ٢٠٠٠٠٠ درهم ؟ » فقال : « ويحكم انى اعطيتها أهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية » (١)

وقس على ذلك بذل معاوية فى تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التى تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلاً ، فانه كان يتألفها بالاموال خوفاً من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهى أقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى أن أحد رجالها كان يأتى معاوية يطلب منه أن يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمى ، فانه طلب من معاوية أن يفرض



له فأبى ، فقال شعرا يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له      كساع الى الهيجا بغير سلاح  
وان ابن عم المرء - فاعلم - جناحه      وهل يقنص البازي بغير جناح ؟  
وما طالب الحاجات الا مقرر      وما نال شيئا طالب كجناح

فلم يعأ به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية أن رجلا من اليمن قال يوما : « لهمت أن لا أدع بالشام أحدا من مضر ، بل هممت أن لا أحل حيوته حتى أخرج كل نزارى بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى أن يضربهم بالمضرية ، ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وأنت في بلدك ، فاذا شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل ، فان عطاءك سيأتيك » . وصار معاوية يغزى اليمن في البحر وقيسا في البر (١) ولولا دهاؤه وحسن أسلوبه لما استطاع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين ، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها (٢) كما فعل عمر فيمن شهد القادسية . وسار خلفاء بنى أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا أجزائهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء ، التماسا لقطع السنتهم أو ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان أهل التقوى يرون ذلك مجحفا بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفئء فانه مال الله أو مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير أصحاب على على معاوية يوم صفين (٣) فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ماكانوا عليه

وكانوا يفرضون لاي من جاءهم ، ولو كان أعرايبا ، حتى كان أهل البادية كثيرا ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق ، وانه تأييد لدعوة القائمين على أهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى أن امرأة جبهة الاشجعي من أهل البادية حرّضت زوجها على الذهاب الى المدينة لبيع ابله ويفترض في العطاء ، فاطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعته ، وتبعها الابل ،

(١) الأغانى ٦٩ ج ١٨ (٢) السعوى ١٥٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٢

وطلبها ففاته فقال لزوجته : « هذه الأبل لا تعقل ونحن الى أوطانها » (١)  
ثم قال شعرا :

قالت انيسة : دع بلادك والتمس دارا بطيبة ربة الأطام  
تكتب عيالك في العطاء وتفترض وكذلك يفعل حازم الاقوام  
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا بدوى عنيزة او بقف بشام  
اذ هن عن حسبي مداود كلما نزل الظلام بعصبة اغنام  
ان المدينة لا مدينة فالزمت حقف السناد وقبة الارحام  
يجلب لك اللبن القريض وينتزع بالعيس عن يمن اليك وشام  
وتجاورى النفر الذين ينبلهم ارمى العدو واذا نهضت مرام  
الباذلين اذا طلبت بلادهم والمائى ظهري من الغرام (١)

ومن اقوال عبد الملك بن مروان : « انعم الناس عيشا من له ما يكفيه ،  
وزوجة ترضيه ، ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فتؤذيه » (٢)

وكان هم بنو أمية أهل المدينة ، لانهم شيعة على وفيهم الانصار ونخبة  
القرشيين ، فكان عامل بنى أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف  
اقرض من اراد من قريش منه ، وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به  
ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ،  
وما زال هذا شأنهم الى أيام الرشيد ، فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك  
بقيت من ذلك فحرق (٣)

وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون  
بلدا يرمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن على ، فقطع عطاء أهل  
الحرمين جميعا (٤) وحرم الوليد آل حزم من العطاء ، لان قتلة عثمان دخلوا  
اليه من دارهم في المدينة ، وقبض اموالهم وضياعهم ، وظلوا كذلك الى أيام  
المنصورة فأفرج عنهم (٥) وكثيرا ما كان الانصار يمشون بلا عطاء (٦) ولا ذنب  
لهم الا أنهم ينصرون أهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان اعطية آل  
سفيان ، مع أنهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن  
يزيد بن معاوية (٧)

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون أنهم

(١) الخبر هنا مختصر اختصارا شديدا ، وقد وجدته في طبعة الساسي ج ١٦ ص ١٤١ ،  
ونفسه : « حدثني عمي عن سليمان بن عياش قال : قالت زوجة جيهنا الاشجى له : لو هاجرت  
بنا الى المدينة وبعت ابلك وانترعت في العطاء كان خيرا لك ، فقال : افعل . فاقبل بها  
ويابله حتى اذا كان بحرة واقم من شرقي المدينة شرعا يحوض واقم ليستقيها ، فحنت ناقة  
منها ثم نزلت ، وبعتها الأبل ، وطلبها ففاته ، فقال لزوجته : « هذه ابل لا تعقل ونحن الى  
أوطانها ، ونحن احق بالحنين منها . أنت طالق ان لم ترجى ، وفعل الله بكذا » . وردتها وقال : «  
(١) الاغانى ١٤١ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ (٣) الاغانى ١٠٥ ج ١٣  
(٤) الاغانى ١١١ ج ٦ (٥) المقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغانى ٦٢ ج ١٠  
(٧) المقد الفريد ١٣٢ ج ١

يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فاقعده في قبة حمراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا امير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها » . وكان الاخنف بن قيس التميمي حاضرا ، فقال له معاوية : « ما بالك لا تقول يا ابا بحر ؟ » فقال : « أخاف الله اذا كذبت ، وأخافكم اذا صدقت » ، فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيرا » ، وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا ابا بحر ، انى لاعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت » (١)

#### تدقيق عل وبغل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ، أن مناظرهم أهل البيت وعبد الله بن الزبير كانوا قليلي العطاء ، أما عن امسالك أو عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤى في الناس أبخل من أهل البيت ، ولا من عبد الله بن الزبير » (٢) وكثيرا ما كان امسالكهم سببا في فشلهم وانحياز الناس الى بنى أمية ، فمن أمثلة ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملا لعلى على ازدشيرخره ، فرأى اسرى كان بعض رجال لعلى قد اسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم ، وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة ألف ، وأطلق سراحهم . فطالبه على بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي ، فألح عليه أصحاب على فقال مصقلة : « أما والله لو كان ابن هند ( يعنى معاوية ) ما طالبنى بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لى » ، فقالوا : « ان عليا لا يترك شيئا » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية (٣)

ومن أمثلة بخل ابن الزبير الذى أفسد عليه الامر ، أن أخاه مصعبا لما قتل المختار بن أبى عبيد في العراق ، وأخضع العراق لأخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه أهل العراق ، فجاء بهم حتى أتى أخاه في مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له : « يا امير المؤمنين ، جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا لتعطيتهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد أهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده . وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب (٤) وكان ذلك سببا في ذهاب دولة ابن الزبير

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) الاغانى ١٠٥ ج ١٣  
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ (٤) المقد الفريد ١١٩ ج ١

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء ، الا لاهل التقوى أو من في معناتهم . على حين أن بنى أمية كانوا يفرضون للرجل ولاهله وأولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي ( وما هو من رجال الحرب ) الفين في العطاء ، وجعل عشرين من ولده وأهل بيته في الفين الفين من أجل حديث حدثه إياه (١) وكانوا يفرضون للشعراء أعطية معينة يقبضونها في أوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه الفان أو أكثر أو أقل . وإذا مدحهم زادوا أعطيتهم ترغيبا لهم في مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر أنحاء المملكة الأموية . وأهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقا في بيت المال (٢) فعمربن عبد العزيز كان اذا اخرج شاعر ولم ير مناصا منه اعطاه من ماله الخاص (٣)

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » (٤) وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم والا يكونوا عالة على الناس (٥) فكيف بالشعراء !

### الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بنى أمية الى خرق كثير من القواعد التى وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التى ترد على بيت المال تعد ملكا للمسلمين ، وليس الخليفة أو عامله الا حافظا لها ، لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رأيت أن أبا بكر توفى وليس في بيت ماله غير دينار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى أنه لا ينبغي أن يبقى في بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد أشرنا الى غرابة هذا الرأى في الجزء الثانى من هذا الكتاب . ونهى عمر أيضا عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع من بيت المال . أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، وان تبقى البلاد التى فتحوها فيثا يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للانفاق على المسلمين . ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاما لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع (٦)

(١) الاغانى ١٧١ ج ١ (٢) الاغانى ٩٩ ج ١٠ (٣) الاغانى ١١٨ ج ١٧  
(٤) الفرع بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٦ ج ٤ (٥) العقد الفرید ٢٣٦ ج ١  
(٦) الجزء الاول من هذا الكتاب

## عمال بنى أمية

فلما اضطر بنو أمية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن ، أغضوا عن كثير من تلك الاحكام ، وتوقفوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه في سبيل اثراضهم ، مثل زياد بن أبيه عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدوها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها . فقد كتب معاوية الى زياد يقول : « اصطف لى الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة (١) وكان العمال من الجهة الأخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد أطلق الخلفاء أيديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم (٢) وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب أمية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي » (٣) فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بعمال عند أحدهم أنفذوا اليه من يقبض أمواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون في الكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من أهل البلاد التي فتحوها عنوة ، لاعتقادهم أنها فيء لهم كما تقدم . وكقول عامل بنى أمية في العراق : « السواد بستان قريش ، ماشئنا أخذنا منه وماشئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابه : « لو أعطيتني من الأرض الى السقف ما أخبرتك بما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » (٤) ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره : « الصغد بستان أمير المؤمنين »

## الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال بآية وسيلة كانت ، ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها في أول الاسلام

(١) العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٢٧ ج ٢

(٢) الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢

(٣) الاغانى ٥٦ ج ١٣ (٤) المقريزى ٧٧ ج ١

الجزية لكثرة اهل الدمة ، فكان عمال بنى أمية يشددون في تحصيلها ، فأخذ اهل الدمة يدخلون في الاسلام ، فلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف (١) واقتدى به غيره من عمال بنى أمية في افريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه ، وخصوصا اهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا الى اواخر ايام بنى أمية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم ، فبعث اليهم رجلا اسمه أبو الصيداء فقال الرجل : « أخرج اليهم على شريطة ان من أسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال أشرس : « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا أهلها الى الاسلام على أن توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج ، فكتب عاملها الى أشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابه : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغنى ان اهل الصفد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام ، وانما اسلموا تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فأرفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك الى أشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصفد وبخارا واستجاش الترك . ومازالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ أنه وضع الجزية عمن أسلم ، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض أسبوع حتى اتاه ٣٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية (٢)

ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب (٣) والاستئثار بالفىء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز ، فانه لم ينفق من بيت المال درهما على نفسه ولا أخذ منه شيئا (٤) وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعا . وهو الذى كتب الى عماله لما ولى الخلافة : « ضعوا الجزية عمن أسلم ، ان الله بعث محمدا هاديا ولم يعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه (٥) وأراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فبعثه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد ، فأبطلها عمر بن عبد العزيز (٦)

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١١١ ج ٥

(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٤) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

(٥) المقرئى ٧٨ ج ١ (٦) الاغانى ١٣ ج ١٥

واضطّر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى اموال الصدقة ، وهى الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم ، خلافا لسائر اموال الدولة كالفىء والغنيمة والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجند . فكان بنو امية كثيرا ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة (١) وحققا ان تعطى من مال الخليفة الخاص ، او من مال الفىء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لانه انما أجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضا كثيرا ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعمدونه حطة في مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجا وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها «الصدقة» فأبى أهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك ، لان أهل المدينة من انصار أهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفىء » فضرب عبد الملك مثلا كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضامن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة

وكانوا كثيرا ما يعمدون اذا أعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة ، وخصوصا في أيام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد أعطيات الناس ترغيبا لهم في طاعته ، فلم يجد مالا يكفيهم ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان وأعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات في أيامه بالرشى للخليفة وأصحابه (٢) وكانت الولايات تعطى في أيام أسلافه جزاء على خدمة ، كما أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس أحدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهورا حتى أصبح الامير اذا دعى لنصرة أحد الخلفاء اشترط مالا أو ولاية معينة . ومما يحكى أن عبد الملك بن مروان ، في أثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق ، بعث الى أهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشروطوا عليه شروطا وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق أن أربعين رجلا منهم سألوه ولاية أصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحكم ! ما أصبهان هذه ؟ » تعجبا ممن يطلبها (٣)

(١) الاغانى ١٥٦ ج ١١

(٢) ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٢ ج ٥

(٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٧

### الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم ، وإن حجة أهل البيت في طلبها مبنية على أساس صحيح ، كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبية . أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لطمه ودهائه يفضي عن اقوالهم ، ويقطع السنتهم بالمعطاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالفوا فيه ، حتى اذا أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت خطب فيها خطابا قال فيه :

« أما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف ( يعني عثمان ) ولا بالخليفة المداهن ( يعني معاوية ) ولا بالخليفة المأفون ( يعني يزيد ) . ألا واني لا أدأوى هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم . وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل أعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم . والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عتقه » . فهو أول من نهى عن المعروف (١) فعظم ذلك على أعداء بنى أمية حتى تحسروا على أنام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، أنا كنا لنخدعه فيتخادع لنا »

استهانة بعض الامويين بالقياسات

أما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن أنه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لانه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاهما استهوته الدنيا . ذكروا انه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعدا والمصحف في حجره فأطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » أو « هذا فراق بيني وبينك » (٢) فلا غرو بعد ذلك اذا أباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة (٣) والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها ، فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا ، وهدموا الكعبة ، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها (٤)

(١) ابن الاثير ١٦٠ و ٢٥١ ج ٤

(٢) أبو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٦٦

(٣) ابن الاثير ٣٦ ج ٥

(٤) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢



مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ودخلوا المدينة وهي أحد الحرمين وقتلوا أهلها وسفكوا دماءهم ، لم يفلح لها باب إلا أحرق مافيه ، حتى أن الإقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن ويخلخلهن من أرجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهم (١) (ج)

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبرا ، وإنما أرادوا بذلك تحقير أمر على وشيعته تأييدا لسلطانهم . ولهذا السبب أيضا لعنوه على المنابر ، وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . وأول من قتل صبرا في هذا السبيل حجر بن عدى الكندي في أيام معاوية (٢) وظلوا يلعنون عليا على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك

#### الغلاة والنبوة في رأى بعض العمال

وفق بنو أمية إلى عمال أشداء زادهم استبدادا وشدة ، بما توخوه

(١) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢

(ج) يلاحظ أن معظم هذه الاخبار التي روتها كتب التاريخ ظاهر الاختلاق والوضع ، وضعا في الغالب دعاء للأحزاب التي كانت تتصارع على السلطان ، ففي أثناء الصراع بين علي ومعاوية كثرت الدعاية من الجانبين ، ومن هنا حفلت كتب التاريخ باخبار غريبة تؤيد عليا تارة ومعاوية تارة أخرى ، وكان الأمويون امهر في الدعاية وأعرف بأساليبها ، وقد رأيناهم يقدون على الشعراء ليمدحهم ، وعلى رؤساء الناس ليؤيدوهم ، وعلى أهل العلم ليستكبروا عنهم ، ومن ناحية أخرى تلاحظ ظهور القصص وان صنع القصص يدونها في المجتمعات أصبحت عملا يتخصص فيه بعض الناس ، وقد أصبحت وظيفة القاص وظيفة رسمية يتقاضى صاحبها راتبا من خزانة الدولة ، ولم يكن عمل هؤلاء القصص مجرد حكاية أقاصيص التقي والورع ، بل حكاية الاخبار المؤيدة للدولة واصحابها واستنادها إلى كبار الرواة الموثوق فيهم ، ومن هنا كثرت القصص وامتلأت بها كتب التاريخ وشوهت بذلك حقيقة الحوادث . وقد كثرت خلال العصر الأموي القصص التي تظهر فضائل معاوية ومروان وعبد الملك بن مروان ومن اليهم ، فلما جاء العصر العباسي ، عمد المؤرخون والرواة إلى تعديل هذه القصص بما يوافق صالح الدولة الجديدة ، وحذف معظم ما وضع في مدح الأمويين من كتب التاريخ التي كتبت في الشرق أيام العباسيين ، ولم يبق فيها إلا ما يبرز مساوي الأمويين ويظهر فضائل العباسيين والعلويين . وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عما وضع من الأقاصيص في مدح بني أمية فلنقرأ العقد الفريد لابن عبد ربه ، فهذا كتاب وضعه مولى من موالى بني أمية الاندلسيين ، وكان حريصا على اظهار محاسنهم ومحاسن اسلافهم من الأمويين في المشرق . ونجد هذه الاخبار متواردة في معظم كتب التاريخ التي كتبت في الاندلس ، واظهر مثال لذلك أبو محمد علي بن حزم الذي يدافع عن الأمويين دفاعا عظيما وأبو بكر بن العربي الذي ذهب في كتابه « العواصم من القواصم » إلى درجة أنه أيد يزيد في قتله للحسين ابن علي رضي الله عنه

وتتضح هذه الظاهرة في كتاب في التاريخ لم ينشر بعد لعبد الملك بن حبيب الفقيه الاندلسي ، فقد ملأ كتابه هذا بفضائل الأمويين والتعصب لهم ، ولا شك أنه كانت في المشرق كتب كثيرة كهذه ، ثم اعدمت أو شوهت أيام العباسيين . وبديهي أن خيرا مثل هذا الذي نعلق عليه ظاهر الاختراع ، فليس بمعقول أن عبد الملك بن مروان خاطب المصحف بقوله يوم أنه الولاية : « هذا آخر المهديك ! » كأنه قد كفر بالاسلام وبالقرآن ، ولا شك أن الذي وضع هذا الخبر أراد هذا المعنى تقريبا به للعباسيين والعلويين

ومن أواسط العصر العباسي نجد في كتب التاريخ كلها نزعة شيعية ظاهرة ، حتى لو كان مؤلفوها من أهل السنة ، فقد كان الشعور العام أن امتداح علي وبنيه من أعمال التقي ، ونلاحظ هذا عند كبار المؤرخين وصغارهم ممن كتبوا بعد القرن الرابع الهجري ، نلاحظه عند ابن خلدون ولايمده وخاصة المقرئزي وابن حجر العسقلاني ، ونلاحظه عند السخاوي ومن تابعه . وقد ظل التعصب للعلويين غالبا حتى العصر الحديث

(٢) المسعودي ٣٩ ج ٢

من تمليقهم بالتعظيم والتفجير مما يخالف أحكام الدين . وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمي الخليفة « خليفة الله » ، وعظم أمر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة ، وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا » . واذا حابه أحد في ذلك قال : « أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به (١) واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس في مكة مرة فقال : « أيها الناس ، أيهما أعظم ، أخليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم ؟ » يعرض ان هشاما خير من النبي (٢) واقتدى بالعمال سائر الملقين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما أسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فسادا . وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا ان خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن ، فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك أيها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن ، وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد : « صدقت ، يرحمك الله ! » (٣) (\*)

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد ، سكير بنى مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها ( واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والتبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد ؟      فهذا أنا ذاك جبار عنيد !  
اذا لاقيت ربك يوم حشر      فقل لله : مزقنى الوليد ! (٤)

(١) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودى ١٠٤ ج ٢

(٢) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٢٠ ج ٥ والاغانى ٦٠ ج ١٩

(٣) الاغانى ٦٣ ج ١٩

(\*) واضح جدا ان هاتين الحكايتين موضوعتان ، ويلاحظ ان صاحب العقد روى الخبر المذكور عن الحجاج بن يوسف لانه كان - رغم مشايعته للامويين - يستبيح نقد رجالهم وعمالهم ، بل كان هو نفسه ساخطا على عمال بني أمية في الاندلس كثير الخلاف والنقد لهم . وقد وجدت الخبر الذي يورده المؤلف في طبعة لجنة التأليف من العقد ( ٣٥٤/٣ ) هكذا بعد ان روى اخبار اربعة من حادوا عن الدين وتقرب الحجاج الى الله بقتلهم :

« وقال ناقل الحديث : ونسى الحجاج نفسه ، وهو خامس هؤلاء الاربعة ، بل هو أشدهم كفرا وامظهم الحادا حين كتب الى عبد الملك بن مروان .. وكتابه اليه : ان خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم ، وكذلك الخلفاء يا امير المؤمنين املئ منزلة من المرسلين »

(٤) الاغانى ١٢٥ ج ٦ والمسعودى ١٢٤ ج ٢

فلم يكن يهم بنى أمية نشر الاسلام ، وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه ، وانما نفرهم منه شدة بنى أمية وجشعهم، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعا لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع ، وسار على خطوات سميح ابن الخطاب، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام (١)

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل أبناء على وصلبهم والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبورا ، واكثرهم اقداما على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف

### الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في أيام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة أو عنف ، ولا يحيدون عن الحق في أعمالهم أو اقوالهم . اذا اذنب أحدهم اعترف بذنبه وأنزع لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث أو نقض أو حيلة، ولا تنفيذها يفتقر الى شدة أو عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ أو اللوم ، واذا أخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو أيضا وضع الحرس (٢) لقلة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغرا ، مع علمه أنه لو امتنع عن المجيء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيسجن مطيعا . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفا من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لا يزالون في أريحياتهم وانفتهم ، وقد أطلق معاوية السننهم بحلمه وسعة صدره ، خاف العمال أن يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق ، زعم أنه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه أسرف وتجاوز الحد . وهو أول من شدد

(١) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥ (٢) القريزي ١٨٧ ج ٢

أمر السلطة وأكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة (١) وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية ، وفي أيامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة ، وقد تقض بيعة يزيد وحمل على العراق ، فكتب يزيد إلى ابن زياد : « احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك » (٢)

ولما أفضت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، أراد الحجاج أن يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف ، فبالغ في ذلك حتى أهلك ودمر (٣) ولم يكن الحجاج أشد وطأة من زياد أو ابنه ، ولكن زيادا كان يزجره حلم معاوية ، وابن زياد يزجره أمر يزيد أن لا يقاتل إلا من قاتله . وأما الحجاج فقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة ، فأكبر المسلمون ذلك وتقموا على تلك الدولة ، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن أقوال الخوارج فيهم : « ان بنى أمية فرقة بطشهم بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » (٤)

#### بسر بن أرطاة وقتل الاطفال

على أن سياسة بنى أمية كانت من أول أمرها مبنية على الشدة والحزم ، على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على أعدائهم . فكانوا يطلقون أيدي عمالهم في الأحكام ، يقتلون ويصلبون على ما يترأى لهم بدون مشورة الخليفة ، مع أن ذلك لم يكن جائزا في أيام الراشدين ، لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في أطراف المملكة ، وهذا الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يرجع إليه في أيام خلافته فلم يفسح له الاجل (٥) فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك إلى عماله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل من الشدة والبطش (٦)

فكان الخلفاء من بنى أمية يرون في اطلاق أيدي عمالهم أو قوادهم تشجيعا لهم وتنفيذا لأغراضهم . وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة ، حتى في أيام معاوية ، فانه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلى بن أبي طالب يومئذ حتى وأرسل معه جيشا . ويقال انه أوصاهم أن يسيروا في الأرض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ، ولا يكفوا أيديهم عن النسيء

(١) ابن الأثير ٢٢٨ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٨ ج ٤  
(٣) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٢  
(٤) البيان والتبيين ١٩٥ ج ١  
(٥) ابن الأثير ٢٩ ج ٥ (٦) العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢

والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها أناسا من أصحاب على وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل على وابن عمه ، وكان غائبا فرارا من القتل ، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وذبحهما بيده بمدينة كانت معه (١) . وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما أراد بسر قتلهما قال الكنانى : « تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلها فاقتلنى معها » فقتله وقتلها معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين ؟ والله ما كانوا يقتلون فى الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن أرطاة ان سلطانا لا يقوم الا يقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت أم الصبيين شعرا فى رثائهما كانت تنشده فى المواسم مطلعها :

يا من أحس بابنى اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضيا عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاءه وحلمه ، ونظنه أطلق يد بسر ولم يعين له حدودا ، وكان بسر سفاكا لندماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا . ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن أبيه بعد موت على ، اذ خاف معاوية زيادا وكان عامله على فارس فأمر بسر أن يستقدمه اليه ، فأمسك بسر أولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتى حالا او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرا من قتلهم (٢)

فاذا كان هذا حال العمال فى أيام معاوية مع حلمه وطول أناته ، فكيف فى أيام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبورا ولو كانوا ١٢٠.٠٠٠ وهل يستبعد أن يكون فى حبسه عند موته ٥٠.٠٠٠ رجل و ٣.٠٠٠ امرأة ؟ (٣) وكان عبد الملك أشد وطأة منه وأجرا على الغدر والفتك ، بل هو أول من غدر فى الاسلام بعد أن أعطى الأمان - وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد أمراء عبد الملك طمع فى الملك لنفسه ، فاعتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ لحرب مصعب ابن الزبير فى العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو فى الطريق ، فرجع حالا الى دمشق وقاتل عمرأياما فلم يقدر عليه ، فخاف على سلطانه فاحتال فى عقد الصلح فرضى عمرو وكتبا بينهما كتابا فيه أمان عبد الملك له . فاطمان خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الحليفة حتى

(١) الاغانى ٤٤ ج ١٥ (٢) ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٣

(٣) السمعودى ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢

أوطأ فرسه أطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل الى عمرو فأجابه أنه آت العشية ، وأتاه في مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بنى مروان ، وقد بقي مواليه خارجا . فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ، ثم أمر أحد الغلمان أن يأخذ سيفه وقال له : « أطمع أن تجلس معي متقلدا سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا أبا أمية ( عمرو ) انك حينما خلعتني آليت بيمين ان أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة » فقال له الحضور من بنى مروان : « ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية ؟ » . فقال بنو مروان لعمرو : « أبر قسم أمير المؤمنين » ، فقال : « قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين » . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم فاجمعه فيها » ، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو : « أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس » ، فقال : « أمكر يا أبا أمية عند الموت ؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبه جذبة فوق وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو : « اذكر الله يا أمير المؤمنين ، كسر عظم منى فلا تركب ما هو أعظم من ذلك » ، فقال عبد الملك : « والله لو أعلم أنك تبقى على لو أبقيت عليك وتصلح قريش لا طلقتك ، ولكن ما اجتمع رجالان في بلدة قط على ما نحن عليه الا أخرج أحدهما صاحبه » . فلما رأى أنه يريد قتله قال : « أغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك (١)

وترى مما دار بينهما أن الذي جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين في السلطة ، ولا رادع لهم من عند أنفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى ، فأصبح القوى يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهي سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن ملك بعدهم من بنى العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد على باشا بالماليك ، وقد عمد بنو أمية الى ذلك استعجالا للنصرو تخلصا من أسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله ، لعلمهم أنه اذا قتل تفرق أصحابه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال أو نحوها

#### خزاة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم اربابا لأحزابهم ، فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد أو يصلبونه الجثة حيث تزدحم الاقدام - كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الأحزاب ولا سيما العلويين ،

فكان العامل الأموي يقتل الخارج على الدولة ويبيعت برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر ابن الحمق الخزاعي (١) احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن أبي بكر (٢) وأول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانيء وابن عقيل من أشياع الحسين في الكوفة ، ثم رأس الحسين بن علي ، أرسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام ، وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه أرسلها الى محمد بن الحنفية (٣) . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه ، فانه أرسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها (٤)

ومن غريب ما يحكى أنهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس في طاق بالكوفة ، كان ابن عمير اللخمي حاضرا عنده ، فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « أعين بالله أمير المؤمنين ! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن أبي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشام عبد الملك من ذلك ، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق (٥)

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني أمية ومن جاء بعدهم من بني العباس ، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها : كل رأس في سفظ خاص (٦) وجرت العادة أيضا بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج (٧) ويطوفون بها على رمح ، وكان بنو أمية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا أحدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب أعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب أنه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبه قصبه حتى يقطع جسده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت (٨) فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الأشعث اربابا لسواهم . وكان الخوارج

(١) المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٢٥ ص ٢٤١  
(٢) المقد الفريد ٣٩ ج ١ (٣) ابن الأثير ١١٩ ج ٤  
(٤) ابن الأثير ١٦٢ ج ٤ (٥) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١  
(٦) الفخرى ٢٤٨ ج ٢ (٧) المقد الفريد ٢٧٢ ج ٢  
(٨) المعارف ١١٥

أيضا يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من أعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور (١) إما اشتفاء أو انتقاما أو ارهابا

### الموالى وأحكامهم في عصر الأمويين

#### تكاثر الموالى

أنقضت الخلافة الى الأمويين في أواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالى أخذ في الزيادة بموالة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر أو الإهداء • لأن العمال كثيرا ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض والأسود الى بلاط الخليفة هدية أو بدلا من الحراج أو نحوه (٢) والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته أو قواده ، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم أو يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو اعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادى يومئذ - غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره • فتزايد عدد الموالى في عصر الأمويين زيادة عظيمة ، وصاروا يتقربون من مواليتهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ، فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية أو الزراعية أو الدينية أو العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان أكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالى

وقد يثرى المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليتهم ، وهؤلاء اذا استطاع أحدهم أو بعض أولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليتهم ، وهكذا حتى يتفق أحيانا أن يكون الرجل مولى مولى ، أو مولى مولى مولى أو أكثر - فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن أنس الفهرى • وكذلك حماد بن سامة، والليث بن سعد ، وأبو أسامة وغيرهم • وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن أبي بكر ، وعبيد الله من موالى النبی ( صلعم ) (٣) • وأغرب من ذلك أن عبيد الله هذا ادعى أنه عربي من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان أنه عربي من تميم ، وادعى ابن مناذر أنه عربي من بني جبير بن يربوع ، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعيا لمولى مولى مولى مولى ، وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار وأخوته من أهل الحديث ، وكلهم من موالى آل حنن ، وآل حنين موالى مثقب ، ومثقب مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب (٤) فهو مولى مولى مولى مولى مولى • وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالى

(١) المسعودي ١٢٢ ج ٢ (٢) المسعودي ٣٥٤ ج ٢  
(٣) الأغانى ٩ ج ١٧ (٤) المعارف ١٩٧



فى ذلك العصر ، وفيهم الفارسى والفرغانى والتركى والديلمى والحراسانى والرومى والبربرى والسندى وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب

ناهيك بالموالى المحاربين ، فقد كان فى كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ، ربما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا فى سبيل نصرتها . واختلف عدد الموالى بالنسبة الى مواليهم باختلاف الاعصر ، ففى أيام على كانت نسبة الموالى الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة (١) ثم تكاثر الموالى فى عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار . وبنو أمية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم الى أطراف المملكة . ومن فر من جور بنى أمية ميمون جد ابراهيم الموصلى المغنى المشهور (٢)

#### نقمة الموالى على العرب

فلما تكاثر الموالى ورأوا ماكان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم - ولاسيما الموالى ، حتى كانوا يستخدمونهم فى الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئا من الغنائم أو الفىء - عظم ذلك عليهم ، ورأوا فى نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بنى أمية ، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج . فكل من قام لمحاربة الامويين استعان عليهم بالموالى والعبيد ، وهم الفئة المظلومة . وأشهر من حاربهم بالموالى والعبيد المختار بن أبى عبيد الذى قام فى العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية - فالمختار المذكور أطمع موالى العراق فى الغنيمة وأركبهم على الدواب ، وكانوا ناقمين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من أباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بنى أمية . فكان عدد الموالى فى جند المختار أضعاف عدد الاحرار (٣) وقد أبلوا فى الحرب معه أكثر من بلاد الاحرار ، لنقمتهم على أسيادهم . ولذلك كان أكثر القتلى فى تلك الحرب من الموالى ، فقد بلغ عدد قتلهم فى معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ ، وسأثرهم من الموالى (٤) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون : « انك أذيتنا بمواليك ، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيثنا » فأجابهم : « ان أنا تركت مواليكم ، وجعلت فيثكم لكم ، تقاتلون معى بنى

(١) ابن الاثير ١٧٣ ج ٢ (٢) الاغانى ٢ ج ٥  
(٣) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ (٤) ابن الاثير ١٣٦ ج ٤

أمية وابن الزبير ، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن اليه من الايمان ؟ فلم يرضوا . والمختار أول من جند الموالى وفاز بهم ، فجراهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا أعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهما ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم أبلغها سليمان الى ٢٥ ، وجعلها هشام ٣٠ (١) على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالبا بلا عطاء ولا رزق (٢)

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيدته ثقة فيه ، حتى خلفاء بنى أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليتهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في أمورهم ، والموالى يخلصون لهم ويستमितون في الدفاع عنهم ، كما كان موالى بنى هاشم يستमितون في نصرته مواليتهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين ، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من أصل رفيع ، أو يرتقى آل أعلى المراتب ، حتى في أيام بنى أمية رغم اضطهادهم وتعصبتهم عليهم ، وأعظم موالى العراق وأشهرهم فيروز مولى أهل الحشاش ، فانه ولى الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءنى برأس بالحجاج فله ١٠٠.٠٠٠ درهم » فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد أن عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه (٣) (\*)

(١) العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥

(٣) المعارف ١١٥

(\*) لا زالت سياسة الامويين مع الموالى في حاجة الى دراسة ، فقد بالغ المؤرخون في القول بظلمهم واحتقارهم أيام مبالغة ينكرها الواقع ، فقد كان الكثيرون من رجال بنى أمية من الموالى ، ومثال ذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الاندلس ، فقد كانا موليين . وكان لكل خليفة من خلفاء بنى أمية طائفة من مواليتهم تخدمه وتخلص له ، فهناك موالى عبد الملك وموالى هشام والوليد وسليمان اولاده ، وكلهم كانوا مخلصين لهم متمسكين بولائهم . وعندما زالت دولة بنى أمية في المشرق كان مواليتهم هم الذين اقاموا دولتهم في الاندلس بسواعدهم واخلصوا لهم اخلاصا عظيما . وكان بنو أمية الاندلسيون يقدرون مواليتهم ويثقون فيهم أكثر مما يثقون في رجالهم من العرب . فلو أن سياسة بنى أمية مع الموالى كانت بهذا السوء الذى يصفه المؤرخون لما اخلص الموالى لهم هذا الاخلاص . والحقيقة أن هذه الصورة التى لدينا عن سياسة الامويين مع الموالى ترجع الى العصر العباسى ، وهى جزء من دعاية العباسيين ضد الامويين ، وقد ناقش هذه الناحية مناقشة موجزة - ولكنها عميقة - يوليوس فلهاوزن في كتابه عن الدولة العربية وسقوطها ، في فصل « عمر بن عبد العزيز والموالى » ، وهو فصل حقيقى بأن يراجعه كل معنى بدراسة تاريخ الدولة الاسلامية ، وخاصة بعد ان ظهرت ترجمتان مريتان لهذا الكتاب القيم ، الاولى في دمشق قام بها الدكتور يوسف العث والثانية في القاهرة قام بها الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده ، وقد راجعتها . والدراسة التى نشرها الاستاذ عبد الوهاب النجار بعنوان « الموالى في عصر بنى أمية » في حاجة الى مراجعة واستدراك ، لانه جرى فيها على أسلوب الاصول العربية القديمة دون تمحيص كثير

## زواج الموالى بالعربيات

على أن الموالى فى أيام بنى أمية كانوا على الاجمال أعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاما لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الامويون تحقيرا لهم • فبعد أن قال النبی : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات ، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام (١) فإذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالى طلقها منه ، كما حدث لاعرأب بنى سليم فى الروحاء ، فانهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض موالىها إحدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضهم الى والى المدينة بذلك ، ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجى فى ذلك بعد مدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

حمى حدا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليد
وفى المثنى للمولى نكال	وفى سلب الحواجب والحدود
إذا كافأتهم بنات كسرى	فهل يجد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى	من اصهار العبيد الى العبيد ؟ (٢)

وكثيرا ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالى ، ولو كانوا من أهل المنزل الرفيعة أو أهل العلم والتقوى ، فان عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبى بردة بالسياط (٣)

على أن ذلك المنع كان شائعا قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره • فسلمان الفارسى نصر المسلمين فى حروبهم من أيام النبى ، وله فضل كبير فى الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لأنه لم ير فى زواجه بها بأسا ، أما ابنه عبد الله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له : « هنيئا لك يا أبا عبد الله ، ان أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه أبدا » (٤)

فتزويج المولى بالعربية بالغ الامويون فى تقبيحه تعصبا للعرب على سواهم ، وهو عندهم اقبح من زواج العربى بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرما فى الدين ولا اعتبره أهل التقوى ، فعلى بن الحسين بن على المعروف بزين العابدين - وهو أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات التابعين - كانت أمه سلامة بنت يزدرجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفى أبوه زوجها

(١) السعوى ١٩٦ ج ١ (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١٤  
(٣) المعارف ١٦٧ (٤) المقد الفريد ١٣٢ ج ٣

بشريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، وقد اعتق رسول الله صفية بنت حيى بن اخطب وتزوجها ، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش »

فالاسلام يرفع منزلة المولى ، واما الامويون فراوا تحقيره باعتباره غير مربى ، وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة المولى . ومن اشعارهم في رجل من بنى عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالى قول ابي بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى ومنهم الزارع والتاجر قال :

امن قلة صرتم الى أن قبلتم واصهب رومى واسود فاحم  
شكولهم شتى وكل نسيبكم  
متى قال انى منكم فمصدق  
اكلهم وافى النساء جدوده  
وكلهم قد كان فى أولية  
على علمكم أن سوف ينكح فيكم  
فهلا اتيتم عفة وتكرما  
تعيون امرا ظاهرا فى بناتكم  
متى شاء منكم مفرم كان جده  
وحصن بن بدر أو زراة دارم  
فقدصرت لأدرى وان كنت ناسيا  
وعل رجال الترك من آل مذحج  
وعل رجال العجم من آل عالج  
زعمتم بأن الهند أولاد خندف  
وديلم من نسل ابن ضبة باسل  
بنو الاصفر الاملاك أكرم منكم  
أظمع فى صهرى دعيا مجاهرا  
ويشتم لؤما عرضه وعشيرته

دعارة زراع وآخر تاجر ؟  
وابيض جعد من سراة الاحامر ؟  
لقد جئتم فى الناس احدى المناكر  
وان كان زنجيا غليظ المشافر  
وكلهم أوفى بصدق المعاذر  
له نسبة معروفة فى العشائر  
فجلدنا ورغما للأنوف الصواغر  
وهلا وجلتم من مقالة شاعر ؟  
وفخركم قد جاز كل مفاخر  
عمارة عيس خير تلك العمائر  
وزبان زيان الرئيس بن جابر  
لعل تجارا من هلال بن عامر  
وعل تمينا عصابة من يحامر  
وعل البوادرى بدلت بالخواضر  
وبينكم قريى وبين البرابر  
وبرجان من أولاد عمرو بن عامر  
وأولى بقربان ملوك الاكاسر  
ولم تر شرا من دعى مجاهر ؟  
ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

وغرس هذا الاعتقاد فى اذهان الناس حتى ان الموالى انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية . ذكروا ان ابنا لنصيب الفنى الشهير - وهو مولى - أحب بنت مولاة وكان مولاة قد مات ، فخطبها من أخيه فاجابه

الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحى فلما حضروا أقبل نصيب الى أخى مولاة وقال له : « أزوجت ابنى هذا من ابنة أخيك ؟ » قال : « نعم » ، فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا يرجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضربا مبرحا » ففعلوا ، ثم قال لأخى مولاة : « لولا انى اكره اذاك لالحقتك به » . ثم نظر الى شاب من أشرف الحى فزوجه الفتاة ، وأنفق على العقد من جيبه (١)

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاة ، فإذا أحب رجل أن يخطب فتاة من بنات الموالى لا يذهب الى أبيها ولا الى أخيها وإنما يخطبها من مواليتها ، فإن رضى مولاها زوجت والا فلا . وان زوجها الأب أو الأخ بغير رأى مواليتها فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحا (٢)

وجملة القول ان تعصب بنى أمية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصا الموالى ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين فى اخراج الدولة من أيديهم

### أهل الذمة واحكامهم فى عصر الامويين

#### عهود أهل الذمة فى أول الاسلام

الذمة فى اللغة العهد والامان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « أهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرا (١) . وفى الحديث النبوى أقوال كثيرة

(١) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢  
 (\*) يتجه كثير من آيات القرآن الكريم الى التقريب بين المسلمين والنصارى كقوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » ( المائدة ٨٢ ) وقد كان موقف النصارى من الاسلام على عهد الرسول موقف حياد ، بل تأييد فى بعض الاحيان ، ومال نصارى جزيرة العرب الى الدخول فى الاسلام وانتهى أمرهم بالدخول فيه جميعا . أما اليهود فكان له منهم موقف آخر : بدأوا بعداء الاسلام والانضمام الى قريش طوال الفترة المكية ، فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة بدأوا يصانعونه ، وأراد الرسول ان يطمئنهم فمقد معهم الكتاب المشهور الذى أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ومصالحهم ، ولكنهم بدأوا يتخرون عليه ، وقد عرف انهم يدبرون عليه ويؤاذرون أعداءه ويصانعونه على دخن ، ولكنه تركهم أملا فى تغيير قلوبهم ودخولهم فى الاسلام . فلما كانت غزوة الخندق انتقلوا على المسلمين وأكثروا أعداءهم ملأية ، فلم يكذ الاحزاب ينصرفون حتى اعلن عليهم الحرب وبدأوا باجلائهم عن المدينة . وموقف القرآن الكريم منهم خلال الفترة المدنية على العموم موقف عداء صريح ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ( البقرة ١٢٠ ) ، وقال : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » ( المائدة ٦٤ ) وقال : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ( المائدة ٨٢ ) . ولكن الشرع ساوى بينهم وبين النصارى فى المعاملة واعتبرهم جميعا أهل كتاب ، وأضفت عليهم الدولة الاسلامية حمايتها وعاشوا فى ظلها فى امان . فبينما كانت أوروبا تضطهدهم كان لهم فى العالم الاسلامى مكانة وثروة ، وكان اليهود يهاجرون من نواحي أوروبا الى بلاد الاسلام هربا من الاضطهاد هناك ، وخاصة الى الاندلس حيث كانوا ينعمون بكل طمأنينة . ولولا ذلك لباد اليهود من الارض ، ومع ذلك ، فلم تكد أحوالهم تتحسن فى العصر الحديث حتى انتقلوا على المسلمين وأعلنوا عليهم حربا شعواء بلغت ذروتها فى مأساة فلسطين .

بمحاسنة أهل الذمة ، وخصوصا قبط مصر ، فقد رووا عن النبي ( صلعم ) انه قال : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى أن أم اسماعيل أبى العرب منهم ، وقال : « الله الله في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا »

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفلدوا جيشا للفتح اوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرا ، ولا سيما النصارى وروهبانهم . واذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضى بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضى على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع (١)

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي ( صلعم ) الى صاحب ايلة ( في العقبة ) والى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة . وهاك كتاب النبي ( صلعم ) الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد رسول الله ليحيى ابن رؤبة وأهل ايلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » (٢)

وهاك كتابه الى أهل أذرح وأهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بنى حبيبة وأهل مقنا : سلم أنتم ، فانه أنزل على أنكم راجعون الى قريبتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريبتكم الا رسول الله أو رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيركم مما يجير منه نفسه ، فان لرسول الله بزركم ورقيقكم والكراع والحلقة ، الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله ، وان

عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وإنكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن أئتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن أظلمهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم أمر إلا من أنفسكم أو أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب على بن أبي طالب في السنة التاسعة « (١) » (\*)

واقتمدى بالنبي (صلعم) قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية - منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق : إذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء المؤمنين ، لا يعرض لهم ألا بخير إلا إذا أعطوا الجزية » (٢)

واليك صورة عهد أبي عبيدة إلى أهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم ، وأهل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم ، وللروم أن يرعوا سرهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فإن مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والحراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا » (٣)

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وغيرهما ، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وأفريقية والاندلس وغيرها ، على أنهم كانوا يشترطون في الجزية أن يؤديها أهل الذمة عن يد وهم صاغرون (\*\*\*)

أما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٦٠

(\*\*) في النسخة التي تراجع عليها : « سنة تسع »

(٢) البلاذري ١٢١ (٣) البلاذري ١٣٠

(\*\*\*) المراد بمباراة « من يد » أي يعطون الجزية بأنفسهم ولا يرسلونها ، أما « صاغرون » فمعناها « وهم على الطاعة » . وخلاصة الآية كلها أنه لا يجوز لهم أن يخرجوا على الطاعة ويعتصموا ببلدهم ثم يرسلوا الجزية

التي فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، وصلح الشام غير صلح العراق

### العهد النبوية

وبين ايدي الناس نسخ من عهد يقولون أن النبي (صلم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهد النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصا وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط على بن أبى طالب ، ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الادبار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طورسينا ، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في أوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد أن عرضها على مجلس شرعى ، فنقلوها الى اللغة التركية ، وأبقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربى مع عهدود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد ، وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة (١) - واليك نص العهد النبوية نقلا عن كتاب «منشآت سلاطين» لأفريدون بك بعد البسملة : (٢)

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس أجمعين ، رسوله مبشرا ونذيرا ومؤمنا على ودیعة الله في خلقه ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ، كتبه لاهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية ، من مشارق الأرض ومغاربها قريبا وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهدا فمن نكث العهد الذى فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما أمره ، كان لعهد الله ناكثا وليشاقه ناقضا وبدينه مستهزئا وللعنته مستوجبا ، سلطانا كان أم غيره من المسلمين - وان احتفى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو يبعة ، فانا أكون من ورأئهم أذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسى وأعوانى وأهلى وملتى وأتباعى ، لأنهم رعيتى وأهل ذمتى وأنا أعزل عنهم الاذى فى المؤمن التى يحمل أهل العهد من القيام بالخراج (\*) الا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك ، ولا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم فى بناء مساجد المسلمين ولا فى بناء منازلهم ، فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر فى

(١) الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة (٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطر كخانة) (\*) نظن أن الاموب هنا : من بعد القيام بالخراج



المشرق أو المغرب والجنوب والشمال ، وهم في ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم ، ولا يعاونون عند ادراك الفلة ، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية ، ولا من أصحاب الخراج وذوى الاموال والعقارات والتجارات مما هو أكثر من اثنى عشر درهما بالجملة في كل عام ، ولا يكلف أحد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتى هى أحسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا - وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليةا برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ، ولا يحال بينها وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد أبدا الى حين تقوم الساعة وتنقضى الدنيا » اهـ

والغالب في اعتقادنا أن النبى (صلعم) اذا كان قد اعطى عهدا للنصارى والرهبان عموما فهو غير هذا العهد ، أو لعله كان مختصرا وطولوه ، أو تنوسى وضاع أصله فكتبوه من عندهم ، أو أن النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسى ، اذ لم يذكر خبر هذا العهد أحد من مؤرخى الفتوح أو غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى ، فضلا عما في عبارته والفاظه مما لم يكن معروفا في صدر الاسلام وخصوصا في السنة الثانية للهجرة

#### عهد عامر

ويذكرون أيضا عهدا يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، أشار إليه غير واحد من مؤرخى المسلمين ، وقد أورده بعضهم بنصه منهم أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، أورده في كتاب « سراج الملوك » نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الاشعرى المتوفى سنة ٧٨ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : ( بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة ( كذا ) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا الا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها دبرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشا للمسلمين ، ولا

نعلم اولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه احدا ، والا نمنع احدا من ذوى قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد ، وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر . وأن نجزم مقام رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنايم على أوساطنا ولا نظهر صلبانا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائنا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم ( فلما أثبت عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولانضرب احدا من المسلمين ، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمننا على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق ) فكتب اليه عمر ( امض ماسألوه والحق فيه حرفين أشرت بهما عليهم مع ما شرطوه على أنفسهم : أن لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده » اهـ (١) (✽) ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر أيضا ، وذلك أنه أمر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من أن تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه (٢)

وترى في نص هذا العهد ضغطا على النصارى وتصفيرا لهم ، خلافا لما جاء في سائر عهود الامان أو كتب الصلح في صدر الاسلام ، وخلافا لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل ، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمر : «يا عمرو مذكم

(١) سراج الملوك ٢٨٣

(✽) ظاهر ان هذا النص موضوع ، وضع بعد ايام عمر بن الخطاب بزمن طويل ، وقد أثبت نفر من المستشرقين ذلك . وأبسط دلائل وضعه أنه لم يروه الا أبو بكر الطرطوشي في «السراج» ، والطرطوشي من أهل القرن السادس الهجري ومن طرطوشة بشمال شرقي الاندلس ، وهو يستند الى عبد الرحمن بن غنم وهو من أهل القرن الهجري الاول ، وهو الذي فتح أقصى شمالي الشام وأرمينية ، وما بين الطرطوشي وابن غنم كثير في الزمان والمكان

(٢) سراج الملوك ٢٨٦

تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » (١)

فنرى لأول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر الى الذهن أنه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر أولا في صحة نسبته الى عمر ، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه

### نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام ، ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الأقل ، وسبب هذا الترجيح :

١ - أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصلى بطريق الاسناد ، فالطرطوشى وان كان من أهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوى الاصلى ، على عادة المؤرخين المحققين في أوائل الاسلام ، مما يدل على أنه نقله من كتاب قديم

٢ - ان « سراج الملوك » الذى اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاكة ، ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس ، صاحب ابا الوليد الباجى واخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبى بكر الشاشى وعلى أبى احمد الجرجانى ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماما فقيها عالما زاهدا ورعا . وكان مع ذلك متعصبا على النصارى يرى تحقيرهم ، وانفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بمصر وبجانبه الافضل رجل نصرانى فوعظ الافضل حتى بكى ثم انشد :

يا ذا الذى طافته قرية      وحقه مفترض واجب  
ان الذى شرفت من أجله      يزعم هيدا أنه كاذب

وأشار آلى النصرانى فأقامه الفضل من موضعه (٢) ولعل تعصبه هذا حمله على اثبات هذا العهد في كتابه ، مع رغبة أكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال أن الطرطوشى وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب

٣ - ان أكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من أحكام أهل الذمة ، كما وردت في هذا العهد بمعناها الخرفى تقريبا (٣) وأكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشى . ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة ،

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١  
(٣) الهداية ٥٧٤هـ

وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحة وأورد بعض نصه . فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (أى قبل الطروشى بخمس وسبعين سنة ) بباب الجزية والحراج قوله : « وإذا صولحوا - النصارى - على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام لا يزدون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن - الى أن قال - ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، أما المستحق فستة شروط :

- ١ - أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له
- ٢ - أن لا يذكروا رسول الله «صلعم» بتكذيب له ولا ازدراء
- ٣ - أن لا يذكروا دين الاسلام بدم له ولا قدح فيه
- ٤ - أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم تكاح
- ٥ - أن لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه
- ٦ - أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا أغنياءهم

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيذا لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم وأما المستحب فستة أشياء :

- ١ - تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار
- ٢ - أن لا يعلوا على المسلمين في الابنية
- ٣ - أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم
- ٤ - أن لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم
- ٥ - أن يخفوا دفن موتاهم
- ٦ - أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا الخ (١)

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفيا بعد الترتيب والتبويب

فالعهد المذكور كان معروفا قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك أن ابن الأثير أشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وينسبه الى عمر ، كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ : « وأخرج توقيع الخليفة بالزام أهل الدمة بالغيار ولبس ماشرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (٢)

٤ - ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهود أهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزى ونحوه ، مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول، وأقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقى المشهور باقتفائه آثار سمييه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، وهو أول خليفة أموى أراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد أغفلوا أكثر شروطه وخصوصا من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فأمرهم ان يضعوا العمامم ويلبسوا الأكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى ، فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى (\*)

### عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولابد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

#### مناقب عمر بن الخطاب

أظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييده ونشره ، فقد كان عادلا حتى لا يبالي أن يحكم على ابنه أو على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال

(\*) تطورت معاملة أهل الذمة مع الزمن تطورا عظيما ، ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى الكتاب الذى كتبه مع اليهود ، كان هؤلاء الآخرون معتبرين مساوين للمسلمين حلفاء للامة الاسلامية ، وفي العهد الذى كتبه الرسول لأهل نجران ضمن لهم حرية العقيدة في مقابل جزية يؤدونها ، وفي السنة التاسعة للهجرة تقرر ألا يبقى في جزيرة العرب إلا المسلمون ، وأصبحت الشروط الخاصة بأهل الذمة جارية على من هم خارج الجزيرة ، وجرى أبو بكر وعمر على سنتن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد نعم النصارى واليهود بكل ما كان ينعم به المسلمون فيما عدا جزية الرسوم ، ولم يشترط عمر عليهم الا عدم بناء كنائس جديدة في أرض المسلمين ، ولم يعرف لهم في عهده أو عهد بنى أمية ملابس خاصة أو مركب خاص ، بل كان في بلاط الأمويين عدد كبير من النصارى يتمتعون بمكانة عظيمة ، منهم الاخطل الشاعر وبوحناء الدمشقى وغيرهما . وقد بدأ الوضع يتغير خلال العصر العباسى ، وكلما اضطرب أمر الدولة زادت القيود الموضوعة على النصارى ، وكلها من تشريع الخلفاء والفقهاء ، دون مستند صريح من سنة الرسول والراشدين ، حتى اذا وصلنا الى أيام الماوردى ، في أواخر القرن الخامس الهجرى ، كان التضييق قد بلغ حدا عظيما ، وقد زاد بعد ذلك على أيام السلاجقة والأتراك والمماليك ووضعت عهود نسبت الى السلف ، ورويت أحاديثا موضوعة تتناقض مع تسامح الاسلام ولم يدرس الموضوع أحد من مؤرخى المسلمين الحديثين ، ولكن كثيرا من المستشرقين كتبوا فيه ، أهمهم Tritton في مقالات كتبها في المجلة الشرقية الملكية سنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣١ ، وقد ترجمها الدكتور حسن حبشى ونشرها في كتاب عنوانه : «أهل الذمة في الاسلام» ، وينفى ان نلاحظ ان تريتون نفسه أضله من رجال الدين ولا يخلو من تعصب على الاسلام وأهله . وقد قلنا ان النص النسوب الى عمر بن الخطاب موضوع ، ويقلب انه وضع في أوائل القرن الثالث الهجرى ، لانا لا نجد إشارة اليه قبل ذلك ، ومن الغريب أننا لانجده عند البلاذرى والطبرى أو ابن الأثير ، ولهذا نستطيع القطع بأن كل ما في الأصول من إشارات الى عهد عمر أو معاملة عمر موضوع ولا أساس له .

المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع احد منهم أن يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها ، فلا يعمل عملا او يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضى عليه أن ينصف أهل الذمة ويحاسبهم، ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرية الدين في مملكته ، وابقى أهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقسوسهم وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها . والعدل قضى عليه أن يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم أن لا ينصروا أولادهم (١) فعوى عهد عمر :

وفحوى العهد المذكور يرجع الى أربعة شروط أولية وهى :

- ١ - ألا يحدث النصارى معبدا
  - ٢ - أن ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام
  - ٣ - ألا يؤووا في كنائسهم جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين
  - ٤ - ألا يقتلوا المسلمين بشيء من اللباس أو الركوب أو تعلم القرآن أو نقش اسمهم بالعربية على اختتامهم
- وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم أمان على انفسهم وذرايعهم وأموالهم فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم والشرط الثانى تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين أهل الذمة ، والعرب أهل ضيافة ولم يكن أهل تلك البلاد يالفون تلك العادة، فجعلها عمر شرطا واجبا عليهم رحمة بالمسلمين في أسفارهم للحرب وغيرها (\*\*)

(١) المعارف ١٩٣ والبلادى ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢  
 (\*\*) نزول الجنود على أهل البلاد وعيشهم على نفقتهم تقليد مسكرى قديم مجحف بالناس ، فقد كان جند الرومان مثلا اذا نزلوا بلدا استحلوا دخول بيوته وارغموا أهله على اطعامهم واطعام دوابهم ، وكانوا يسمون ذلك « ضيافة » ، Hospitalitas ، وكان الجنود ينهبون هذه الفرسة ويبرهقون الأهالى بعتاليتهم من الطعام وما اليه . وقد حاول أباطرة الرومان أن يحددوا الضيافة بثلاثة أيام وبأنواع معينة من الطعام فلم يستطيعوا أن يحملوا الجند على ذلك . وعندما غزا الجرمان أراضي الدولة الرومانية استغلوا حق الضيافة وقاسموا الأهلى أموالهم وأملأهم على أساس الثلث للجرمانى والثلث للرومانى ، وظل ذلك مرقا مقفرا للمحاربين في أوروبا طوال العصور الوسطى ، وكان يعرف بحق الإيواء droit de gîte ، أما في المصطلح الاسلامى فيعرف بالنزلة ولم يقرر المسلمون لجنودهم حق النزلة على أيام الراشدين ، بل لم نسمع عنه أيام بنى أمية ، ومن هنا فائنا نستبعد أن يكون هذا العهد قد كتب في أيام عمر ، ويلاحظ أن تحديد النزلة بثلاثة أيام واعفاء الناس من تقديم أصناف معينة للجنود كاللجاج وما اليه ، واعفاءهم من تقديم شعير للدواب ، كل ذلك كان من صالح أهل البلاد وحماية لهم من الجند ، وقد وضع في زمن متأخر على كل حال .

أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقهما على أخلاق عمر من مقدمة صغيرة . . .

### نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر أهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسرى على قبط مصر أو نبط العراق ، ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ، والا فلماذا لم يجعله عاما على سائر بلاد الاسلام ؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من أهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا (١) آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضيق وإنما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية في أكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته أكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطى عمر لأهل الذمة عهدا بهذا المعنى ، لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم

أما العهد الذي نحن بصددده فقد أعطى لنصارى الشام على الخصوص ، وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب في اعتقادنا أنه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمسامي أهلها النصارى ، اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين ، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهى أقوى الجامعات في الشرق من أقدم ازمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالما ، على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلا . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشاركة من التسامح الدينى . فان كل طائفة من أهله تفضل ان يحكمها ابن دينها ، لا تبالي بعدله أو ظلمه . النصراني يفضل حاكما مسيحيا ، والمسلم يفضل حاكما مسلما ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ، ودخلوا في سلطان المسلمين ، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتيهم القنس والاساقفة من القسطنطينية أو

(١) قاموس الادارة والقضاء « مادة بطركخانة » نقلا من منشآت سلاطين

انطاكية ، ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان أن الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالا عسكريا ، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا احوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصا من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن ، حتى اذا استفحل امر بنى أمية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما اقره الراشدون

ذكروا أن الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : « بيعة » فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « أن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد أخطأت ، وان تكن أصبت فقد أخطأوا » (١) ولم يجد اعتراضه نفعا . ولكن ذلك يدل على أن نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم ، أو هم يعدون قيصر الروم حاميا لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن في بعض دول أوربا . فضلا عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب أنهم كانوا ناعمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادي في الامم التي تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يجده الكهنة والاساقفة من اسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على أن يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعا في هذا السبيل ، فينقلون اخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم وأعانوهم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئا من القرآن ليوهم المسلمين أنه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتقاضها لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفا من مثل ذلك اشترط على اهلها أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس أو الركوب وغيره ، وأن لا يؤووا احدا من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشا للمسلمين

ولنحو هذا السبب أيضا أوصى عمر أن لا يستعملوا أهل الكتاب ، لانهم أهل رشى ولأن بعضهم أولياء بعض . ويقال أن اصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر (٢) على أن هذه الوصية



لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة ،  
وخصوصا في أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية

فالارحج عندنا أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام ( أو استكتبهم عهدا )  
ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغير في نصه  
بعد ذلك . ان السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام ، لانهم  
أقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . أما القبط فقد كانوا أعداء  
تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح .  
وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبا للدين أو كرها للتصراية .  
ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة (\*)

(\*) ليست لدينا أى اشارة صريحة الى ذلك العهد في أى من مراجعنا الرئيسية ، ولم يقل  
مؤرخ بأن عمر سلم بأن يكون ولاء نصارى الشام لقيصر القسطنطينية . بل انه من الثابت ان  
دخول المسلمين الشام كان منتهى انفصال كنائسه عن كنيسة القسطنطينية . وانما حدث فيما  
بعد ، خلال القرن الرابع الهجرى ، عندما تفككت أوصال الدولة العباسية وتقدم البيزنطيون  
فاستعادوا أنطاكية لفترة قصيرة ، ودخلوا حلب واخرجوا منها أكثر من مرة ، أن كسبت الكنيسة  
البيزنطية بعض الحقوق على نصارى الشام ، وقد سلم لهم بذلك الحمدانيون أصحاب حلب  
والموصل بسبب ضعفهم ومعجزهم عن حماية رعابهم . وقد بلغ ذلك التيار ذروته في استيلاء  
الصلبيين على الشام ، فقد اجتهد اباطرة الدولة البيزنطية في ان يكون لكنيسة القسطنطينية  
اشراف على كنائس الشام ، وقد دام ذلك حتى تم اخراج الصليبيين من الشام على يد صلاح الدين  
ومن أتى بعده من الايوبيين والمماليك

أما القول بأن كنيسة القسطنطينية كان لها اشراف على كنائس الشام وضعت بعض الدول  
الاوروبية أثناء ضعف الدولة العثمانية ، فقد كانت هذه الدول تتنافس في اقتسام أراضي  
الامبراطورية العثمانية ، وحرصت كل دولة اوروبية على ان يكون لها ولاء النصارى الذين على  
مذهب كنائسها ، وسلمت لهم الدولة العثمانية في ضعفها بذلك ، فأصبح لكنيسة القسطنطينية  
اشراف على كنائس الروم الارثوذكس ، وهم غالبية نصارى الشام ، واجتهدت فرنسا في تقوية  
الموارة وربطتهم بالكروسي البابوي ، وحرص الانجليز والامريكيون على تقوية البروتستانتية واتباع  
كنائسها لكنائس بلادها . واجتهد مستشرقو كل من هذه البلاد في التماس أدلة تاريخية تؤيد  
دعوى اشراف كنائس بلادهم على النصارى الذين على مذهبهم ، معتمدين على تصريح كان  
سلاطين آل عثمان قد اعطوه للوك فرنسا يبيح لهم حق رعاية رعابا الدولة الذين على مذهبهم .  
وقد وجد أولئك المستشرقون في بعض كتب النصارى التي كتبت في العصر المتأخرة عهدا  
موضوعة ومنسوبة الى عمر بن الخطاب أو الى خلفاء بني العباس ، فاعتمدوا عليها تأييدا لدعوى  
بلادهم السياسية ، ولهذا ، فبينما نجد المنصفين من المؤرخين من أمثال فلهاوزن لا يشيرون الى  
هذه العهد ، نجد المتعصبين منهم من أمثال هنري لامنس وليوني كابتاني يتمسكون بها ، مع  
عدم وجودها في أى مرجع من المراجع الرئيسية التي نعتد عليها ، بل ليس لها أثر عند ابن  
عساکر ، وهو صاحب أطول تاريخ للشام وأكثره تفصيلا ، وكذلك القلائس صاحب تاريخ دمشق ،  
بل ليس لها أثر في « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساويرس بن القفغ ( نشره زابولد ثم نشر  
جودا منه الدكتور سوربال عطية )

انظر ، خلاف المراجع العربية المعروفة :

- De Goeje, Mémoire sur la conquête de la Syrie. Leyde 1900.  
Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz. Berlin 1902  
L. Caetani, Annali dell'Islam, Vol. III.  
H. Lammens, Études sur le règne du calife Umayyade Moawiyah Ier, Beyrouth, 190  
L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen-Age. 1907  
De Vogüé, Les Eglises de Terre-Sainte, Paris 1860.  
Gaudefroy-Dumoulin. La Syrie à l'époque des Mamlouks. Paris 1923.  
H. Lammens, Relations officielles entre la Cour romaine et les Sultans mamlouks  
d'Egypte. Dans : Revue de l'Orient Chrétien, 1863.  
Testa, Recueil des Traités de la porte Ottomane avec les puissances étrangères.  
6 Vol. Paris 1864.

### الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت أحكام أهل الذمة لما أفضت الخلافة الى بنى أمية ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على أهلها ، وصاروا يغزون الروم في البحر . عى انهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلهما ، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم . وأما من بقى على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بنى أمية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات اولها العرب ، ثم الموالي ، ثم أهل الذمة . ويؤيد ذلك رأى معاوية في أهل مصر ، قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي ، والثلث الذين هم لanas فالمسالمة » يعنى القبط (١) (\*\*) .

ولما رأى القبط أن الاسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف في تحصيلها ، عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهينة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدرك عمال بنى أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان ، وازدادوا غيظا منهم حتى أراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء ، بأن يجعلوا جزية الموتى على أحيائهم (٢) وأمثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بنى أمية ، ذكرنا كثيرا منها في الجزء الثانى من هذا الكتاب مع الطرق التى كان يتخذها عمال بنى أمية لابتزاز الاموال من أهل الذمة (\*\*\*) .

#### (١) القريرى ٥٠ ج ١

(\*\*) روى ذلك الخبر القريرى في الخطط ، وظاهر ان القول موضوع على لسان معاوية ، فهو أولا لم يزر مصر حتى يستطيع أن يقول : وجدت أهل مصر ، ومن اين يتأتى له العلم بأهل مصر وطبقاتهم اذا كان لم يعرفها معرفة مباشرة ؟ وثانيا : لم يكن الموالي في مصر من الكثرة بحيث يكونون طبقة من طبقات السكان ، فلم يدخل في ولاء العرب من أهل مصر الا نفر قليل جدا . والموالي القليلون الذين كانوا فيها هم موالي العرب ، وثالثا : ان عبارة « لanas » ليست عربية فصيحة تصدر عن مثل معاوية ، وقد أخذ الناس بعد أيام معاوية بمائة وخمسين سنة على ابي نواس استعماله عبارة شبيهة بهذه

#### (٢) القريرى ٢٩٥ ج ١

(\*\*) لم يكن المراد بذلك جباية جزية على الاموات ، بل المراد ان المال المفسرود على كل قرية تقرر جملة واحدة اول الامر بدون تفضيل خراج أو جزية ، وقد قام الاقباط بعد ذلك بتقسيمه على افراد أهل القرية ، وكان العرب يريدون أن يأخذوا هذه المبالغ المقررة كل عام دون النظر الى ما يحدث من تغيير في وضع بعض الناس كدخولهم الاسلام أو ترهيبهم أو انتقالهم من القرية ، فضلا عن كان يموت منهم . وقد طالب القبط باحتساب هذه التغيرات وحطها من قيمة الخراج فرفض العرب ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بوضع الجزية عمن أسلم ، ثم بعد ذلك حسب الضرائب على أساس الواقع ، ولم يكن من ذلك بد ، خاصة بعد أن أسلم الكثيرون ولم يعودوا خاضعين للجزية وتغير وضع أراضيهم فأصبحت عشيرة بعد أن كانت خراجية

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا افضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله : « وأمرنا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين ، ولا تستخدموا أحدا من اهل الذمة » (١) ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان (٢)

ونظرا لاهتمام بنى أمية بجمع الاموال للاسباب التى قدمناها ، واهل الذمة اقدر على مساعدتهم فى جمعها من سواهم ، لاقتدارهم فى الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم فى هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه دينى لنشر الاسلام او حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالدا القسرى العراقين ، واهم نصرانية رومية كان يراعى جانبها ويكرم النصارى من اجلها ، فاعتز النصارى فى أيامه . وأراد خالد أمه على الاسلام فلم تسلم ، فابتنى لها بيعة فى ظهر القبة بالمسجد الجامع فى الكوفة ، فكان المؤذن اذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالنياقوس (٣) وكان خالد يولى النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ، ويطلق ايديهم فى الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن أبى ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب فى عنقها (٤) وكان النصارى فى أيام بنى أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد . وكان الاخلل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن ، وهو سكران وفى صدره صليب ولا يعترضه أحد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به فى هجو الانصار (٥)

على أن الخلفاء من بنى أمية كانوا اذا قربوا نصرانيا أو يهوديا طلبوا اليه أن يدخل فى الاسلام ، فلا يمنعه من الرضى مانع ، الا من يغضب الخليفة

(١) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥  
(\*) روى ذلك أيضا المقرئى فى الخطط ( ١٨/١ ) وأبو الحسن بن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » : ( ١٠/١ ) وسأويرس بن المقفع فى « سير الأبياء البطارقة » ، ج ٥ ص ٧١ - ٧٢ ، وهذا الأخير يحمل على عمر بن عبد العزيز حملة شديدة بسبب ذلك ويقول انه « كان يفعل خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله » اذ امر باغفاء الاساقفة والكتائس من الخراج وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات ( الضرائب غير الشرعية ) ، فعاش الاقباط فى أمن وهدوء ، ولكنه مالبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الاقباط بالتخلي عن أعمالهم فى الدولة ، ماداموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على الاسلام . ولهذا سلم الاقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال الى المسلمين . ويقول الكندي : انه فى خلافة عمر بن عبد العزيز « نزع موازيت ( رئاسة القرى ) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها » ( كتاب القضاة ص ٧١ ) . غير أن الواقع ان هذه الاوامر لم تنفذ ، فاحدى الاوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبلى .

انظر سيدة اسماعيل الكاشفة : « مصر فى فجر الاسلام » ( القاهرة ١٩٤٧ ) ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) الأغاني ٥٩ ج ١٩ (٣) الأغاني ٣٢ ج ١ (٤) الأغاني ٧٤ و ١٧٨ ج ٧

عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما أصاب شمعة وكان من رهط  
الفرس نصرايا ، فدخل على بعض خلفاء بنى أمية فقال له : « اسلم  
يا شمعة » قال : « لا والله لا اسلم ابدا ، ولا اسلم الا طائعا اذا شئت »  
فغضب وامر ففقطت بضعة من فخذه وشويت بالنار واطعمها . اما الاخطل  
فان عبد الملك قال له مرة : « ألا تسلم فنفرض لك في الفء ونعطيك عشرة  
آلاف ؟ » قال : « كيف بالخمير ؟ » قال : « وما نصنع بها ؟ وان أولها لم  
وأخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها  
الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك

أما عمال بنى أمية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الاموال ، فمن  
سهل لهم استخراجها اكرموا . وفي خطط القرى في فصول في انتقاض القبط  
فلترجع هناك (١)

### الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية أساس سياستها طلب السلطة  
والتغلب ، فاستعان أصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب .  
فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية  
وانقسمت أيضا الى عصبية وطنية . وبالفوا في التعصب للعرب وامتهان  
غير العرب من الموالي وأهل الذمة . وأعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار  
من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على  
الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا أيديهم الى  
اموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالفء ، ورأوا أعداءهم العلويين يطلبون  
الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم ، فاستخفوا  
بالدين تحقيرا لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريحية ،  
وبالفوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره أحد من المؤرخين  
حتى اهلهم من أعقابهم . فأبو الفرج صاحب الاغانى اموى (٢) وأكثر ما يعرف  
من مساوىء بنى أمية مقتبس من كتابه

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة  
والتدبير ، حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن أبى سفيان (حكم  
من سنة ٤١ - ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ - ٨٦ هـ) وهشام  
ابن عبد الملك (من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسى لما أفضت  
الخلافة اليه يتتبع هشام في سياسته (٣) وأما عمر بن عبد العزيز فقد كان  
أحسنهم تدبيرا ، ولكنه جاء في غير أوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاء السواس

(١) القرى ٧٩ و ٣٠٢ و ٤٩٢ ج ١ . (٢) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ . (٣) السعوى ١٢٢ ج ٢

لذهبت الدولة من أيديهم عاجلا ، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء أهل الترف واللهو والقصف . وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرما بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود ، وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله وأظهروا الشراب ، وفي أيامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك (١)

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خليع بنى أمية ، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه ، فشغف بجاريتين اسم أحدهما سلامة والآخرى حبابة فقطع معهما زمانه ، وغنت يوما حبابة :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « أريد أن أطير » وأهوى ليطير فقالت : « يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع الأمة ؟ » قال : « عليك » وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما أسخفك ! » . وخرج يوما ليتنزه في ناحية الأردن ومعها حبابة ، وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقتها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها ، حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويكي ، فكلموه في أمرها حتى أذن بدفنها وعاد الى قصره كئيبا حزينا وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه أخوه مسلمة بذلك مخافة أن يظهر منه ما يسفه عند الناس (٢) ولم يحكم إلا أربع سنوات

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ وكان خليعا سكرانا همه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب (٣) وأول شيء فعله لما ولى الخلافة أنه بعث الى المغنين في المدينة ومكة وأشخصهم اليه ، واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادهم ، وبالف في التهتك والمكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة

على أن العرب أعظموا تهتك بنى أمية من أيام يزيد بن معاوية ، واستغفروا

البيعة له ، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم      فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا  
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم      ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا  
لا تبقرن بأيديكم بطونكم      فثم لا حرة تغنى ولا جزع

فأين هؤلاء من دهاة بنى أمية الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يمس الخمر أو يتماجن أو يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء في أواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احدا في حضرته مسكرا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه (١)

فلما انغمس بنو أمية في الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي واساءتهم الى أهل الذمة وسائر أهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في أثناء السفر — اذ كان جند المسلمين في أواخر ايام بنى أمية اذا مروا بقرية غضبوا من يمرون بهم أموالهم (٢) — فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ، ولم يمض الا سنوات قليلة حتى ذهب وتقامت الدولة العباسية مقامها (\*)

(١) الاغانى ١٦٧ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

(\*) حملت الدولة الاموية من أول الامر اسباب زوالها في صلب تكوينها ، فقد انتزع معاوية بن أبي سفيان الخلافة انتزاعا دون نظر الى رأى عامة المسلمين او ما جرى عليه العرف الى ذلك الحين في تولية الخلفاء ، وكان الرأى العام الاسلامى لا يرى له فيها حقا ، حتى الذين كانوا لا يريدون عليا لم يقولوا بأن معاوية احق بها من غيره ، وكان هو نفسه يشعر انه اغتصب الامر اقتصاديا ، ولهذا لجأ الى المصانعة واسكات اصوات المعارضين بالمال حينما وبالقوة حينما آخر ، لا مجرد انه امتكز بهذه الصفة غير محددة المعنى ، التى يصفه بها المؤرخون وهى « الحلم » ، بل لانه لم يكن يستطيع الا ان يكون حليما ، فإن الناس من حوله كانوا يستثرون الامر عليه ، ويرون انه اغتصبه ليستمتع بخيراته ، فأقبل يشرك الناس فيما يصل اليه من الاموال ، حتى يشعروا انه وان كان قد حاز الخلافة الا ان لهم من خيراتها نصيبا ، فمضى يعطى بملء اليدين ، وكان اكرم على خصومه منه على انصاره ، مما أشعر الخصوم بانهم ، مهما كان الامر ، قد كسبوا من خلافته شيئا . ومادام معاوية لم يستند الى رأى المسلمين او الى مواطنهم فقد جعل قاعدة خلافته تلك القبائل التى اعانته على النصر ، ولهذا فانه لم يكن خليفة بقدر ما كان شيخا قبيلا ، وكانت سياسته سياسة شيخ قبيلة ، واهدافه اهداف شيخ قبيلة ايضا ، فهو اذا كان قد اقام خلافة من نوع جديد لم يعرفه المسلمون ، وهى الخلافة الملكية ، فانه لم يعرف كيف يضع أسسا لهذه الدولة ، فلا هو نظم جيشها ولا مالياتها ولا اداراتها ، وانما مضى الامر في أيامه على هواه ، وكلما عرضت مشكلة حاول ان يحلها حلا مؤقتا : باعطاء المال او بإرسال جيش ، وقد ترك معظم المشاكل دون حل . فلم يكد يموت حتى تجددت في شكل اشد حدة ، وجرؤ الناس على ابنه وكثرت الثورات ، واضطر يزيد الى اخمادها بوسائل زادتها تعقيدا ، فمقتل الحسين مثلا خلق مشكلة اعوس من مشكلة مجرد مطالب بالخلافة ، بل خلق مشكلة الشيعة كاملة

وكان الروانيون أبعد عن سياسة الملك من السفينانيين ، فقد كان مروان بن الحكم شيخا قبيلا صرفا لا يعرف الا الحيلة والحرب ، والدول لا تساس بالحيلة والحرب ، ثم جاء ابنه عبد الملك وكان قاسيا عنيفا ، لا يتصف بما اتصف به معاوية ، فمضى يضرب خصومه حتى امتلأت القلوب

## العصر الفارسي الأول

## العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٢٢ هـ إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسيا مع أنه داخل في عصر الدولة العباسية ، لان تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهي فارسية من

حقدا عليه وعلى بيته ، وكان حقد العرب عليه اكبر من حقد الموالى ، ومات هو ايضا مخلقا مشاكل عويصة دون حل ، فلا الدولة وضع لها نظام ، ولا المسلمون رضوا عنه ، ولا خرج الامر عن انه اغتصاب قبائل معينة للامر بالقوة والقهر

واذ كان اعتماد بنى أمية على عرب الشام ، فان أى انكسار في وحدة هذه القبائل كان معناه ضياع الدولة . وقد كان التنافس بين مضر واليمن قائما من ايام معاوية ، ولكنه لم يظهر في صورة خطرة الا بعد عمر بن عبد العزيز ، واول صورة مريرة شهدها له كانت في النزاع بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تحليل هذا النزاع ، ولكن سببه الحقيقي هو التنافس بين كبار رجال الدولة وامراء البيت الاموى ، فان رجلا مثل زياد بن أبيه وابنه عبد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة وابنه يزيد كانوا يرون انهم اعمدة الدولة ، وانها قائمة بهم لاباءم البيت الاموى ، وكان لهم من المكاة والوجاعة والسلطان والمال ما يضاوى ما للخلفاء انفسهم ، ولهذا فقد كانوا يتعاملون على امراء البيت الاموى ولا يستمعون الى مطالبهم ، على اعتبار ان هؤلاء الامراء لن يصير منهم الى الخلافة الا من يريد رجال الدولة ، ولهذا فقد كان الامراء موغرى الصدور من هؤلاء الرجال ، لا يكاد احد منهم يتولى الخلافة حتى يعصف بمن كان يرفض مطالبه منهم ، كما فعل سليمان بن عبد الملك مع موسى بن نصير ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وآل الحجاج ، وكما فعل هشام بخالد بن عبد الله القسرى . وشيئا فشيئا خلت الدولة من الرجال ، فلا تجد منهم ايام الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد احدا . ويصور لنا ذلك التنافس بين رجال الدولة وامراء بنى أمية قصة يحكيها ابن الاثير ، ونستشهد بها هنا ، لا على انها حقيقة بل على انها رمز ، فقد روى ان يزيد بن المهلب خرج يوما من الحمام في عهد سليمان بن عبد الملك وقد تضحخ بالغالية ، فمر بيزيد بن عبد الملك ، وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز ، فقال يزيد : « قبح الله الدنيا ! لوددت ان مثقال الغالية بألف دينار ، فلا ينالها الا كل شريف » ، فسمع المهلب قوله فقال له : « بل وددت ان الغالية لا تكون الا في جبهة الاسد ، فلا ينالها الا مثلى » فقال له يزيد : « لئن وليت يوما لاقتلكم » فقال له ابن المهلب : « والله لئن وليت هذا الامر وانا حى لاضرير وجهك بخمسين الف سيف ! »

واذ لم يكن للدولة بنى أمية عماد من القانون فلم يكن لها بد من الاستناد الى القوة ، وكانت قوتهم في اتحاد عرب الشام حولهم ، فلما اتجهوا الى التفريق بين المضربة والقيسية ضعف العماد وهوى بنى الدولة ، فكان لابد ان تسقط

ثم ان اغتصاب بنى أمية للامر جعل الناس جميعا اعداء لهم ، فعدا العراق لهم معروف ، وكذلك كان حالهم مع الحجاز ومصر ، وثار بهم العلويون والخوارج ، واقتل الناس يؤيدون الثائرين ، فجعل الامويون يرمون خصومهم بالجيش بعد الجيش ، وقد انتصرت جيوشهم في معظم الوقائع ، ولكن كل واقعة منها كانت تستهلك جانباً من حمايتهم ، حتى اذا كانت ايام مروان بن محمد كانت الوقائع قد استهلكت حمايتهم ، فضعفت جيوشهم وسهل على ابى مسلم الخراساني ان يهزمهم

اما الترف واللهو فليسا بسببين حقيقيين من اسباب زوال الدولة ، وقد كان معظم خلفائبنى أمية يبعيدون عن الاسراف في المتاع ، واذا كانت دولة بنى أمية قد دامت نحو التسعين سنة ، فان معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وحدهم حكموا منها ستين ، وحكم مروان ستين ، والوليد بن عبد الملك عشرا ، وسليمان اربعا ، وعمر بن عبد العزيز ستين ، ومروان بن محمد خمسا ، ومجموع هذه ثلاث وعشرون ، اذا أضيفت الى الستين كان المجموع ستا وثمانين سنة ، تولى الامر فيها خلفاء يبعيدون عن اللهو والترف ، والباقي اربع سنوات هي التي حكم خلالها يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، وهما وحدهما اشتهدا من بين بنى أمية باللجون واللهو

واذا كان الخلفاء الراشدون خلفاء حقا ، فقد كان الامويون ملوكا لاخلفاء ، وينادى العباسيون خلفاء ملوكا ثم صاروا ملوكا خلفاء ، ثم أصبح الامر ملوكا وسلطنة وزعامة عسكرية بعد ذلك



حيث سياستها وادارتها ، لان الفرس نصرروها وأيدوها ، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بنى أمية على غير العرب ، واحتقار الموالى وأكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناظم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على أنهم كانوا أكثر رغبة في نصره الشيعة ، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ ، لأنهم يدعون الى بيعه صهر النبي أو أبناء بنت النبي . فكان العلويون يبشون دعابتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الأموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بنى أمية

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبى مسلم الخراساني ، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمينية على بنى أمية ، ولم يبق من العرب من ينصر الأمويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمينية على الأمويين ، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان

### انتقال الخلافة الى العباسيين

#### الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل على بن أبى طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها . وأول من طلبها بعد على ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ، فغضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا - وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من أشياع على ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء على فترجع الخلافة الى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته تقموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة - ومن قول عبد الله بن هشام السلولى في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما روينا

لقد ضاعت رعيتم وأنتم تصيدون الارانب غافلين (١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن على ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه . على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا بيعتهم خرقا لحزمة الدين (٢) . وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر الى مكة ، وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا

عن نصرته : . وبعث اليه أمير الكوفة يومئذ عبد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء ، يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا أنفسهم « التوابين » ، وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا منهم . فتغلب ابن زياد عليه . فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الاموال في أثناء تلك القوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه . فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل أكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرا منه . فحول المختار دعوته الى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لان أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو الى نفسه . على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد ، لانه انما كان يريد لها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه ، بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ

أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احدهما تقول ان الحق في الخلافة لولد على من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية ، وهى الفرقة الكيسانية . وأكثرهما ظهورا وتصديا الفرقة الاولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابها حتى صار الأئمة ١٢ اماما وهم : على ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي (\*). وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق آخر ، بايعت غير واحد من أعقاب على ، كالزيدية نسبة الى زيد ابن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق آخر لا محل لذكرها

وكان بنو أمية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بدلوا جهدهم في قتله ،

(\*) اللقب الغالب لمحمد التقي هو محمد الجواد ، وعلي النقي علي الهادي ، ومحمد المهدي يعرف بالمهدي المنتظر . وقد اختفى هذا الاخير سنة ٢٦٠ هـ وذهب شيعته الى أنه ارتفع الى السماء وسيعود ، ولا زالت الشيعة الاثنا عشرية في انتظاره على الرغم من ظهور كثيرين ادعى كل منهم انه المهدي المنتظر

فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في أيام بنى أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسرى عامل بنى أمية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الاموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الاخلاق ، فمع كونه من عمال بنى أمية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل أهل الذمة كما تقدم

#### الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من أهل البيت بنو العباس عم النبي ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم ، وانما كانوا يدعون الى أنفسهم سرا . وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام — والمضطهدون يتقاربون على أى حال

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم ، وهم مقيمون في الحميمة من أعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بنى أمية فهموا بالنهوض . واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبى هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يقد على خلفاء بنى أمية من المدينة الى الشام ، فيمر في أثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك ، آتس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه في الخلافة ، فدرس اليه في أثناء رجوعه الى المدينة رجلا سمه في لبن . فشرع أبو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق ، فعرج الى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما أحس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جملة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات أبو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لانه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ في بث الدعاة سرا . ثم توفى وقصد أوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام

فأخذ ابراهيم الامام في بث دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الامصار ، ولان الشيعة الكيسانية أكثرهم من خراسان والعراق ، وقد نصروا العلويين مرارا . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم ، وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أى أهل النبي ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية،

فهان عليهم ان يبايعوا لال محمد ، وهم يحسبون الامر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين . وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب ، فاتم امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

#### بيعة المنصور للعلويين ونكته

وكان بنو هاشم - العلويون والعباسيون - لما راوا اختلال امر بنى أمية ، اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بنى هاشم ، علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين ، وفيمن يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس المعروف بالسفاح ، وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس ، وهو ابو جعفر المنصور ، وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه ابو جعفر المنصور في جملتهم (١) ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها ، كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في اهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام ابراهيم أو غيره من بنى العباس

اما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخلال المثرى الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بنى العباس ، كظم غضبه وتربص ليرى مايقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين ابا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة ( من اتهمته فاقتله ) وقد أطاعه النقباء فأطاعه ابو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعة (٢) ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قتل ابراهيم الامام ، أضمر الرجوع الى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم ابو العباس السفاح وأخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور ، فأنزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لال العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاعوا العراق وبايعوا ابا العباس ، فسكت العلويون خوفا على أنفسهم

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧  
(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودى ١٥٠ ج ٢

من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمرة أبو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين، فشكوه الى أبي مسلم سرا . فدرس اليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، واشاعوا أن بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم ، حتى تم الامر لهم

أما آل الحسن بن علي ، الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بنى هاشم ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بنى أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع . وكان في جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فأكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له : « احتكم على » فقال عبد الله : « بألف ألف درهم ، فاني لم أرها قط . . » ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صير في اسمه ابن أبي مقرن ودفعه اليه . واتفق - وعبد الله المذكور عند السفاح - أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبيكي ، فسأله عن السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأت بنات عمك مثله قط . . » فحياه به ، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار ( نحو مليون درهم ) وأمر أبو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العيون فأنس عنده طمعا فزاده عطاء ، فعاد عبد الله الى المدينة مثقلا بالاموال ففرقها في أهله ، وكانوا اهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سروا

وأما عبد الله فما زال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ماتمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالاموال كما رأيت . فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديدا البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بنى الحسن في المدينة، لأن لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها : « اعط الناس في أيديهم ولا تبعث الى أحد بعطائه » وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن « ففعل العامل ذلك ، فلم

يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما يتويان القيام عليه ، وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه لأنه كان يكرهما ويفدق عليهما والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضيقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق ، واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابنى عبد الله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بنى الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث الى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم الى العراق ، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والأغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما فجاءوا بنى الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام . فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا أمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه فقالوا : « أن في أعناقنا بيعة لأبى جعفر » فقال : « أنكم بايعتموه مكرهين ، وإن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لأنها انعقدت قبلها » (١) وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأي ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من أكبر المضطهدين لهما ف ضرب مالكا على الفتياء في طلاق المكره ، وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكت المنصور بيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون أن ذلك لا يصدر من أهل البيت كما صدر من بنى أمية ، فتحسروا على أيام بنى أمية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد ابن عبد الله ، في أثناء قيامه على المنصور ، أنه سمع شاعرا يرثى بنى أمية فيكى ، فقال له عمه : « أتبكي على بنى أمية وأنت تريد بنى العباس ماتريدا؟ » فقال له : « يا عم ، لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وإن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر » (٢)

### سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

#### القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بنى العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين

(٢) الاغانى ١٠٦ ج ١٠

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

خطرين عظيمين : الاول أن يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على احزابهم ، والثانى أن يامنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط ، كما قامت في عصر الراشدين . وكما ارادها بنو علي ، وأن العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم يغلب الا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها الا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم أفضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا الى أبى مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء ، جعله قائدا على ثقبائه ودعاته وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأسيس دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر الى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الامر الا بهم . واتهم ربيعة في امرهم . وأما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت أن لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأيا غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله .. » (١)

فخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٢) بدون حرب في بضعة سنين ، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبى سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبى مسلم أمير آل محمد . فحالما استشار السفاح أبا مسلم في شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، أشار أبو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك أيضا سليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا في نصرته تلك الدعوة . فبعد قتل أبى سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل مابلغه عن أبى سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « اتحفظ قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ » قال : « نعم » قال : « فاني قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « أناشدك الله .. » قال : « لا تنأشدنى ، فأنت منطو على غش الامام » وأمر بضرب عنقه (٣) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالعدو ، ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله (٤) وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس

(١) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ (٢) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢  
(٣) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ (٤) ابن الاثير ١٨٣ ج ٥

فعله وملوا سفك الدماء ، وأصبح المسلمون - حتى رجاله - لا يدعى أحدهم الى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط . وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بنى العباس وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد : أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق . . » فتبعه على رايه أكثر من ٣٠.٠٠٠ رجل ، فوجه اليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم

#### المنصور والدولة العباسية

فيهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبنى العباس ، فساعدهم أولا على اخراجها من بنى أمية الى أهل البيت ، ولم يكتف ببيعة أبى العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولكنه حرصهم على قتل من بقى من بنى أمية بالاغراء أو التخويف على السنة الشعراء . ويقال انه هو الذى أوعز الى سديف الشاعر مولى بنى هاشم أن يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بنى أمية - فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان ابن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يفسرنك ما ترى من رجال ان تحت الضسلوع داء دوبا  
فضع السيف وارفع السوطحتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح وأمر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى أمية، فقتله وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع اثنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبنى أمية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف فى أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر فى أوائل القرن الماضى

والغالب أن أبا مسلم أوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم، فأشار الى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حبا ببني العباس بل كرها لبنى أمية وانتقاما لآل على ، لانه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة . فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك ، نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور ، فكتب الى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ففعل (٢)



وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين ، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بنى أمية بالاندلس كما سيأتى . وتولى استئصال شأفة الامويين من بنى العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالائمة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطا ثم أحرقه (١)

وبعد أن تخلص المنصور من الامويين ، لم يدخر أبو مسلم وسعا في تخلص الدولة من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على مافي عسكره من الغنائم والأسلحة . فأراد المنصور أن يوجه همه الى بنى الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبى مسلم وأصبح خائفا منه على سلطانه ، بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعويين ، فاتهمه بأنه ينوى اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملا بوصية الامام

وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة أخيه أبى العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرده فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي ، احتال المنصور في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا ازفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله - ولم يقل انه قتله - فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك .. » (٢)

ولما فرغ المنصور من أبى مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية ، لعلهم انه ركب بقتله خطرا عظيما ، فما عثم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالاروندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل

الراوندية جميعا ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمده الى تخليص الخلافة من آل علي ، فحارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله ، وكان أبو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور فى استقدمه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوى الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمرا كتبه عن رجال بطانته ، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاکرام ، ثم أخرج من كان فى حضرته من الحاشية واستبقاه وحده ، وأقبل عليه وقال : « يا ابن العم . . انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله ، فهل أنت فى موضع ظنى بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكي ؟ » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسى طوع أمره ونهيه . . » فقال المنصور : « ان عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا . فخذه اليك واقتله سرا . . » فأطاعه عيسى ، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه الى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاثنين معا . أما عيسى فكانه شك فى نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوى مشورته فحذروه من عاقبة ذلك ، فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا ، فقتله فى بيت جعل أساسه على الملح (١)

وأمثله ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك فى تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بابن هبيرة عامل بنى أمية على واسط ، لما بويغ السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربته ، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس ، فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به ، فبعثه الى أبى جعفر ، فأنفذه أبو جعفر الى أبى العباس فأمره بامضائه . وكان رأى أبى جعفر فى بادىء الامر أن يفى بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا : « ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة . . » فبعد أن جاء ابن هبيرة الى أبى جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٢) لانه اتهمه ، ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد أن أمنه كما رأيت . وشاع نكث

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢

الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . قلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرا ، فأجابه محمد : « أى أمان تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبى مسلم ؟ » (١)

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدماء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق ، كما سيأتى . أما من كان في نفسه مطمع في الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين ، فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر ، فاذا دعى للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بنى أمية في الأندلس ، وقد فر من العراق فالتجأ الى المغرب خوفا من القتل ، فنصره رجاله وخصوصا مولى له اسمه بدر ، سعى في تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسيأتى الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصره أخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف ، فانظر لنفسك أو دع . . » (٢) وفي الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم ، فأهدى له خادما كان رباها وأمره أن يسمه ففعل (٣)

### سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

#### الموالى الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالى وأهل الذمة وكانوا ناعمين على دولة بنى أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاما منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس

(١) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥ (٢) المسعودى ٢١٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٢٧ ج ١

### الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان . وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلا عن الأسر المالكة والدهاقين والأساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى أطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس ، وهم المناذرة في الحيرة . وكثيرا ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك - حكى أن بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعرا (١) وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم ، للكتابة أو الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز أو اليمن أو نجد ، وخصوصا بعد أن دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى أنوشروان

وأشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدى بن زيد من المضرية ، وكان عدى وأبوه وجده من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد ، وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجدّه حمّاز بن زيد ابن أيوب كان كاتباً عند النعمان في الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد ، فأوصى به إلى دهقان كان صديقا له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين ، فتقدم الدهقان إلى كسرى أن يوليّه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب إلا أبناء المرازبة ، فتقدم يزيد في الدولة حتى صار كسرى يستشير به في مهماته ، وولد لزيد ابنه عدى وتثقف وتعلم مثل أبناء الأساورة ، وأتقن ألعاب الفرس على الحيل بالصوالجة ، فقر به كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن ، وصار من أصحاب السطوة والكلمة النافذة ، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهمات الكبرى إلى ملك الروم وغيره . وإذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدى في اصلاحهم ، وإذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولى كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدى . فشق ذلك على ملوك الحيرة حسدا له ، لأنهم يمنية وعدى مضرى (٢) ، فوشى به بعضهم

(١) المسعودي ١١٣ ج ١

(٢) هكذا تقول المراجع وهو مستبعد ، لانه من غير الثابت ان عدى بن زيد كان مضرى ، ثم ان الخلاف بين المضرية واليمانية لم يكن في ذلك العصر معروفا على الصورة التي صار اليها بعد الاسلام ، كما سبق ان ذكرنا في تعليقاتنا . واخيرا لا يستطيع أحد القطع بأن أصل ملوك الحيرة يمنية . وقد بسطنا القول في ذلك في تعليقاتنا على الطبعة الجديدة من تاريخ العرب قبل الاسلام للمؤلف

الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدى فى المكتابة عن كسرى الى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١)

وجملة القول أن العرب كانوا يخدمون الفرس فى أيام دولتهم قبل الاسلام ، كما خدم الفرس العرب فى أيام دولتهم بعد الاسلام ، على أن الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيدا لهم ، أى انهم أصيبوا بما أصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الأمم التى توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاسكسرة ، كان ذلك شديدا على الفرس ، وخصوصا بعد ما لاقوه من ضغط بنى أمية واحتقارهم ، فكانوا ينتقصون فيحاربهم الأمويون ، ويبالغون فى اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون أهاليها ، حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الاساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الاموية . على أنهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزا لأنفسهم ، تخلصا من عصية العرب عليهم ، وطمعا فى الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة

#### استخدام الموالى الفرس

فلما قبض العباسيون على أزمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم فى العراق ، فأقاموا أولا فى الكوفة ثم فى الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالى الفرس ، وخصوصا أهل خراسان ، فجعلوهم بطانته ورجال دولتهم ، ولاسيما الذين حاربوا مع أبى مسلم فى طلب الخلافة لهم . وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فانه كان من قواد جند أبى مسلم ، وشهد معه الوقائع وأبلى بلاء حسنا فى نصرته أهل البيت ، وكان أبوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتا من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدائنه ، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فأسلم خالد ودخل فى جند أبى مسلم ، وكان عاقلا حازما فلم يجعل للعباسيين محلا للشك فى صداقته ، كما فعل أبو مسلم . فقدمه أبو العباس وولاه الوزارة ، ثم تولاه للمنصور وخدمه بعد مقتل أبى مسلم فى محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس (٣)

(١) الاغانى ٢٢٢ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٩ ج ٣ (٣) ابن خلكان ١٠٦ ج ١

رتوات الوزارة في أعقابها إلى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم . وأول من استخدمهم لذلك المنصور ، فإنه استعمل مواليه وغلماؤه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب ، فاقبض به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة أوصى بثلاث ماله لمواليه (١) وأوصى بكرامهم . ومن أقواله في وصيته لابنه المهدي : « وانظر إلى مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدتك إن نزلت بك . . . وأوصيك بأهل خراسان ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن سيئهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده » (٢) (\*)

ولا غرو إذا أكرم العباسيون أهل خراسان ، بعد أن آثروهم على أهلهم وأبنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا إذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة - ذكروا أن أبا نخيلة الشاعر العربي وفد على أبي جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به ، فيرون شيخا أعرابيا جلفا فيعبتون به ، فسأله صديق له رآه في تلك الحال : « كيف ترى ما أنت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

أكثر خلق الله من لا يدري      من أي خلق الله حين يلقي  
وحيلة تنشر ثم تطوى      وطيلسان يشتري فيغلي

(١) الفخرى ١٢٠ (٢) ابن الأثير لأج ٦

(\*) لا تبلغ إذا قلنا أن معظم هذه الوصايا موضوع : توصية الخليفة كما نجدها في الكتب أما أن تكون من صنع بعض أهل التوفى أو بطائفة ، ليضمنوا لأنفسهم حقوقا يزعمون أن صاحب الأمر أوصى بها ، أو من صنع بعض الصالحين بنية الحث على الخلال الحميدة ، أو من اختراع دعاة الدولة ، وربما كانت من صنع المؤرخين انفسهم . ووصية المنصور لابنه المهدي نموذج طيب لما نقول ، فقد رويت في صور شتى ، ففي الصورة الأولى يقول ابن الأثير : « فلما كان اليوم الذي ارتحل فيه ( أي مات فيه المنصور ) قال له ( أي لابنه المهدي ) : أتى لم أدع شيئا إلا وقد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بخصال ما أظنك تفعل واحدة منها ، وكان له سقط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتح غيره ، فقال للمهدي : انظر إلى هذا السقط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمر فانظر في الدفاتر الكبيرة ، فإن أصبت فيه ما تريد والا ففي الثاني أو الثالث ، حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل . . . » . فهذا كلام ظاهر الاختراع ، ومن الطريف أن المنصور نفسه لم يستفد من هذه الكراريس ، بل لم ينتفع باللخص ، وقضى حياته كلها قلنا متخوفا ، لا يدري ماسيحدث له بعد ساعة ، فضلا عن « ما هو كائن إلى يوم القيامة ! » . والوصية كلها في أسلوب سخيف ، ويطلب على ظني أنها من وضع أحد خدم القصر والصورة الثانية التي يروها ابن الأثير يبدو بوضوح أن واضعها أحد الفقهاء المحترفين في

لعبد عبـد أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقي (١)

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للمداولة ، وأول من يتكلم منهم الموالى (٢) وقس على ذلك فى سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالى الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم ، لان الغالب فى هذه المناصب أن تنتقل من الرجل الى بعض أولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية ، كال برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعزلون ، واذا تولها أحدهم ولى الاعمال رجالا من أصحابه أو مريديه ، ومن ناحية أخرى تغيرت الاحوال على أهل البلاد ، واطمأنت خواطهم وتفرغوا للعمل فى التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بنى أمية واستبدادهم ، واطلقت حرية العمل وحرية الدين ، وذهبت عصبية العرب ورتع الناس فى بجوحة الأمن

ولما استبد الاتراك فى الدولة وضعفت شوكة الفرس ، بعد المأمون كما سيأتى ، ظل الموالى من أصحاب النفوذ فى دولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة فى أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ، ولكنهم أصبحوا أخلاطا منهم ومن سواهم ، وانما تجمعهم كلمة الموالى ويتفانون فى خدمة الخليفة أو الامير

### أهل النعمة فى الدولة العباسية

لما أخذ الموالى الفرس فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة فى العراق والشام ، وكانوا أهل معرفة فى الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطمعهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم وأكرمهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما أنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم ، فاستخدمهم العباسيون فى دواوينهم وولاهم خزائنهم وضياعهم

فالجهاذة ( الصيارف ) كان أكثرهم من اليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة

القصر ، وكلها نصائح ومواعظ ، ومن اطرف ما فيها قول المنصور : « واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لآثم مقيم » ، والمعروف ان المنصور كان من أكثر الناس سفكا للدماء بغير حق ، فكان واضع الوصية اراد ان يسخر منه او يحلر ابنه من الوقوع فيما وقع فيه أبوه

أنظر : التكمال فى التاريخ ، طبعة المطبعة النثرية ، القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٥ ص ٤٣ - ٤٤

(١) الاغانى ١٤٨ ج ١ (٢) المقد الفريد ٥٣ ج ١

كبيرة من النصارى • وكثيرا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان - وهو نصراني - حتى يتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده • ومن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى فى الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصراني ، قلده اياه الناصر لدين الله • وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد أمرها أبو العلاء صاعد بن ثابت فى أيام المتقى بالله (١)

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح فى الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوزارة أو الكتابة ( وهى كالوزارة فى مصر ) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم فى الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمى رجلا نصرانيا اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهوديا اسمه منشأ ، فعز النصارى واليهود فى أيامهما (٢) ومن نافذى الكلمة فى الدولة الفاطمية من أهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم فى أيام الحاكم بأمر الله • فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ، ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم • وارتفع شأن النصارى فى أيامه ، حتى كادت الدولة تكون فى أيديهم (٣) على أن الكتائبين - أهل الذمة - كانوا فى أيام الحاكم هم أهل الدولة ، وكذلك فى أيام الحافظ (٤) وكتاب الجيش فى أكثر الأحيان من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والأمراء يستخدمونهم من أطباء أهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم ، وخصوصا نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامى فى نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبينما ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واکرامهم ، وفيهم النصراني واليهودى والمجوسى والسامرى والصابى وغيرهم ، والكل راتعون فى بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والأمراء

وكان الخلفاء فى صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم • فالهادى كان يستدعى اليه الأسقف تيموثاوس فى أكثر الايام ويحاوره فى الدين ، ويبحث معه وينظره ، وي طرح عليه كثيرا من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتابا ألفه الأسقف المذكور فى هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد (٥) وغيره ، وأغضوا عن بعض ما فى عهد عمر ابن الخطاب من التضييق على النصارى ، كمنعهم من احداث الكنائس (٦) أو الاحتفال بالاعياد ، أو منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطى ١٧ ج ٢  
(٣) المقرئى ٤ و ٣١ ج ٢ (٤) المقرئى ٤٠٦ ج ١ (٥) تاريخ المشرق (خط) ١٤٢  
(٦) المقرئى ١١٥ ج ٢



وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى أصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم ، وكثيرا ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء أن يثبتوهم فى مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعتهم

#### اضطهاد أهل الذمة فى العصر العباسى

على أن ذلك لم يمنع تضيق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهدم كنائسهم - فان الملوك المستبدين (\*\*) تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم ، فقد يتراءى لبعضهم التضيق على النصارى لسبب أو لغير سبب ، كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بنى العباس (\*\*) فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لانه أمر بهدم الكنائس المحدثه بعد الاسلام، ونهى أن يستعان بهم فى الاعمال ، أو أن يظهروا الصليبان فى شعائرتهم ، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب ، وأن يلبسوا الطيالة العسليه ، ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين فى مؤخر السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (١)

ولا يستغرب هذا التضيق من المتوكل ، فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب. وكان شديد التعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولأقأ أهل الذمة منه الشدائد (٢) على أنه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لاعداء الدولة - وذلك أن أهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم، وكان هذا من أسباب نقمته عليهم (٣)

ويقال نحو ذلك فيما صدر فى أيام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس فى الثغور ، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (٤) - فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم فى هرقلة ، فالظاهر أن

(\*) يريد بالاستبددين هنا المنفردين بالسلطان فى دولهم ، لا المستبددين بمعنى الظالمين  
(\*\*) راجع مافور الرشيد على النصارى عند الطبرى ، طبعه اوريا ج ٣ ص ٧١٣ ، وما قرره المتوكل - نفس المصدر والطبعة والجزء ص ١٢٨٩ وخطط القرىزى ج ٢ ص ٤٩٤ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥

(١) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٧٢٠ ج ٧ والقرىزى ٤٩٤ ج ٢  
(٢) تاريخ المشاوق (خط) ١٤٦ (٣) ابن الاثير ٧٢٩ ج ٤ (٤) ابن الاثير ٨٢ ج ٦

نصارى الثغور ( الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام ) ساعدوا أبناء طائفتهم الروم فى التجسس على أحوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاما منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص فى مخالفتهم هيئة المسلمين فى لباسهم ، دفعا لتكرهم وتجسس أحوال المسلمين - والا فالرشيد من أحسن خلفاء بنى العباس عدلا ورفقا بأهل الذمة ، وكان أحد عمال أخيه الهادى قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر بإعادة بنيانها (١)

وهكذا يقال فى اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام فى طقوسهم وكنائسهم فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى فى مصالح الدولة فى أيامه حتى صاروا كالوزراء ، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فتزايدت مكابدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله - وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه ، وقبض على ما فى الكنائس وأدخله فى الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف (٢) مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد فى ابان التمدن الاسلامى . ولا جناح على التمدن الاسلامى منه ، لان مرتكبه آتاه عن حق أو جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة فى اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان فى القسطنطينية ، فانقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم فى بلاده، وكان فى جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على إعادة بناء جامع القسطنطينية ، وأن يعاد بناء كنيسة القيامة ، وأن يؤذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم أن يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون (٣)

وربما كان السبب الذى حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفا ، فعظمه

(١) القريزى ٥١١ ج ٢ - (٢) القريزى ٤٩٥ ج ٢ - (٣) القريزى ٣٥٥ ج ١

تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على أنه كثيرا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أمورا مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كإصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير ، أو منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج أو المسير في الطرق ، والأمر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت وعلى المقابر ، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله . على أننا قلما نراه أتى أمرا إلا لسبب ، وإن كان ضعيفا - فالسبب في منعه الناس من أكل الملوخيا مثلا أن معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من أكل بقلة الجرجير لأنها منسوبة إلى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل التوكلية لأنها تنسب إلى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لأن علي بن أبي طالب كان يكرهه (١) وقس على ذلك سائر ضروب الحماية والغربة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف أو بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس (٢) وخير النصارى في الرجوع إلى دينهم فارتد كثير منهم - وقد تقدم أن ذلك كان في أيام ابنه الظاهر . ومن أعماله الغريبة أنه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايع ثم قتلهم وخربها ، وألزم الناس باغلاق الأسواق نهارا وفتحها ليلا ، فظلم الناس على ذلك دهرًا طويلا (٣) فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد، ولا يعد اضطهاده عارا على الدولة أو الأمة

على أن أظن ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، إنما كان في دور الاضمحلال أو التقهقر في العصور الإسلامية الوسطى ، وخصوصا بعد الحروب الصليبية ، لأنها كانت سببا كبيرا في إثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الأفرنج سرا ، فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا - بين دمشق وحمص - كانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للأفرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم ممالك فتربوا بين الأتراك في الديار المصرية ، فصار منهم أجناد وأمراء (٤) كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمان غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل النعمة في بلادهم ،

(١) القرطبي ٣٤١ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٨٦ ج ١ (٣) السيوطي ١٧ ج ٢

(٤) أبو الفداء ٤ ج ٤

حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في اذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم أو احراق كنائسهم (١) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو اشد منها . وكثيرا ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا (٢) واذا دخلوا بلدا اسلاميا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع (٣) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن (٤) ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم (٤)

#### تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة ، وأغدقوا عليهم الاموال وأكرمهم ورفعوا منزلتهم ، وأنهم فعلوا ذلك لأحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم أو الطب أو الحساب أو الكتابة أو غيرها مما تحتاج اليه الدولة في تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة . وكان اولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة ، كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين . وذلك طبعى في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان أو طائفتان ، ولا يزال ذلك جاريا على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

نشأ هذا التحاسد أولا بين العامة ونحوهم من اهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية ، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والفنساء والكتابة والحساب وغيرها . وأما اهل الطبقة العليا ( الشرفاء ) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون ، وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضى الذى كتب الى الخليفة القادر بالله :

(١) القرىزى ٢ ج ٨ وابو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩

(٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٧

(٣) ابن الاثير ٦٢ ج ٨

(٤) أهل الدجن هم المسلمون الذين دجنوا ، أى أقاموا خاضعين تحت حكم النصارى في الاندلس بعد سقوط بلادها في أيديهم ، ويسمون أيضا المدجنين ، ودخلت الكلمة في اللغة الإسبانية في صورة mudejares, mudejar

(٤) نفع الطيب ١٢٦٩ ج ٢

عطفاً أمير المؤمنين فأننا      في دوحة العلياء لا نتفرق  
مآييننا يوم الفخار تفاوت      أبداً ، كلانا في المعالي معرق  
الا خلافة ميزتك فأننى      انا عاطل منها وانت مطوق

رثى ابا اسحق الصابى بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أرايت من حملوا على الاعواد      أرايت كيف خبا ضياء النادى  
فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفاً  
يرثى صابئاً فقال له : « انما رثيت فضله » (١)

واما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهم على بعض المصالح أو  
المناصب ، فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ، ويسعون في أذيتهم لدى  
ولاة الأمور ، فإذا كان صاحب الامر حازماً لا يصغى للوشاية - ذكروا أن  
رجلاً نصرانياً من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شتم  
النبي ( صلعم ) فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد  
بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب  
طلبهم (٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس  
في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لأنه ظلم أبناء أهل الذمة (٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسرى من العامة  
الى الخاصة ، لرغبة الناس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق  
التماساً للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ، ويتسابقون الى  
دس الدسائس واختلاق الوشائيات . وأسهل وسائل التزلف في الدولة  
الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها ، فكان بعضهم  
يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى ،  
فإذا كان صاحب الامر ضعيفاً انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان .  
ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولاسيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة  
الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد في الاجيال الاسلامية الوسطى على  
اثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون  
باحترار غير المسلمين ، ويبالفون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء .  
وتمكنت العداوة بين الفئتين ، وكل منهما تحاول اذية الاخرى ، حتى أصبح  
النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلما جاء التتر لفتح  
بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاضم هذا التباغض على  
الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أى منذ قرن وبعض القرن ، حتى في المعاملات

(١) ابن خلكان ٣ ج ١ و ٢ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٥٧ ج ٦

الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدنية - فقد اطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر ، بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابية عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر الى مطران طائفة كفر السريان .

« ايها المكروه بالنظر والمعتقد ، أن يعقوب الكافر من طائفتم المكروهه حيث ان الملعون قد فطس وهلك ، فلأجل ادخال جنته الكريهة ضمن الارض ، قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى اخذ الخراج ، وأن تكن الارض لا تقبل جنته الخبيثة ، ولكي لا تكون سببا لفساد الهواء ، قد اعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف أن تدفن ، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فأى مسلم أو مسيحي من أهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره أو يستغريه ؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن أيضا . وقد هون علينا تصديقه أن صديقا آخر مقيما في القاهرة أكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة . وقد أخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو أن يزول تماما باذن الله (\*)

#### تحسد النصارى

على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الأذى في ابان التمدن الاسلامى لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية ببعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيرا ما كان أهل النفوذ من النصارى انفسهم اشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين ، كما كان عيسى بن

(\*) لم ينكر المسلمون أول الامر الا تولية الولاة لنفر من النصارى في الوظائف ، وقد بدأ ذلك من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اذ يحكى أنه لما عرف أن لابي موسى الاشعري كاتباً نصرانياً ضرب لخصه وقال : « الا اتخذت رجلاً خنيفاً ! » ولكن العمال لم يراعوا ذلك بعد عصر الراشدين ، كثرت تولية المسيحيين الوظائف ، على أن الغالب انهم كانوا يولون قبل القرن الثالث على اهل ملتهم ، وفي خلال القرن الثالث أنكر الناس على الوزراء مرتين تولية رجلين من النصارى ديوان الجيش سوديوان الجيش ليس الجيش ، فليس معنى ذلك ان قائد جيش الخلافة كان نصرانياً ، وانما معناه ان الكاتب الموكل بالشؤون الحسابية والادارية كان نصرانياً . وقد بالغ المؤرخون في تصوير ذلك ، فقال ابو هلال الصائبي في كتاب الوزراء ان الناس لاموا الوزير لانه « جعل انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتلئون امره » ( ص ٩٥ ) ، ولما كان كل موظف في الدولة يقسم ايمانا بالامانة قبل ان يتولى عمله فقد استحدثت في ايام الرشيد ايمان خاصة باليهود الذين يتولون شيئاً من اعمال الدولة ، وفي أواخر القرن الثالث كان النصارى قد علا امرهم وغلبوا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما كان المتوكل قد امر به من اخراجهم من الوظائف ، وكان ذلك عام ٢١٦ هـ ٩٠٩ م . ثم امر المقتدر بعد ذلك ألا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهل . غير ان ذلك كله كان مؤقتاً ، فما أسرع ما كانت الدولة تعود الى استخدامهم ، لان شعور الود والتآخي كان سائداً بين الناس ، وكانت روح التسامح هي الغالبة . وكان المثقفون من المسلمين يعلمون ان المسيحية قد حثت على المحبة ورقة القلب ، ولكنهم

شهلا الطبيب لما تولى الطبابة (١) ونال منصبا في دار الخلافة ، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه ، حتى أنه كتب الى مطران نصيبين كتابا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن أقواله له : « ألسنت تعلم أن أمر الملك بيدى ، أن شئت أمرضته وأن شئت عافيته ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانقم الخليفة منه

واعتبر ما أجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين ، وذلك أنه اصطنع أيقونة ( صورة ) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . وأوعز الى بعض خاصته أن يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها ، وهو الذى وضعها بين يدى المتوكل ، فاستحسنها المتوكل جدا ، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارا كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقلها ؟ » فقال له : « بامولانا اذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصارى يفعلون

كانوا يرون ان النصارى قلما يعملون بذلك ، ومن امثلة ذلك قول الجاحظ : « وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من قبل الروم ، ومن العجب انهم نصارى ، وهم يدعون من الرحمة والرافة ورقة القلب والكيد مالا يدعيه احد من جميع الاصناف ، وحسبك بالخصاء مثله ، وحسبك بصنيع الخاصى قسرة » ( كتاب الحيوان ، ص ٥٦ ) . ويفهم مما كتبه المقدسى عن الشام وما قاله يحيى بن سعيد البطريق ان عدد العمال النصارى هناك كان عظيما جدا ، ومما يدل على خلل قلوب الناس من العصبية ان نصر بن هارون وزير عضد الدولة استأذن سيده في عبارة البيع والاديرة ، وفي اطلاق المال لفقراء النصارى فاذن له ، بل ائتمى بعض كبار فقهاء الاسلام بأنه يجوز ان يكون وزير التنقيد - لا وزير التفويض - من اهل اللغة وربما جاز القول بأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى بدأ التعصب بين المسلمين والنصارى يظهر بصورة مبهدة للامن ، والسبب في ذلك هبوط المستوى المعيشى والثقافى للناس جميعا ، وسيطرة الجهلاء والرعاع وادعياء الدين . وفى ذلك الحين ايضا ظهر تعصب الجماهير حول الحنابلة وكثرت مهاجمتهم لغير اهل مذهبهم من المسلمين فضلا عن النصارى واليهود ، حتى اختل الامن في بغداد وأصبحت ميدانا للغوغى والسلب والنهب ، وكلما زادت الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية سوءا زادت البلية حتى كان ذلك من أسباب خراب بغداد ، وكان خرابها مقدمة سقوطها .

وكانت الحروب الصليبية ذات أثر حاسم في تطور العلاقات بين المسلمين والنصارى في الشرق الاسلامى ، فقد كانت من النصارى على الاسلام ، وأعلن الذين قاموا بها أنهم يفعلون ذلك انتقاما من المسلمين واستردادا للأراضى المقدسة منهم ، فأثاروا بغيتهم تلك وبأنواعهم في المسلمين مشاعر هؤلاء وفسدت العلاقات بينهم وبين اخوانهم النصارى ، ولم تعد العلاقات بين الجانبين الى ما كانت عليه من الصفاء الى اواخر العصور الوسطى . ثم جاء الاحتلال الأوروبى من اواخر القرن الثامن عشر ، واجتهد في التفريق بين المسلمين والنصارى ، مما كان له أسوأ الاثر في بعض البلاد العربية ، ولكن الحال تحسن بعد خروج المستعمرين وتنبه العرب الى ضرورة الوحدة وترك الخلاف في مسائل الدين ، وقالوا : الوطن للجميع والدين لله ، وأخذ التسامح يحل من جديد رغم محاولات المستعمرين التى لازالت مستمرة الى اليوم .

انظر : آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو رييدة ، طبعة ( ١ ) ، القاهرة ١٩٤٧ - الفصل الرابع : اليهود والنصارى ص ٢٤ وما يليها . (٢) يراد بالطبابة هنا تعيينته طبيبا خاصا للخليفة ، وهى وظيفة ، وتختلف عن الطب وهو علم الطب وصنعتة بصفة عامة

كذلك ؟ » فقال : « نعم يا أمير المؤمنين وأفضل مني ، لاني أنا قصرت حيث أنا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فاني أعرف رجلا من النصارى في خدمتك ، وأفضالك وأرزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويصق عليها ، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخره ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسول » فقال له المتوكل : « من هذا الذي هذه صفته ؟ » فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « أوجه أحضره ، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق ، مع ما اتقدم به في امره من التضيق عليه وتجديد العذاب » فقال : « أنا أحب أن يؤخر مولاي أمير المؤمنين امره الى أن أخرج وأقيم ساعة ، ثم تأمر بإحضاره » فقال : « اني أفعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره : « أن الخليفة أهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسنها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : هذا ربكم وأمه مصوران . وقد سألني أمير المؤمنين عن رأيي فيها ، فقلت له : مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالي به . فطلب الى أن إصق عليها فبصقت ، فاذا دعا بك افعل مثل فعلى » فصدقه حنين . ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فعالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه ، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكى طويلا ، ثم أخذها بيده وقام قائما ، فدعا لامير المؤمنين وأطنب في دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره ، فطلب الجاثليق اليه أن يتركها له . ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحيا عارفا فاني أحرمه دخول الكنيسة ومن القرى ، وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبائل ، وأمر بنقض منازل وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه (١)

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة ، فكيف في غيره من الخلفاء المعتدلين ؟ . وقد رايت من حديث حنين هذا أن الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية ، فضلا عن اعفائهم من الاسلام ، الا من اراده باختياره . وكانوا ايضا يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعباد الكبرى ، كالميلاد والشعائين ، ويخرجون معهم الى أماكن النزهة كأنهم أمة واحدة (٢) ولم يكن ذلك مقصورا على العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى أنفسهم ، وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ، ويفرح المصريون جميعهم معا (٣)

(١) طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٢ (٣) المقريزي ٤٩٤ ج ١



وكانت الحكومة اذا انشأت معهدا خيرا كان حظ اهل الذمة منه مثل حظ المسلمين ، وخصوصا المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبني لمعالجة المسلم والذمي ، فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم (١)

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصبا للدين ، حتى في ايام بنى امية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال ، فقد رأيت ما كان من خالد القسرى وغيره . واما بنو العباس فكانوا أقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم ، ناهيك بالفرق الاسلامية وتعددتها . وكان أكثر الخلفاء تسامحا في الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعيا ، وكان وزيره يحيى بن اكنم سنيا ، ووزيره أحمد بن أبى داود معتزليا (٢) يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن - وأول من قال بذلك رجل يهودى اسمه ليبد الاعصم ، الذى يقال انه سحر النبى (صلعم) . فكان ليبد يقول ان التوراة مخطوكة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه أخذ طالوت ابن أخته ، وأخذ ابان بن سمعان عن طالوت ، وأخذه الجعد بن درهم عن أبان في ايام هشام بن عبد الملك الاموى ، وأظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرعون على مثلها وأحسن منها (٣) فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسرى أمير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فآلح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد أن صلى قال : « أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا » ثم ذبحه (٤) . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد (٥) حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة - ولعله أخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه - وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وأنكروه وسموا الواثق كافرا (٦) كما سمو المأمون أمير الكافرين (٧) وكان ما كان من المحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين ، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعنا فيهم وتكفيرا لهم ، كقول أبى خلف الماعفرى :

لا والذى رفع السما  
ع بلا عماد للنظر

- |                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| (١) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ | (٢) ابن خلكان ٢٢٢ ج ٢        |
| (٣) القريزى ٢٤٦ ج ٢       | (٤) ابن الاثير ١٢٢ ج ٢٨٥ ج ٧ |
| (٥) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥    | (٦) ابن الاثير ٨ ج ٧         |
|                           | (٧) ابن الاثير ١٢١ ج ٦       |

ما قال خلق في القرا ن بظقه الا كفر  
لكن كلام منزل من عند خلاق البشر (١)

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور، لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه ، فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد ابي الجعد ستة ، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين (٢)

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين وأهل الذمة انما هى المحاسنة والعدل والرفق . وقد اتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بنى العباس ورفقهم في الجزء الثانى من هذا الكتاب . وكانوا يحاسبون الفرس وسائر أهل النفوذ من الموالى على الخصوص ، ولا سيما بعد أن صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهاهم ويطلقون أيديهم في شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكا ذريعا ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسى الاول

### العصية العربية في العصر العباسى

سياسة التقسيم (٣)

على ان المنصور كان همه متصرفا الى العرب ، لأنهم أهل عصية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما أرادوه ، لما يعلمه من جراتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهارا ولا يحملون ضيما ، وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك ، مما لا تصبر عليه النفوس الأييسة . وقد زاده حذرا منهم ما كان يسمعه من أقوالهم الدالة على ابناء الضيم ولو كان فيه ما يسوءه ، كما اتفق له وهو في بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلا ، اذ سمع قائلا يقول : « اللهم أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب أن يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقال له : « ان الذى حال بين الحق وأهله هو أنت يا امير المؤمنين » . قال المنصور : « ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع والصغراء والبيضاء في قبضتى ، والظو والحامض عندي ؟ » . فقال الرجل : « لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد وحجابا معهم الاسلحة وأمرتهم الا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع

(١) نفع الطيب ١٥٨ ج ٢ (٢) الماروف ١٥٦  
(٣) المقصود بالتقسيم هنا التفريق بين الناس وجعلهم احزابا متعادية حتى يسهل على الخليفة قيادهم

والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما أحد إلا وله من هذا المال حق . الخ »

فهذا وامثاله نبه المنصور لجراة العرب ، فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على أنسابهم ومراتبهم ، وفيهم اليمنية والمصرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وأنشأ فيها منازل الجند ، نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمصرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ هـ ان بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره في بغداد ، فأوجس خيفة من تكرار ذلك ، لعلمه أن دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه أخرجوها من يده ، وهو يعلم أيضا ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين أو غيرهم ، فليس أهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بنى العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس ، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور في ذلك قائلا : « أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ وقد خفت أن تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين عندى رأى ان أظهرته لك فسد ، وان تركته أمضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » . قال له : « أفتمضى في خلافتي شيئا لا أعلمه ؟ » قال له : « ان كنت عندك متهما فلا تشاورنى ، فان كنت مأمونا عليها فدعنى أفعل رأيى » . فقال له المنصور : « فامضه » . فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاما له فقال : « اذا كان الغد فتقدمنى واجلس في دار أمير المؤمنين ، فاذا رأيتنى قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب ، فانهض وخذ بعنان بغلتى ، وأستطعنى بحق رسول الله وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها ، فانى سأضربك فعاود وقل لى : أى الحيين أشرف ، اليمن أم مضر ؟ فاذا أجبتك فاترك البغلة وانت حر » . ففعل الغلام كما أمره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى أن قال : « مضر أشرف ، لأن منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله » . فامتعضت اليمن من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئا ، وقال بعض قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقا بغير فضيلة لليمن » . ثم قال للغلام له : « قم الى بغلة الشيخ فأكبحها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه بضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفّر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربى من ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، وقال

قثم للمنصور : « قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابا ، كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثا فتضربه بالآخر » (١) (\*)

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهناؤه بمقدمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور : « قد بقي عليك بالتدبير بقية ، وهي أن تعبر بابنك « المهدي » فتنزله في ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا ، فان فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الأخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه ، وبني المهدي بلدا سماه الرصافة - فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجا ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضا حزبين ، أحدهما ينتمى الى الفرس والآخر الى العرب ، مرجعهما الى ابني الرشيد الأمين والمأمون ، لأن الأول أمه عربية هاشمية ( زبيدة ) وأم الثاني أمة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امراته زبيدة أبطأت في الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمدا الأمين (٢) فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتى إبراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة ، وهوى بنى هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربي الربيع بن يونس وأبناؤه من بعده

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجده مولى مولى . ودخل الربيع في جملة موالى المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوما عما يتمناه منه فقال : « أن تحب ابني الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ » . فقال : « لأنك اذا أحببته كبر عندك

(١) ابن الأثير ٢٨٥ ج ٥

(\*) روى هذا الخبر الطبري ج ٩ ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ومنه نقله ابن الأثير بتحريف بسيط ، ومن رأينا أن عداوة مضر واليمن لم تثر بهذه القصة ، وانما كانت موجودة بالفعل قبل أيام العباسيين ، وقد روى المؤلف ما كان من شأنها في العصر الأموي . واذا كان ولا بد ان نقلها ففي حدود ، وهي انها دبرت للايقاع بين المضرية واليمينية من جند المنصور

(٢) السعدي ٢١١ ج ٢

صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع في أيام الهادي سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط في يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان في نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة اسباب نكبتهم

#### ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون ، فضلا عن نسبه الفارسي من امه ، قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي ، وهو الذي سعى له في ولاية المهدي (١) ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الامين . ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الامين على نقض بيعة المأمون (٢) واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند اخواله بخراسان ، والامين في اهله ببغداد ، وانتشبت القتال بين الفريقين - وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الامين (٣) . وقد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الامين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسي قد انهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعا . فلما ضاق الحال بالامين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعا اهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده أن يتبعوا اصحاب الاموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم ، فلم يزد ذلك الا ضعفا . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون ، وسيأتي تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما اخرجوها قبلا من بني أمية وسلموها الى اجداده

فاستفحل أمر الفرس في أيام المأمون وازداد العرب ضعفا ، حتى كثيرا ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضاه عنهم ، ومن اقوالهم : « يا أمير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان . . » (٤)

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية ، لانه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع

(٣) المقرئ ١٧٨ ج ١

(٢) ابن الاثير ٨٩ ج ٦

(١) ابن الاثير ٩٤ ج ٦

(٤) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦

العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعينون بالله من ذلك ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين (١) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولى مصر منهم عنبسة ابن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ (٢) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزاعها من العرب على الاطلاق ، فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد ان يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٣) فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدريج الى الخدم ، كما ستري (\*)

(١) المقرئى ٩٤ و ٣١١ و ٣١٢ ج ١ وابن خلدون ١٣٠ ج ١ (٢) المقرئى ٢٩٤ ج ٢

(٣) الفخرى ٢٥٢

(\*) لم تكن الفتنة بين الامين والمأمون في اول امرها فتنة بين العرب والفرس ، فقد كان حول كل منهما عرب وفرس ، وكان بين العرب المحيطين بالمأمون من لا يقل اخلاصا له عن حوله من الفرس ، وكذلك كان الفرس المحيطون بالامين لا يقل اخلاصا بعضهم له عن اخلاص العرب ، وانما الخلاف في اساسه خلاف بين اخوين على الملك ، فان ولاية عهد الرشيد كانت للمأمون أولا ، ولكن الامين عدا على حق اخيه وباع لنفسه ، ولم يكتف بذلك ، بل خلع المأمون من ولاية العهد وباع لابنته فكانت الحرب . بل ان بعض العرب المحيطين بالامين كانوا لا يرون خلع المأمون عن ولاية العهد ، فبينما كان الفضل بن الربيع ( وهو مولى ) وعلى بن عيسى بن ماهان والسندى وغيرهم من الفرس يحثون الامين على خلع اخيه ، كان عبد الله بن خازم ( وهو عربى ) يحذر من ذلك . وكان في عسكر المأمون المؤيد له رافع بن الليث بن مضر بن سيار وهزيمة ابن اعين وهما عربيان ، بل ان الكثير من العرب المحيطين بالامين كانوا أميل الى المأمون ، مثال ذلك العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على العباسى ، فقد ارسله الامين في وفد ليقنع المأمون بالتنازل عن حقه في ولاية العهد ، فلم يلبث ان انضم الى المأمون هذا ولم يكن المأمون فارسى الميول ، ولا الامين مرييها ، وانما كانا كغيرهما من أهل العصر يعيشون في وسط فيه عرب وفرس ، وكان كل منهما يحس انه عربى هاشمى خالص العروبة ، وربما كان ذلك اظهر في المأمون منه في الامين . ولم يتحس جند العرب للامين ويعتقدوا انه يمثلهم ، ولم ينفر العرب من المأمون ويعتبروه خصما لهم ، وكانت امور الامين بيد مولى فارسى هو الفضل بن الربيع ، وامور المأمون بيد مولى فارسى آخر هو الفضل بن سهل الملقب بلدى الرياستين

ولم يكن في جيش الامين من العرب نفر كبير ، وقد وصف طاهر بن الحسين قائد المأمون هذا النفر في قوله يصف عسكر الامين : « ان أهل الرى لعلى ( بن عيسى بن ماهان ) لهائون ومن سطوته مشفقون ، ومعه من اعراب البوادي وصعاليك الجبال والقرى كثير ، ولست آمن ان اقمتم بالرى ان يثب اهلها بنا خوفا من على » . وهذا يدل ايضا على خوف قائد المأمون من انقلاب أهل الرى عليه ( وهم فرس )

وانما تطور الامر بعض الشيء بعد انتصار طاهر بن الحسين على على بن ماهان عند الرى ، فقد كانت الهزيمة وسط بلاد الفرس ، فتشجع الفرس وتزاحموا على جيشه ، وتخاذل انصار الامين من الفرس ، وانضم الكثير منهم الى المأمون ، بل اضطرب جند الامين في بغداد نفسها ، قال ابن الاثير : « ومضى القواد بعضهم الى بعض في النصف من شوال ، فانفقوا على طلب الارزاق والشغب ، ففرق فيهم مالا كثيرا ، بعد ان قاتلهم عبد الله بن خازم ، فمنعه الامين » وقد تأكد انصراف قواد الفرس عن الامين بعد هزيمة عبد الرحمن بن جبلة وهو القائد الثانى الذى ميته الامين على جنده بعد قتل على بن عيسى بن ماهان ، فهنا نجد الفرس ينصرفون عن الامين ، لا عن عصبية للمأمون ، بل ميلا الى اخوانهم الذين انتصروا على الامين ، وكان قواد الجند في تلك الاصرع مع الغالب دائما . ولم يجد الامين بعد ذلك قوادا من الفرس يوليه ، فولى عربا من امثال أسد بن يزيد بن مزيد واخيه احمد وعبد الله بن حميد بن قحطبة ، ومع ذلك فقد كان الذى يتولى الامر للامين هو الفضل بن الربيع وهو مولى كما قلنا ، وكان يشكو من عدم اكترات الامين للامر ولهوه ، وهو المسئول عن ذلك ، لانه هو الذى هون عليه امر اخيه المأمون وشجعه على عزله ، ومع ذلك فقد أراد ان يتنصل من المسؤولية ويلقى التبعة كلها على الامين ،

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالظعن على العرب، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب - وأبو عبيدة الراوية الشهير ، وعلان الشعبي . والى الشعوبية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بنى الإنسان ، ولذلك سموهم أيضا : « أهل التسوية » ، ومن أقوالهم في الرد على العرب أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله : « المسلمون اخوة » ، تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بدمتهم أذانهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله في خطبة حجة الوداع : « ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » . وما جاء في القرآن : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . والشعوبية ينويون بدفعهم عن كل أمم الارض في ذلك العهد ، الا العرب ، فاذا اختلجوا ( أى الشعوبية ) بملوكهم ذكروا الفراعنة والتماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة ، واقتلجوا سليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبطوك الهند . واذا فخرهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى أيامهم ، وانهم جميعا من غير العرب ، الا اربعة هم : هود ، وصالح ، واسماعيل ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) . واذا فخرهم بالعلم والصناعة والفلسفة ، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب ، وفخروا بفلسفة اليونان واشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جساسة بعض الشعوبية في بعض ردوده ان قال : « فما الذى تفخر به العرب على العجم ؟ فانما هي

فقال لاسد بن يزيد بن مزيد : « ان هذا الرجل قد القى بيده القاء الامة الوكاه ، يشاور الناس ويعزم على الرؤيا ، وقد امكن مامعه من اهل اللهو والجسورة ، فهم يعدونه الظفر ويمنونه عقب الايام ، والهالك أسرع اليه من السيل الى قيعان الوجل ( كذا ) ، وقد خشيت والله ان تهلك بهلاكه ونعطب بعطبه ، وانت فارس العرب وابن فارسها ، وقد نزع اليك في هذا الاسر ولقاء هذا الرجل . . . » ولم يتم الاتفاق بين الامين ويزيد بن مزيد فحبسه واستلم اخاه احمد بن مزيد وسيره في ٢٠ ألف وسير عبد الله بن حميد بن فحطبة في ٢٠ ألف اخرى ، ولكنهما اختلجا ، فمادا دون قتال ، والغالب ان معظم الخلاف وقع بين من معهما من جنود العرب والفرس وتبين بوضوح ان الامين لم يعد يستطيع الاعتماد على الفرس . وهنا لجأ الامين الى عبد الملك بن صالح ، وكان محبوبا من أيام الرشيد ، فأطلقه وولاه القيادة واستشاره فنصح بالامتياز بحرب الشام ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، أرى الناس قد طمعوا فيك ، وجندك قد أمعنهم الهوام وأضعفتهم الحروب وامتلات قلوبهم هيبة لعدوك ، فان سيرتهم الى طاهر غلب بقليل ممن معه كثيرهم ، وهزم بقوة لينة ضعف نصائحهم ونياتهم ، واهل الشام قوم قد فرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وكلهم منقاد الى متنازع الى طاعتى ، وان وجهنى امير المؤمنين اتخذت له منهم جندا يعظم تكايتهم في عدوه . » فولاه الامين الشام ، وأصبح الامر بهذا صراعا بين العرب والفرس ، وخاصة بعد ان وقع التفور بين من بقى على طاعة الامين من جند الفرس وجنده من العرب . فلما دارت الدائرة أخيرا على الامين بدا الامر وكأنه من أوله صراع بين العرب والفرس

كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضا ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبائا مردفات على حقائب الأبل « (١) واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا : « لا يفلح العربي أن لم يكن معه نبي ينصره » (٢) وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنا فيهم . ومن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانيء وبشار بن برد وغيرهما ، على أن بشارا كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية . ومن أشهرها ألف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة ، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها . وعلى أي حال فإن السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب (٣)

(١) العقد الفريد ٦٦ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٥٧ ج ٧

(٣) الدراسات عن الشعوبية كثيرة ، وأحسن من تحدث عنها في العصر الحديث الأستاذ أحمد أمين في « ضحى الإسلام » ، ومن المستشرقين اجناس جولدسيهر ، إذ له في الموضوع بحثان مهمان هما : الشعوبية Die Shu'ubiyya في كتابه : دراسات اسلامية Mohammedanische Studien ج ١ ص ١٤٧ - ٢١٦ و « الشعوبية بين مسلمي الاندلس : Die Shu'ubiyya unter den Mohammedanern in Spanien نشره في مجلة جمعية المستشرقين الان ZDMG مجلد ٦٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠



## نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت أن الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى ، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال ، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الاكاسرة . وهم يعلمون ان ذلك لا يتيسر لهم في الاسلام الا بصيغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية . وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشجيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين ، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته ، لم ير الفرس بدا من الرضوخ لسلطانه خوفا من بأسه . على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة ، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشئون لأنفسهم دولة شيعية وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه ، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من أحدهم ميلا الى التشيع مزلوه أو قتلوه ، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم ، والخلفاء يثبون عليهم العيون في منازلهم ، كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود ، وأصله من موالي العرب ، وكان في بادئ أمره كاتباً عند إبراهيم بن عبد الله العلوي الحسني أخى محمد بن عبد الله الذي قام في المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ، ثم رجع في جملة الراجعين ، وكنتم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأجبه كثيراً ووثق به ، حتى أخاه وأعلن ذلك في الدواوين ، فقال سلم الخاسر في ذلك :

قل للامام الذي جاءت خلافته تهدي إليه بحق غير مردود  
نعم القرين على التقوى أمنت به أخوك في الله يعقوب بن داود

وأحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيماً ، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاستغال من مصالح الدولة ، وتفرغ هو للعمل ، والعرب لا يعجبهم ذلك ، فجعلوا يعرضون به بالاشعار ونحوها ، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها - روى أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قراها فاذا هي :

لله درك يا مهدي من رجل  
لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه اكتبوا تحته : « على رغم انك الكاتب لهذا وتعسا  
لجده »

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية  
من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « ان يعقوب يميل الى  
العلوية ، وانه كان معهم عند قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره ، وكان  
يعقوب يكتنم ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنه . فلما به يوما وهو في مجلس  
فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم أظهر المهدي  
انه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضا ، ثم تقدم اليه بمهمة  
طلب قضاءها - وهى أن رجلا من العلوية يريد المهدي أن يتخلص منه ،  
فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الايمان . وذهب الى  
منزله واستقدم ذلك العلوى وكلمه فراه ليبيبا ، وتوسل الرجل اليه أن  
يحقق دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال .  
وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما  
جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه ، واثى بيعقوب  
فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطابق عدة سنين ، ولم يخرج الا في السنة  
السادسة من خلافة الرشيد ، شفع له يحيى بن خالد البرمكى ، لأنهما من  
طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة  
حيث يشاء ، فاختار مكة فسيره اليها وتوفى فيها سنة ١٨٧ هـ وهى  
السنة التى تكب فيها البرامكة (\*)

### الوزراء البرامكة

#### مرتبتهم في الدولة

لما توفى المهدي والهادى وأفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ،  
لأن خالدا جدهم من قواد أبى مسلم ، وقد جاهد في نصره العباسيين جهادا  
حسنا ، فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم .  
وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغ أحد من ولده مبلغه في الجود  
والرأى والبأس والعلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأى ،  
وكان مقربا من المهدي يعول على رأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه  
الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربى الطفلان معا

(\*) روى هذه الاخبار محمد بن عبدوس الجعفي في كتاب الوزراء ، القاهرة ١٩٣٨ م

فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ، وفي ذلك يقول سلم الخاسر : (١)

أصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه : « يا أبت » ، فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان أكبر رجال الدولة المقرين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت أبيه وهم في تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأى كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في أيام أبيه وويخ الربيع (٢)

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال . فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

(٢) الخبر مختصر هنا بعض الشيء ، ولا يأس من روايته بنصه كما ساقه ابن الاثير ( ٥ / ٧٣ - ٧٤ ) لانه ينبيء عما كانت الدولة العباسية تعانيه في ذلك الوقت المبكر من الاضطراب في مسألة وراثة العهد والخوف من الجند واختلاف الوزراء والناصحين فيما بينهم . وقد روى ابن الاثير هذا الخبر بعد حكايته لموت المهدي بماسبذان من أعمال جرجان : « ولا توفي المهدي كان الرشيد معه بماسبذان ، فأتاه الموالي والقواد وقالوا له : ان علم الجند بوفاة المهدي يؤمن الشعب ، والرأى أن تنادى فيهم بالرجوع حتى تواريه ببغداد » ، فقال هارون : ادعوا الى أبي يحيى بن خالد ( البرمكي ) ، وكان يحيى يتولى مكان إلى الرشيد من أعمال المغرب من الانبار الى افرقية ( أى الجزء الغربى من الدولة ) ، فاستدعى يحيى الى الرشيد ، فقال : ما تقول فيما رأى هؤلاء ؟ وأخبره الخبر ( أى كتمان أمر وفاة المهدي ) قال : لا أرى ذلك ، لان هذا لا يخفى ، ولا آمن اذا علم الجند أن يتعلقوا بمحملة ويقولوا : لانخلى حتى نعطى لثلاث سنين أو أكثر ، أو يتحكموا ويشتلوا ، ولكنى أرى أن يوارى رحمه الله هنا ، وتوجه نصيرا ( أحد الموالي ) الى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والتضييب والتعزية والتهنئة ، فان الناس لا ينكرون خروجه ، اذ هو ( أى نصير ) على يريد الناحية ، وان تأمر لن تبعك من الجند بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالرجوع ، فلا تكون لهم همة سوى أهلهم . ففعل ذلك ، فلما قبض الجند الدراهم تنادوا : بغداد ! بغداد !

فلما بلغوها ، وعلموا خبر المهدي أتوا باب الربيع ( بن يونس ) وأحرقوه ( غضبا عليه ، وقد كان الربيع وزير المهدي ، فظنوا انه هو الذى كتم عليهم الخبر وضيع عليهم فرصة المطالبة بمال أكثر ) وأخرجوا من كان في الجيوش وطالبوا بالارزاق . فلما قدم الرشيد أرسلت الخيزران الى الربيع والى يحيى بن خالد تستدعيهما لتشاورهما في ذلك ( وكانت الخيزران أميل الى تولية الرشيد ) ، فلما الربيع قد دخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي . وجمع الأموال حتى اعطى الجند لستين فسكتوا . وكتب الهادي الى الربيع كتابا يتهدهه بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ويأمره بأن يقوم بأمر الرشيد . وكان الربيع يود يحيى ويشق به ، فاستشاره فيما يفعل خوفا من الهادي ، فأشار عليه بأن يرسل ولده الفضل الى الهادي بالهدايا والتحف ، ويعتذر اليه ، ففعل ورشى الهادي عنه . وكان الربيع قد أوصى الى يحيى بن خالد ، وأخذت البيعة للهادي ببغداد . وكتب الرشيد الى الأفاق بوفاة المهدي ، وأخذ البيعة للهادي وسار نصير الوصف الى الهادي بجرجان ، فلم يبق بوفاة المهدي والبيعة له ، فتنادى بالرحيل وركب على البريد مجدا ، فبلغ بغداد فى ٢٠ يوما ، ولما قضاها استوزر الربيع ، وفى هذه السنة أيضا هلك الربيع »

فوافقوه ، وخلصوا هرون وباعوا جعفر بن الهادي ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فامر الهادي الا يسار بين يديه بالحربة ، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد ، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضى هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرصه على التمسك بحقه في ذلك ، فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه ، فبعث الهادي الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالي ولك ؟ » . قال : « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بيني وبين اخي وتفسده علي ؟ » فقال : « من انا حتى ادخل بينكما ؟ انما صيرني المهدي معه ، ثم امرني انت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادي بهذا القول . فافتنم يحيى رضاه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة اخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » ، قال : « صدقت » وصرفه

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو في الحبس : « ان عندي نصيحة » فاحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرايت ان كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله ؟ ( يعني موت الهادي ) اتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشيد ، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما أظن ذلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو اليها اكابر أهلك مثل فلان ، ويطلع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي أن تعقده أنت له ، فكيف بأن تحطه عنه وقد عقده المهدي ؟ ولكنني أرى أن تقر الأمر على أخيك ، فاذا بلغ ( جعفر ) أشده اتيت بالرشيد فخلع نفسه له وباعه » فقبل الهادي قوله وعمل به (١)

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة ، وأفضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى أول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم ، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له : « يا أبت أنت أجلسني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الأمور وإبرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « أباي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

الم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هرون أشرق نورها ؟  
بيمن أمين الله هرون ذي الندى فهرون واليها ويحيى وزيرها (ج)

(١) ابن الأثير ٢٩ ج ٦  
(ج) ابن الأثير : الكامل ٨٢/هـ ، وقد ورد البيتان في الاغانى ( ٢٨/هـ ) بصورة اخرى :  
الم تر ان الشمس كانت مريضة فلما ولي هارون اشرق نورها  
فالبست الدنيا جمالا بوجهه فهارون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى اولادا احسنهم الفضل في جوده ونزاهته ، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد في بعد همته ، وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة ، وخصوصا جعفر والفضل ، فضلا عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوهم يحيى جوادا مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلا للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » اى جاد وسخا (\*)

وأراد الرشيد اكرام يحيى ، فولى ابنه الفضل وجعفر اعظم الاعمال ، فقسم المملكة بينهما ، فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الانبار الى افريقية ، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى اقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا (\*\*) وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقم فيها الا قليلا ، فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن ينقلها الى جعفر فخطب اباهما قائلا : « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر ، وقد استحيت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت اليه » . فكتب يحيى الى الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » ، فأجابته الفضل : « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غريت عنى رتبة طلعت عليه » (١)

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوبا له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر في المملكة تصرفا مطلقا ، لم يكن يمضى أمرا الا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف مملكته أو تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمى ما يمثل ذلك الاطلاق أحسن تمثيل : كان الرشيد متغيرا على عبد الملك لأنه من بنى عمه وله طمع في الخلافة ، فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا اليه أن الرشيد متغير عليه ، فقال له : « قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : « وعلى... ر... درهم ديننا » ، قال : « تقضى عنك وانها لحاضرة ،

(\*) ويقال أيضا : تبرمك الرجل ، اى ساد وبلغ من السلطان مبلغا عظيما وتصرف في الامور وأدركه البطر . انظر دوزى : ملحق القواميس ، مادة : برمك  
(\*\*) أى بقايا الضرائب المتخلفة من الاعوام الماضية ، وكان العمال يطالبون الناس بها ويرهقونهم . ويسمى الغاء البقايا أيضا بالسامحة  
(١) الغفرى ١٨٦

ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك . .  
 قال : « وإبراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » .  
 قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه  
 على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » .  
 وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند  
 نفسه ، وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة ، فما عثم أن علموا  
 بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول : « أحسن أحسن » (١)

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع  
 ذلك فان الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه تكبه وتكب سائر اهله نكبتهم  
 المشهورة ، واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره

### نكبة البرامكة

#### الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل  
 العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد  
 فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين ، رأى من  
 الحكمة وسداد الرأي أن يفضى عن ذلك الامر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم  
 للمنصور . وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع  
 الشيعة العلوية من ايثار آل علي ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصا في  
 خلافة الرشيد ، لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم  
 ويقتلهم (٢) وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة .  
 فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبين جميعا من بغداد الى المدينة (٣)

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء  
 العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يجسرون على الظهور في حياته . فلما  
 مات ودفن في طوس ، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعا  
 بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى  
 اجتماع القبرين في طوس - قبر الرشيد وقبر الرضا - قال :

ليس حتى من الاحياء نعلمه	من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك آيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والجزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبنى العباس من عذر

(١) ابن خلكان ١٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٤٢ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٧ ج ٦

أربع بطوس على القبر الزكي اذا ما كنت تربع من دير الى وطر  
قبران في طوس : خير الناس كلهم وقبر شرهم ، هذا من العبر !  
ماينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر  
هيئات كل امرئ رهن بما كسبت له يدها فخدماشئت أو قدر (١) (ج)

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية، ويعدون عمله حراما (٢) ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سرا بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر ، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الاعلى عند الرشيد ، ويذكرون أعمال الرشيد ، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه ، ولكن حساده في بلاط الخليفة - وأكثرهم من العرب أو من ينتمى اليهم - كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدّهم غيظا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم المؤمنين ، لانه فضل ابن ضرته المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا في الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذك الله » وطلب اليه أن يحلف على ذلك ثلاثا ، فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به (٣) فضلا عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب ، وخصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيباني ، فان البرامكة أضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم (٤) غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم (٥)

هؤلاء جميعا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر ، تارة من حيث تشيعه وطورا من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالاهوال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه في تنظيم دولته وأحياء معالمها ، وان يكن ساء ما يبديه جعفر أحيانا من نصرة العلويين أو استنصارهم، فان جعفر

#### (١) الاثنى ٥٧ ج ١٨

(ج) قال ابو الفرج بعد ان روى هذه الابيات لدعبل الخزاعي : « يعني قبر الرشيد وقبر ( على ) الرضا عليه السلام ، فهذه واحدة ، واما الثانية فان المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس اليه قوله ... الخ » . وقد روى الاصفهاني هذا الخبر في معرض الكلام عن تعلق دعبل بالعلويين وأنه على رغم احسان الرشيد اليه لم يكذب بسمع بموته حتى قال فيه هذا الشعر بهجوه . وقد فعل دعبل مثل ذلك مع المأمون ، فان هذا قد استرضاه واحسن اليه ، فاقبل عليه وانشد الشعر ، ولكنه قال رغم ذلك شعرا في هجائه

(٢) الاثنى ٧٦ ج ٢٠ (٣) السعدي ١٩٥ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧١ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٧١ ج ٦

لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر وجلا شيعيا (١) فكان الرشيد صابرا على ذلك يتربص الفرص

#### الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم - قبل قيام العباسيين - من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجارة لأبي مسلم أو خوفا منه . فلما رأوا ما حل به من القتل غدرا ، غضبوا وتعاهدوا على الاخذ بثأره ، ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم ، ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي إلى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب ، وأخذوا يبتشون دعائهم وينشرون دعوتهم سرا ، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاما من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملا بتعاقدهم عليه

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين واهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس . وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد ابن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكتة حتى خافه الرشيد ، فسرح إليه الفضل بن يحيى ، فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى ، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه ، فكتب له أمانا أمضاه الرشيد وجلة بنى هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى إلى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقا سنوية

ثم خطر له أن يحبسه خوفا منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشعار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر - وهو أبو البختری القاضي : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه إلى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لانه جاء على الأمان وقد نكت الرشيد الأمان ، فحدثته نفسه أن يطلقه بما له من النفوذ والدالة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث إلى يحيى المذكور من الحبس فخطبه ، فتوسل الرجل إليه وقال : « اتق الله في امرى ولا تتعرض ان يكون غدا خصمك محمد ( صلعم ) فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال : « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : « وكيف اذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه إلى مأمته (٢)

(١) السيوطى ١٠ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦



وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصا الفضل بن الربيع ، لانه كان يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه اليها أولئك العجم، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل وأظهر أن جعفر انما فعله بأمره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقيه ويحادثه ثم سأل عن يحيى فقال : « هو بحاله فى الحبس » فقال : « بحياتى ؟ » ففطن جعفر فقال : « لا وحياتك ٠٠ » ، وقص عليه أمره وقال : « قد علمت أنه لا مكروه عنده » ، فقال الرشيد : « نعم ما فعلت ، ما عدوت ما فى نفسى » . وقد كظم غيظه وعزم على الإيقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال فى نفسه : « قتلنى الله ان لم أقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بنى هاشم أنفسهم

وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما فى نفس الرشيد عليه ، فأظهر أنه يريد أن يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوما (١) فهو اما ولاء اياها تمويها أو ولاء ثم خافه

وكان فى جملة حساد البرامكة على بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى ابن يحيى أخى جعفر واتهمه فى أمر خراسان ، وأعلم الرشيد أنه يكتابهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعا وظهر ذلك فى بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد فى بعض حديثه استهجانا ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه ألا يقوموا له ، فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شرا يصيب البرامكة وليس من يجروء على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون فى أثناء الغناء بما يخافونه عليهم - ومن ذلك ما كان يفنيه ابن بكار أحيانا :

ما يريد الناس منا ؟ ما تنام الناس عنا ؟

انما همهم أن يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف أنصار البرامكة اذا هو فتنك بهم ، فأراد أن يستطلع أفكار خاصته فى هذا الشأن ليرى وقعه

في قلوبهم ، والمغنون أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بما يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنية اسحق الموصلي مرة : « بأى شيء يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولى الفضل ابن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « ما أنت وذاك ؟ ويلك ! » فأمسك (١)

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم أنفاسهم فلا يخلو أن تبسدر منهم بادرة تلميحا أو تصريحاً ، والوشاة يعظمونها له

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزيان رباهما وأهداهما الى جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يومياً . وكان لجعفر مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الاسبوع ، يحضره أرباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس ، يلبسون أثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبسون هو مثلهم . ففي أحد هذه المجالس دار الكلام على أبى مسلم وبطشه ، وكيف استطاع وحده أن ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر : « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠.٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرا ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم » (٢) وكان الغلامان الخزيان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد ، وأفهماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس أو العلويين ، فازداد خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها ( سنة ١٨٧ هـ ) كان الرشيد قادما من الحج وقد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان ، أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكراً بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد أن يتوسط في اصلاح ما بينهما ، فجاء جعفر في أثناء تأهبه للخروج الى خراسان ، وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله ، فقال له : « يا سيدى أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة

المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلك عندك . فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال : « والله يا اسماعيل ما أكل الحبز ابن عمك الا بفضل ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا . أما كفى أنى تركته لا يهتم بشئ من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيت أمواله مالا ، وما زلت للامور الجلبيلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبقيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألتني شيئا من ذلك ليكون وبالا عليه ! » كأنه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه ، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد ، لأنه صار متهما عندهما

فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله اليه ، فصمم على الفتك به . ولعله كان ينوى القبض عليه وحبسه فقط ، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله . وأكبر الإقدام على ذلك ، فاستشار زبيدة امرأته، وصرح بما يجول في خاطره قائلا : « انى خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الامر من يدي » فحرضته على سرعة الفتك به ، ويقال انها ذكرت له أمورا ارتكبتها جعفر في بيت الرشيد (١) تتعلق بالعباسة أخته . فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه ، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد، وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه ، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلا ، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلديات قبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم ، ولم يتعرض لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم ، وأسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى (٢) وقد أصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز ، اذا اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله (٣)

فالرشيد فتك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه، عملا بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم ، اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله . وهى غير سياستهم في معاملة رعاياهم ، فانها كانت مؤسسة غالبا على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق ، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى ، واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا ، حتى جرى خبره فجرى الامثال . أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم (٤) ولا فيمن

(١) الايليدى ١١٢ (٢) الاغانى ٧٤ ج ١٧ (٣) المسعودى ١١٩ ج ١ (٤) الفخرى ١٧

يدعو اليهم أو ينصرهم (✽)

### الامين والمأمون أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان وتضاعفت نفقتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الاخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة ، وتربصوا بترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لان أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية . ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم ، وانما كانت حزبا سياسيا يراد

(✽) لانهما قضية البرامكة هنا من حيث ماوقع بينهم وبين الرشيد ، فهذه مسألة مكانها كتاب في التاريخ السياسي العام للدولة الاسلامية ، ولكنها تهمننا من حيث دلالاتها الاجتماعية ، فان تاريخ آل برمك يمضي بنا في عمق تكوين الادارة العباسية ، ويطلعنا على حقائق كثيرة تتعلق بطبيعة رجالها وأساليبهم في العمل وغاياتهم من ورائه . والبرامكة خير نموذج لمثل هذه الدراسة ، فان بيتهم يسر موازيا لبيت العباسيين من اول الامر ، ولم يبلغ جعفر بن يحيى البرمكي عندما امتن على الرشيد بأفضاله عليه وافضل أهل بيته على البيت العباسي ، ففى محاذاة كل عباسي نجد برمكيا لا يقل عنه مهارة او قدرة ، بل ان تاريخهم في الاسلام يرجع الى ما قبل الدولة العباسية بكثير ، يرجع الى أيام الفتح نفسه . والراى السائد ان آل برمك كانوا أول أمرهم مجوساً ، وانهم كانوا سدنة لبيت النار المسمى نوبهار . وقد أثبت بارتولد ان نوبهار لم يكن بيت نار ، بل ديراً لرهبان البوذيين ، وقد تحدث عنه السائح الصيني هيوانج شوانج ، ووصفه في القرن الثامن الميلادي ، وترجم الوصف St. Julien في كتابه :

Mémoires sur les contrées occidentales, I, 30 sqq.  
Histoire de la vie de Hiouen-Tsang, p. 64.

وانظر ايضا :

Browne, A literary history of Persia, p. 257.

وقد استولى العرب على بلخ وخرابوا النوبهار عام ٦٦٢/٤٢ - ٦٦٤ . ويقال ان برمك رئيس الدبر اسلم اذ ذاك ، ولكن ذلك مشكوك فيه . وقد دخل برمك في خدمة المسلمين منذ أيام الامويين ، ويقال ان زوج برمك وقعت أسيرة بيد قتيبة بن مسلم فتسراها أخوه عبد الملك ، وحملت منه بخالد ، ثم أطلقها بعد ذلك ، وهناك من يقول ان خالدًا فارسي الاب والام ، وان أمه ابنة أمير الصافئانيين . ويقال ان برمك كان ماهرا في الطب ، وأنه شفى الامير مسلمة بن عبد الملك ، ودخل في خدمة عبد الملك بن مروان . اما صلة البرامكة بالعباسيين فترجع الى أيام الدعوة السرية الاولى ، أيام كان الدعاة يدعون للرضا من أهل البيت ، دون نص على عباسي أو علوي وكاد يصيب برمك ما أصاب ابا سلمة الخلال عند قيام الدولة ، ومن المعروف ان ابا سلمة راح ضحية الحركة السرية التي قام بها ابو العباس واعمامه فاخطفوا بها الخلافة بواسطة ابي مسلم ، ولم يقر الكثيرون من انصار الدعوة ذلك ، او فوجئوا به فترددوا بين ما كانوا يدعون له من العلوية وما صار اليه الامر بالفعل من العباسية . فتخلص ابو العباس من المترددين في سرعة وقسوة ، وكان من الضحايا ابو سلمة وغيره . واذا كان برمك قد تردد ، فان ابنه خالدًا لم يتردد في الالتقاء بطاعته كاملة الى العباسيين ، وتذهب الروايات الى أنه ربي في بيت العباسيين ، وتقص في ذلك قصصا طويلا يحتاج الى دراسة . والثابت ان خالدًا بلغ مبلغا عظيما من السلطان أيام المنصور ، وولى له الوزارة . وقد قدم خالد للمنصور هدية قدرها ٧٠٠.٠٠٠ درهم ليفوز لنفسه بولاية الموصل ، ولابنه يحيى بولاية آذربيجان . وعندما تولى الرشيد ترك يحيى آذربيجان وأقبل ليتولى وزارة الرشيد ، وقد أطلق له الرشيد الامر ، فأصبح صاحب سلطان مطلق خطر ، وهو لا يسأل عن ذلك ، وانما يسأل عنه الرشيد فهو الذي سلم اليه ذلك ، وكان الرشيد اذ ذاك صغيرا لا تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، وقد استعان يحيى بابنيه الفضل وجعفر ، فاما الفضل فكان خذرا قليل الاختلاط بالرشيد في حين أن جعفر أسرف في ذلك اسرافا كانت نتيجته هلاكه . وليس من الضروري ان ترد انقلاب الرشيد على جعفر

به جماعة الفرس أو غيرهم من أنصار العلويين . فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة أظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل ابن سهل السرخسى لخدمة المأمون . والفضل أصله من مجوس خراسان ، أسلم على يد المأمون (١) سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعا في نصرة الفرس في خراسان ، وكان هماما فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا ، فتوقع أن تصير الخلافة إليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجعله ويقدمه ، ولم يكن الفضل طامعا في أقل من الوزارة - يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل وأكرامه إياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠ درهم » فاغتناظ الفضل وقال : « والله ما صحبتته لأكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكنى صحبتته ليمضى حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب » (٢)

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق (٣) على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة ، وفي جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ أن يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون أن يبقى في بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضا ، فخاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرا ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم ،

الى علوية كان يسترها جعفر ، فقد كان بعيدا عن هذه النواحي العاطفية ، وكان يتمتع بسلطان لا مزيد عليه ، وليس من الضروري أيضا أن نلقى بالا الى ما يقال من صلة جعفر بالعباسة ، فهذه أسطورة مستبعدة الحدوث ، وليس هناك ما يؤيد مسلك جعفر في مسألة يحيى بن عبد الله العلوى ، فقد روى المؤرخون مثلها تماما فيما يتصل بالمهدى واحد العلويين ، وأنها الحقيقة أن السلطان الذي وصل اليه جعفر كان عظيما جدا ، ومسئوليته خطيرة ، وكلما مضى الزمن زاد تمكن جعفر وسلطانه وكثرت وشايات الحساد فيه . وكان بلاط العباسيين حافلا بالحسد والحساد ، وكانت الكراهية بين رجال البلاط عظيمة ، وكل منهم يقيم الجوايس على الآخر . وكان في خلق الرشيد عاطفية وخجل واضطغان . أشف الى ذلك أن مناسبات الحريم كانت على انصافها ، وكل واحدة من نساء الرشيد ترجو أن يكون الامر لابنها ، وقد اتخذ يحيى من اول الامر موقفا معارضا لزبيدة ام الأمين ، فعملت على التخلص منه . ومما يلاحظ أن الرشيد لم يفضب على البرامكة كلهم ، بل على جعفر فقط ، ثم أخذ الباقيين بجبريته ، ثم أشف على ما فعل بعد فوات الفرصة

انظر - بالإضافة الى الطبرى ، وهو اوسع المؤرخين تفصيلا في هذه الناحية - شياء الدين البرنى : « اخبارى برمكيان » ، قطعة نشرها Schefer في 11, 2-54 Christometie Persane والمسدودى : « مروج الذهب » ٣٦١ / ٤ - ٣٦٢ وانظر مادتي الرشيد وجعفر عند ابن خلكان (١) ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٠٣ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

فأطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه ، فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ، ثم أجاب - ولابد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره ، وهو يتوقع قرب أجله ويرى لولاده عليه رقباء (١) يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل في أثناء الطريق بتأييد أمر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، وأقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد ، وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر ، والمأمون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالأمين . فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى أهلهم وأولادهم في بغداد ، وأغفلوا اليهود التي أخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين ، وتمت البيعة له . ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل

#### الفضل بن سهل وعلى الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه ، ورجوع رجاله الى أخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرور وشاورهم في الامر ، وأظهر لهم ضعفه وأنه لا يقوى على أخيه ، فنشطوه ووعدوه خيرا . وقال له الفضل بن سهل : « أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم . اصبر وأنا أضمن لك الخلافة » ، فاطمان خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أي رياسة السيف ورياسة القلم

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون ، لأنه انما يعمل لنفسه ووطنه وأمته ، واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاطمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون ، وهم الفرس بقيادة ظاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، أصبح آلة بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة ، وولى أخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على أن يكون مقامه في بغداد . ثم اغتنم

هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، المعروف بعلي الرضا . فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعته على الرضا بولاية العهد بعده ، أي أن يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطا لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، أو أنه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجابه المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، أو مجازاة له للمكر به ، أو أنه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع (١) فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، وثقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين وليس الحضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون وأتباعهم ، وأعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور ، وقالوا : لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا أن تلك البيعة انما هي دسياسة من الفضل بن سهل ، فأذكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد . وأقرؤا أخيرا على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع عليا فيذهب سعيه عبثا . وكان على الرضا مطالعا على ما حدث في بغداد ، وأبت نفسه أن يحدث ذلك بسببه ، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وأنهم بايعوا ابراهيم ابن المهدي . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال : « بل هم ولوه عليهم في آثناء غيابي ، كذلك أخبرني الفضل » . فقال له : « ان الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسياسة الفضل ، وأنه انما نصره لهذا الغرض ، وشك فيه فحل قتله عنده ، فدس اليه أناسا قتلوه في الحمام بسرخص مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (٢)

وفكر في بيعته على الرضا ، فأعظم أن يرجع عنها وخاف اذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من أطعمه عنبا مسموما فمات (٣) فذهبت الاسباب التي أغضبت أهل بغداد ، فظلموا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعته المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع المؤمنين في تلك الثورة ، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعاً للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبي طالب، اضطهدهم

(١) المسعودي ٢٢٤ ج ٢

(٢) ابن الأثير ١٤٣ ج ٦ والفخرى ١٩٩ والاغانى ٢١ ج ١ وابن خلكان ٤١٤ ج ١

(٣) ابن الأثير ١٤٤ ج ٦ والفخرى ١٩٩

ومنعمهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد (١)

فاضطرب أمر الشيعة في بغداد ، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم ، لانه كان قد ربى من حدائثه بين جماعة أهل عصبية عربية يكرهون الفرس أو الشيعة ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجي ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة ، الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالى بني أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت أقوالهم فيه ، وشب على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله ، وهم المأمون والمعتصم والواثق (٢) كما أثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا اليه الشيعة وأهلها (٣)

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ في بغضه عليا وأهل بيته حتى جعله سخرية - ذكروا أنه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبها بالامام علي ، ويرقص ويقول : « قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » ( يعني عليا ) والمتوكل يشرب ويضحك (٤) وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك ، كما سيأتى . وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافة المتوكل ينقضى العصر الفارسي الاول

(١) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٢ ج ٧

(٣) كشفت حرب الأمين والمأمون عن نواحي الضعف في الدولة العباسية بصورة تلقى ضوءا على كثير من الحوادث التي وقعت قبلها . فقد بدا بوضوح ان الامور المالية كانت مضطربة من زمن بعيد ، وان خزائن بغداد كانت خاوية تقريبا ، وأن الجند هم أصحاب الكلمة العليا ، وانهم كانوا شراذم من العتاة لا يحرصون على شيء قدر ما يحرصون على ما يصيبون من مال ، ويكفى ان تستعيد مشهد قتل الأمين حتى تستدل على ان الدولة فقدت الهيبة وان القلوب فقدت الايمان والرحمة - أما ما يقال من مبايعة المأمون لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد ، فلم يكن ذلك الا حيلة منه اراد ان يكسب بها تأييد أهل بغداد ، فلما رأى ان حيلته لم تنفع انصرف عنها . كذلك كان رجال الدولة من طراز سوء جدا ، وظاهر بن الحسين نفسه نموذج سوء لرجال الحرب ، فهو لم يثبت فيها كفاية ، بل غلبه سوفة بغداد مرارا . فكان يلجأ الى حرق البيوت على الناس . ولما صار الأمين في يده أمر به بقتل على صورة لاشهامة فيها ولا مروءة ، وكان الفضل بن سهل أسوأ من طاهر بن الحسين ، اضاف الى ذلك ان البيت العباسي نفسه كان خلوا من الرجال الذين يعتمد عليهم ، وفي تصرفات المأمون نفسه ما يدل على أنه لم يكن خيرا من أخيه الأمين ، وكان الأمر قد وصل الى ان أصبحت الخلافة غنيمة لمن غلب ، وإذا كانت الدولة قد استقامت بعد ذلك ، فقد كان ذلك مصادفة ، وكان ظاهرا ان الدولة في حاجة الى انشاء جديد ، وبدلا من أن يهتم المأمون بذلك جعل همه تكوين جنس جديد من المحاربين ، فبدلت قصة الاتراك وحلوا بعد قليل محل الفرس ، ولم يحسن انشاء القوة الجديدة ، فلم يلبث الاتراك ان صاروا أسوأ من الفرس

(٢) أبو الفداء ٤٠ ج ٢



### الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ، ولاسيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من أول دولتهم ، وخصوصا المنصور مع أعمامه وأبى مسلم وغيرهم، وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل بن سهل وعلى الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطا من شروط نجاحها ، كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ أن يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه . فثبت الخليفة العيون على قواده ووزرائه ، ووزرائه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل وجارته عينا عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو أخوته، أو يقيم ولاية العهد الرقباء على آبائهم، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون أنفاسه (١) كما تقدم

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي ، فالزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جلا أو هزلا (٢) وهكذا كان سائر الخلفاء ، وخصوصا في أواخر الدولة ، لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم ، كما سيجيء . وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو أصحاب الاخبار، غير ما كانوا يبتونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الاغراض - كانوا يفعلون ذلك خوفا على سلطانهم ، فبالغوا في التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شيء الا القدح في انك وإفشاء السر والتعريض بالحريم (٣)

وبمحافظةهم على الاسرار والتكتم في أعمالهم ، أشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في أيامهم ولم يفهموا أسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون في تدوينها رجما بالقيظ ، وذهبوا في أسبابها كل مذهب . وكمن قتل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك ، وانما قتل مسموما بدسياسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاية العهد الى طبيبه أو صاحب داره (٤)

(١) ابن الاثير ٨٣ ج ٦ (٢) الاغانى ٨٢ ج ٢٠

(٣) المسعودى ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١

### اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولودا من أبوين عربيين ، فإذا كان أبوه غير عربي سموه المذرع ، وإن كانت أمه أعجمية سموه الهجين . وإذا كانت أمه أمة استعبدوه ، فإذا أنجب (١) اعترفوا به ، والا ظل عبدا ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم

#### ابناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرها ، وكثرت السبايا في أثناء الفتوح، اتخذوا من النساء أظنارا ودابات ومراضع، واقتنوا الجوارى للفساش ، وكانوا في بادئ الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون أبناءهن ، وخصوصا في الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من الاماء ، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وفاقوا أهل المدينة فقها وعلماء وورعا فرغب الناس في السراي (١)

على أن بنى أمية ظلوا يحتقرون أبناء الاماء ، تعصبا للعرب على المعجم ، فبلغ عبد الملك يوما أن علي بن الحسن تزوج جارية له وأعتقها ، فكتب اليه يؤنبه فاجابه علي : « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة وأتم النقيصة وأكرم بهمن اللؤم ، فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله (صلم) قد تزوج أمته وأمرأة عبده » ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال : « ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » . على أن العرب أصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجنساء ، اعتمادا على أن النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر :

لاتشتمن امرا من ان تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء  
فانما امهات القوم اوعية مستودعات ، وللأحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بنى الاماء الى أواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في أيام هشام بن عبد الملك عره هشام بقوله : « أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، ان الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم اسماعيل أمة لام إسحق ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا وجعله للعرب آبا ، فأخرج من صلبة خير البشر محمدا » (٢) فالطويون كانوا أقرب للاختلاط بغير العرب ،

(١) أي إذا ظهرت نجاسته

(٢) المقيد الفريد ٢٢٦ ج ٢ (٢) المسعودي ١٣٠ ج ٢

استنكافا من شدة تعصب بنى أمية للعرب ، ولذلك كان الموالي أكثرهم من شيعة العلويين

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر أبناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة - ذكروا أن عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

الم انهكم ان تحملوا هجناءكم	على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المران: هذا ابن حرة	وهذا ابن أخرى ظهرها مشترك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه	وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركنه خالاته فتزغنه	الا ان عرق السوء لا بد يدرك
وهاك ما قاله حاتم الطائي :	

وما انكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناها بأسافنا قسرا
فما زادها فينا السبأ مذلة	ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
ولكن خطبناها بخير نسائنا	فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية	اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا
وياخذ رايات الطعان بكفه	فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللثيم تخاله	اذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا (١)

على ان طبيعة العمران غلبت على ما اراده الامويون من حفظ النسب العربي، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى في الخلفاء من بنى أمية ، فبايعوا في اواخر دولتهم لابناء الاماء . واول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن أمه كانت من نسل يزدرج بن كسرى ، سبها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد (٢) ويقال ان بنى أمية حظروا مبايعة بنى الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن أمة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده ، فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات ، ووُثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية، فذهب ملكهم على يده

#### الخلفاء الهجناء

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي ، وقد ضعفت في أيامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لا يعتدون بالام على الاطلاق ، وكان أكثر خلفائهم من بنى الاماء من ابراهيم الامام فما بعده، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك أسماء بعض خلفاء بنى العباس من أبناء الاماء :

(١) العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية (*)	المستعين بالله	صقلية
ابراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الأخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي أمه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الأموي أمه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الإسلام ، فان محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء

فإذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء ، فكيف في سائر طبقات الناس؟ فالنسب العربي لم يكن خالصا إلا في الجاهلية وصدر الإسلام إلى أواسط الدولة الأموية ، وظل بعد ذلك محفوظا من حيث الآباء فقط ، أما من حيث الأمهات فانه اختلط اختلاطا عظيما . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه ، وربما كان من حيث الأخلاق أقرب إلى أمه مما إلى أبيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم العربي الخالص ، إلا في البادية أو حيث لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الأقاليم التي نزلوها وعادات أهلها

فالعرب الحضري في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الإسلام فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب إلى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا يعدون من العرب ، وهم في الحقيقة أخلط من العرب والترك والديلم والجرکس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادئ الرأي غريبا ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان اولاده مولدين ، فاذا توالى عليهم الاجيال سموا عربا

(\*) عند ابن الأثير ( ٨٢/٥ ) : « وأمه الخيزران أم ولد يمانية جرشيّة » ، وفي نسخة : جرشيّة

## العصر التركي الأول

## العصر التركي الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية، وهم الاجناد، تمييزا له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس ، وهم الوزراء . وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر ، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في أواخره ، والآخر في أوائله

### الأتراك القدماء

الترك أمة قديمة جدا مؤلفة من قبائل وبطون وأفخاذ ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي أو جبال الذهب في أواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا . وهم يذهبون في أصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم «روملس» فيعتقدون أن برتزينا أول قوادهم رضع من ثديي الذئبة ، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وأنعامهم ، لأنهم أهل بادية ، فحاربوا الأمم المجاورة لهم وخصوصا سكان الصين . وخلف برتزينا غير واحد من أبنائه ، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فأحب بعضهم أن يبنى المدن فمنعه بعض أمرائه ، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله : «نحن يامولاي أقل من عشر أهل الصين عددا وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا ، اذا رأينا في أنفسنا قوة على الحرب هجمنا والا رجعنا الى البادية ، وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص » ، فأعجبه رأى الرجل وعدل عن التحضر . وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام ، فان بداوتهم كانت من أهم أسباب تغلبهم

وما زال الاتراك أهل بادية وغزو وخيام ، يزدادون قوة وعددا حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠.٠٠٠ رجل حاربوا أهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة ، وظفروا في معظم حروبهم ، وقد عقدوا مع الرومان في أيام جوستينيان صلحا ، وظلت العلاقات حسنة بينهم وبين خلفائه ، وتبدلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفي أيام خاقان ديزابول أرسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفدا عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقوواعليه، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن

### الأتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم ، وطئت حوافر خيولهم بلاد اترك ، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة

وأشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بنى أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون في جملة الجزية اولادا من أهل بادية تركستان يبيعونهم ببيع الرقيق ، وهم في الغالب من السبى أو الأسرى على جارى العادة في تلك الأعصر . فضلا عما كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبى ويعبرون عنهم بالماليك ، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الأمراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الأمم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم

وكان الأتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمى الشباب والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولاسيما الفلسفة والعلم الطبيعى ، وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها في أبان التمدن الاسلامى . واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا اذا سمعوا بتركى يشتغل بالعلم الطبيعى ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الأثير لما أشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال : «ومن العجب أن قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه مع أنه تركى ويعلم غيره من علوم القوم» . ويعرف الأتراك في تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف أصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

### الجند التركى في الدولة العباسية

#### المعتصم والأتراك

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسى ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشان لها في الدولة ، وانما كان الشان الأكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلبت الفرسانصار المأمون وأخواله واستبدوا في الدولة ، كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضى الخلافة اليه ، وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم أخواله ، كما كان يعيل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتناولهم بعد قتل أخيه الامين ، حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم وأخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد أهل بداءة وبطش ، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليتهم في العراق ، أو

يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود (١) . وأكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة وأشروسنة

فلما أفضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد منهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير ، وربما أردوا الواحد بعد الواحد قتيلاً على قارعة الطريق . فانفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : « يا أبا أسحق ! » فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال : « يا شيخ مالك ؟ » قال : لاجراك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكتهم بيننا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم ير ركباً الى مثل ذلك اليوم . فخرج فصلى بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتبس معسكراً لاجناده ، حتى أتى سامرا فاتخذها معسكراً فاعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيها الخطط وأقطع أترابه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبتت المياه ، وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها ، وجهازوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس ، فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى أيام المعتد ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو أول من عاد اليها منذ بنيت سامرا (٢)

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقا عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند في ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء أو المهاداة ، ولكنه رغب أمراء الاتراك وأولاد ملوكهم في القدوم اليه والاقامة في ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلكين من أولاد ملوك فرغانة ، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجه المعتصم اليه من أحضره وأحضر غيره من أبناء الأمراء فبالغ المعتصم في إكرامهم . ولما بنى سر من رأى «أو سامرا» أقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (٣)

وكان أكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . أما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين أسلموا ، وفيهم من أظهر ذلك تزلفا للخلفاء كالافشين ، وكان مجوسيا وأظهر الاسلام طمعا في الكسب من الغنائم بالحروب

(١) المسعودي ٢٤٦ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٨١ ج ٧ (٣) ابن خلكان ٤١ ج ٢



وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء أتراكه على فطرتهم، ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالأمم الأخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدهم، فابتاع لهم الجوارى التركيات فأزواجهن منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يباهروا أحدا من المولدين، إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض، وأجرى للجوارى أرزاقا قائمة، وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم أن يطلق امرأته أو يفارقها (١).

#### الجند التركي ومصالح الدولة

فاشدد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة، وخصوصا بعد أن انقذوا المملكة من بابل الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم. وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك، أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد، واشتهر من الوزراء في أثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال، كابن وهب وابن الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة وغيرهم. وكانوا يسابقون الأتراك إلى النفوذ وابتزاز الأموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء.

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت في التقهقر، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الأتراك) وهؤلاء لا يعملون عملا إلا بالمال، فمن استطاع استخدام الجند ملك، ولا عصرية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية. فأصبح الأتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم، فأصبح البطش والفتك أكبر عوامل السيادة.

وكانت جنود الدولة العباسية في أوائلها العرب من مضر واليمن، والفرس - ونريد بالفرس سكان ما بين العراق وأطراف خراسان شرقا إلى نهر جيحون (الاندوس) (\*) ويدخل في ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها - وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاما من بني أمية أو رغبة في الملك، ومعظمهم من الجنود الأحرار بلا بيع ولا عتق، وإنما سموا الموالي إشارة إلى أنهم ليسوا عربا على اصطلاح ذلك العصر. واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة، فنبغ منهم الوزراء والأمراء والعلماء، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وأنشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتى.

فلما تولى المعتصم واقتنى الأتراك بالترغيب أو الشراء، أصبح الجند

(١) البقوي: تقويم البلدان ٢٣

(\*) الاندوس لا يقابل نهر جيحون، وإنما اسمه عند العرب السند، فلعل المؤلف أراد أن يقول: إلى نهرى جيحون والسند، والمعنى يستقيم بذلك.

العباسي أكثره من المماليك الاتراك واخذ الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم أو الحرس ، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام . فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالى الفرس - وأكثرهم من الشيعة - الى الجند الاتراك وأكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، وأولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في أيام المتوكل ، لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان مكان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم اغراهم ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيماً - ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا النجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة .. » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته .. » فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ » قال : « مهما أراد الاتراك .. » فلم يبق في المجلس الا من ضحك (١)

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده (٢) . والمستكفي سئلوا عينية ثم حبسوه حتى مات في الحبس (٣) وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب (٤) - فلا غزو اذا أصبح الخلفاء آلة في ايدي الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب (٥) وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم (٦)

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفاء يطلبون الارتزاق بالجندية ، ورجعوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد أسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠.٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاة الخيمة ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس ، فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . وأسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠٠.٠٠٠ خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين ألف رأس غنم (٧)

(١) الفخرى ٢٢٠ (٢) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٤) ابن الاثير ١٧٢ ج ٨  
(٥) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ (٦) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٧) ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩

وكان الجند الاتراك يؤمّن أشسبه شئ بالفرق التى كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian (\*) أو هم كالباشبوزق فى الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء أو بالاجرة . وتآلفت منهم الفرق بتوالى الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى أبى الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالهما . وكثيرا ماكانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد فى أيام بنى بويه توالى الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالى . وما من دولة قامت فى ذلك العصر الا استخدمت الاتراك فى جندها، سواء كانت شيعية أو سنية . فكانوا يحملون الى بغداد أو غيرها من المدائن الاسلامية تبعا ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبرا

وكان للامراء والقواد عناية كبيرة فى تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلا عن تعليمهم الفرائض الدينية . على أنهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم أحداث - فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الأمير أو السلطان ، فاذا أعجبه اشتراه وانزله فى الطبقة التى يماثلها من ممالكه ، وسلمه الى الطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان فى دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئا من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا فى تعليمه فنون الحرب من رمى النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمى النشاب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . فاذا اتقن فنون الحرب تنقل فى أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامراء ، ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب (١)

على أن أهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا جاءوا بلدا خافهم أهله ، اذ كثيرا ماكانوا ينزلون فى دور الناس (٢) ويتعرضون للحرم والغلمان ، فأصبح عامة بغداد يكرهونهم كرها شديدا

### الخدم ونفوذهم فى الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين فى الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين

(\*) هم حرس الإمبراطورة الرومان  
(١) المقريزى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٢٦٤ ج ١

ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكا في الترف والقصف . ومن أقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالغلمان ويسمون بعضهم قولهم :

عزيبا ما تفادى بالنفوس	الا يا ايها المشوى بطوس
يحمل منهم شؤم البسوس	لقد ابقيت للخصيان هقلا
وفي بدر فيا لك من جليس	فاما نوفل فالثأن فيه
اذا ذكروا بذى سهم خسيس	وما للمعصمى شئ لديه
لديه عند مخترق الكؤوس	وما حسن الصغير أخس حالا
يعاقر فيه شرب الخندريس	لهم من عمره شطر وشطر
سوى التقطيب والوجه العبوس	وما للفانيات لديه حظ
فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟	اذا كان الرئيس كذا سقيما
لعز على المقيم بدار طوس (١)	فلو علم المقيم بدار طوس

وكان لهوه من اعظم أسباب سقوطه

#### سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاثراك وعلت كلمتهم في أيام المتوكل فما بعده، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم أو يقتلونهم ، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يجبروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوه في القصور ليزيدوهم ضعفا . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يميلون الى حبس أولادهم وأقاربهم (٢) خوفا من تواطئهم مع بعض الاثراك على خلعهم أو قتلهم . ولا عسير لهم في أثناء الحجر الا الخدم والخصيان، فالفوا أخلاقهم وتحققوا بالاختبار أن حياتهم تتوقف بالاكثـر على أمانة أولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم ، وخصوصا الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفانى في خدمة أسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لأولادهم وأهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام ، التماسا لحمايتهم اذا أراد الاثراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم ، فازداد الخدم نفوذا وسطوة حتى أصبح الاثراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند أو الامارة على الإقليم

(١) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٩٧

ولما تكاثرت الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقا تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومي والتركى والحششى والأرمنى والسندى والبربرى والصقلبي ، في فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجورى (١)

والمراد في الاصل بالخدم الغلمان أو العبيد أو المالك الذين يقيمون في دور الخلفاء أو الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يتعاون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل أيام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتاعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار أو اقل أو أكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر . فغلمان بفا الشرايى أحد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠ .

أما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقا تعرف بأسماء خاصة ، كفرق الغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية (٢) والرجال المصافية والراكبية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركى وفرق الغلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة الملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المتاع والمأجور ، وأما الغلمان فهم مختصون بالامير أو الخليفة لخدمته الشخصية أو حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وقد تحول فرق الغلمان الى فرق من الجند ، أو يعملون معا في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على أعدائه مما لا ضابط له . وكثيرا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة أو الامير حتى تغلبه على امره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء أحيانا الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق أخرى (١)

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم أيضا وأكثرهم من الطواشية السود . وكان أهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق . . يا عاق ياطويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، وأصاب الناس في أيام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض أهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية

(١) أى الجرايات من الخبز واللحم والطعام وما إليها

(٢) الحجرية بضم الحاء وتسكين الجيم نسبة الى الحجرة أى الذين يخدمون داخل البيوت ، وهم بخلاف المصافية أى الذين يقومون بالحرب في المصاف

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨

السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط (١) على أن الخصيان كثيرا ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء

#### القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادماً من الروم والسودان (٢) وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم ، فقدمه وكان يستشير في أموره ، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رئاسة الجيش وإمارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شيء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم أو احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاثراك . ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعاً في معظم الدول القديمة ، فاسطفان المعلق (المولى) استبد بشئون الدولة الرومانية (٣) من قتل وتنصيب وعزل ، وكذلك سليمان الحصى وغيرها

أما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة ، تولوا القيادة أو الإمارة أو بيت المال أو غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ (٤) وبجكم أصله من الفلماني وارتقى حتى صار أمير الامراء وهي أعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني (٥) وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكاً رومياً ، وبلغ من تعظيمهم أمره وكرامته أنه لما ألق عن المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترحل أولاد الخليفة المعز وأهله ومشوا بين يديه (٥) وكان قبله كافور الاخشيدى وهو خصي أسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس

(١) السعوى ٢٤٠ ج ٢ (٢) الفخرى ٢٣٤ (٣) يزيد البيزنطية

(٤) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ (٥) ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ (٥) القريزى ٣٧٧ ج ١

الصقلى الخصى اصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك فى أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولى الولايات وتداخل فى السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصيا أبيض ارتقى فى الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزير بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو اول من لقب بذلك فى الدولة الفاطمية (١) وقراقوش الطواشى وزير صلاح الدين الأيوبى بلغ أرقى مناصب الحكومة فى الدولة الأيوبية . وعميد الملك أحد كبار القواد الأتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد فى مصر والشام أيام بنى طولون . ومؤتمن الخلافة فى الدولة الفاطمية كان خادما خصيا ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة فى دولة بنى أمية بالاندلس ، وتقدم الخصيان فى دول السلاجقة وبنى بويه وسائر دول الاسلام فى تلك العصور

### تأثير النساء فى سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير فى أعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفى أى عصر كان واية امة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير فى سياستها ، حتى فى الاسلام مع شيوع الطعن فى آرائهن وقولهم أن مشاورتهن فى الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد . وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهن وادخالهن فى الامور . قال المنصور فى وصيته لابنه المهدي : « اياك أن تدخل النساء فى أمرك » ، وقال النخعي : « من اقتراب الساعة طاعة النساء » ، وقال أبو بكر : « ذل من أسند امره الى امرأة » ، ولعلى اقوال كثيرة فى النهي عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد اثرت المرأة فى سياسة الدولة تأثيرا عظيما

#### أمهات الخلفاء

وتأثير النساء فى الدولة من قبيل تأثير الام فى الإبناء ، وقد بينا ذلك فى باب الامومة ، ويعظم اثره على الخصوص فى تأثير أمهات الخلفاء على اولادهن ، ولا سيما فى اواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم

على أن العباسيين حتى فى صدر الدولة كانوا يصفون الى النساء، فأحرزت المرأة نفوذا كبيرا وخصوصا أمهات الخلفاء ، وأول من استبد منه الخيزران أم الهادي والرشيدي ، وهى قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ، ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته . وكانت فى أيام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهى وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادي أرادت الاستبداد بالامور

دونه ، وأن تسلك به مسلك أبيه ، فلم يمض أربعة أشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت الموابك تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك ، وكلمته يوما في أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا فقالت : « لا بد من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادي وقال : « ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها (\*\*) والله لا أقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسالك حاجة » ، قال : « لا أبالي » وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك .. والله أنا نفى من قرابتى من رسول الله ، لئن بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى لاضررين عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه الموابك التى تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ اياك وأياك لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى ! » فانصرفت وهى لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « أيما خير : أنا أم أنتم ، وأمى أم أمهاتكم ؟ » ، قالوا : « بل أنت وامك خير » قال : « فأبكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال : فعلت أم فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريتها بقتله بالغم والجلوس على وجهه (١) فقتلته (\*\*).

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم ، أى نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء (٢)

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر - وهى تركية - سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها ، وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفا من ذكرها (٣)

ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلبية الاصل ، فاطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك

(\*\*) أى صاحب الحاجة

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦

(\*\*) الخبر عند ابن الاثير وغيره ، ومعنى « قتلته بالغم والجلوس على وجهه » انهم كتمن نفسه ، ويقال انهم وضعن على فمه وائفه وسادة وجلسن عليها ، فاخنق ومات . وكان هو قد حاول قتلها بالسسم قبل ذلك ، فلم يفلح

(٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) تاريخ الوزراء ٦٧



هما اتمامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التى ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (١)

على أن تسلط النساء فى الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المقتدر، لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء فى ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من أصحابها ، وأخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها وأخذ منها أموالا عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور فى الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذ الموالى فى هذه الدولة ، لان أكثر أولئك النساء من غير العرب

### فساد الاحكام فى الدولة العباسية

#### التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبى فى أيام خلفائها الاولين ، وخصوصا الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها فى أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور فى ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقا والمحيط الاطلسى غربا وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوبا . وقد بينا أقسامها وجغرافيتها فى الجزء الثانى . فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركى بالحكومة أصبحت الاحكام فوضى، وخصوصا بعد المتوكل ، لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاجحة جرائمهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشئون الدولة ، وهم اصحابها المسئولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ فى بلاطهم ، من الوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة أو أشدهم دهاء ومكرا يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده فى حشد الاموال ، اذ لا يأمن أن يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، أو لعل بعض أعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهانا . على أن القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ فى بلاط الخليفة بالتهديد أو بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

ويقال بالاجمال أن النفوذ أصبح ضائعا بين الوزراء والقواد ، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم ، غير ما يكتسبونه من

المال في اثناء نفوذ كلمتهم . فاصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهتمه غير الكسب من أى طريق كان ، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملا بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهى قوله : « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقفها على الصواب » (١)

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيرا صادروه واخذوا أمواله ، وقد فصلنا ذلك في باب المصادرة في الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الايام المصدر الرئيسى لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى انشأوا للمصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة (٢) فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة

#### انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى فوجدته ١ . ملايين دينار ، وحسبت ما اخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري ( ابن الجصاص ) فكان مثل ذلك » فكانه لم يخسر شيئا ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر احدهم على مال لم يكن في وسعه اداؤه كله معجلا اجلوه بالباقي ، وساعدوه على تحصيله أو جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التمثل في جمع الاموال من الناس (٣)

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وهالك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على أيام الراضى بالله ، ننشرها بنصها حرفيا أنموذجا لأنواع المصادرات ومقاديرها (٤)

#### دينار

٧٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامى عن النصف مما بقى عليه من مصادراته لسنة ٣٠٠ هـ
١١٠٠٠	من على بن الحسين الباذينى الكاتب عما تولاه بالموصل
٣٠٠٠٠	من محمد بن عبد الله الشافعى عما تصرف فيه لطفى بن عيسى
٨٠٠٠٠	من محمد بن على بن مقله عما تصرف فيه

(١) تاريخ الوزراء ١١٩ (٢) تاريخ الوزراء ٣٠٦  
(٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ (٤) تاريخ الوزراء ٢٢٤

## دينار

من محمد بن الحسين المعروف بابي طاهر	١٠٠٠٠٠
من الحسن بن أبي عيسى الناقد عما ذكر أنه وديعة لعلي بن عيسى	١٣٠٠٠
ومنه أيضا عن نفسه	٤٠٠٠
من ابراهيم بن أحمد المادرائي	٢٠٠٠٠
من عبد الواحد بن عبد الله بقية مصادرة والده	٣٦٣٦٠
من أحمد بن يحيى عن مصلحة وجبت	١٠٠٠٠
من ابراهيم بن أحمد الجهمي عن صلحه	٦٠٠٠
من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وابراهيم المادرائي	٤٠٠٠
من عبد الوهاب بن أحمد بن ماشاء الله عن صلحه	٤٠٠٠٠
من محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه	١٠٠٠٠
من محمد بن أحمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها	٢٥٠٠٠٠
من ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه	١٥٠٠٠
من أبي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس أحمد	٣٠٠٠
من علي بن محمد بن الحواري وقتل	٧٠٠٠
من هرون بن أحمد الهمداني	٧٠٠٠
من عبد الله بن زيد بن ابراهيم	٢٠٠٠
من عبد الله بن زيد صلحا عن نفسه	١٥٠٠٠
من علي بن مأمون الاسكافي وقتل	٦٠٠٠٠
من يحيى بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد	٧٠٠٠٠
من حامد بن عباس وقتل	١٣٠٠٠٠
من محمد بن حمدون الواسطي	١٥٠٠٠
من علي بن عيسى	٤٢٠٠٠
من ابراهيم جهيم حامد بن عباس	١٠٠٠٠
من الحسن المادرائي	١٢٠٠٠٠
ومنه أيضا	١٠٠٠٠٠
من محمد المادرائي	١٠٠٠٠٠
ومنه أيضا بخط آخر	١٠٠٠٠

درهم	
٢٠٠٠٠	من أبى الفضل محمد بن أحمد بن بسطام
٥٠٠٠٠٠	من على بن الحسن الباذينى صلحا عما تصرف فيه بالوصل وقتل
١٠٠٠٠٠	من أبى عمر بن الصباح عن ضمانه الباقي من مصادرة أبى ياسر
١٠٠٠٠٠	من عبد الله بن أحمد البعقوبى
١٠٠٠٠٠	من الحسن بن إبراهيم الخرائطى صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠٠٠٠	من الحسين بن على بن نصير
٢٠٠٠	من على بن محمد بن أحمد السمان عن ورثة قرقر
١٠٠٠٠	من أبى بكر الجرجانى من ضياع بن عيسى
٢٣٠٠٠٠	من الحسين بن سعد القطربلى
١٥٠٠٠٠٠	من محمد بن أحمد ...
٣٠٠٠٠٠٠	من أبى الحسن بن بسطام
٥٠٠٠٠	من أحمد بن محمد بن حامد بن عباس
٢٣٠٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد

#### ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاما أو عامين ، ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير ، فضلا عن الضياع والمباني ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم . وكان الوزير لا يولى عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقانى وزير المقتدر بالله ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة . وإذا لم يكن للعامل أو الناظر ما يفى المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلا وأجل البعض الآخر الى مدة معينة أو غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه أو يرون فيه غرابة أو ظلما

والعامل الذى يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مدينا ببعضها يهون عليه ابتزاز أموال الرعية - أو هو يطلب الولاية لهذه الغاية - فيأخذ العمال فى حشد الاموال أما بالتلاعب فى جباية الحكومة ، فينفقون دينارا فى بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير ، أو باستخراج أموال الرعية بالرشوة ،

أو بضرب الضرائب الفادحة على الباعة وأهل الأسواق في المدن (١) أو بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم أياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون ، وإذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه (٢) وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه وإذا استحق عليها الخراج أداه صاحبها الاول ، مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكيتها (٣) فيضطر المالك الى دفع الخراج أعواما ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضى النفوذ اليهم من أهل العدالة أو يهتدى الى وساطة أو حيلة

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفا أو مكررا ، على انهم قد يرون لهم نفعا من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه لأصحابها على أن يخدموهم في مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيرا جدا . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهم (٤) وكثيرا ماكانوا يتركون أمثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة أو الدالة أو النفوذ عند الخليفة أو غيره

#### الجانوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أبواب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض ، على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحي (٥) فتقع الحسارة على الرعية . فتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاعت أبواب الرزق على الناس ، وأصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة في اختلاس المال سرا أو جهرا استخدمها ، وكثر العيaron والشطار في المدن ، وتعدد اللصوص في القرى ، وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء أو القواد في أرزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم ، وإذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار يأخذون أموالها باعتبار انها حق لهم ، لان أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فترك عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص

(١) ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ (٢) تاريخ الوزراء ٦٢ (٣) الاغانى ٤٧ ج ٢٠

(٤) تاريخ الوزراء ٦٤ (٥) تاريخ الوزراء ٢٦٢

في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال - وان كره التجار اخذها - كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء ارباب الاموال أو كرهوا (١) لأن الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وكان لها شأن كبير في أول الاسلام ثم أهملت في أواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالى وغلاء الاسعار في المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة ، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم ، فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة أو الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم . واكثر ماتكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم ، أو فيمن يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة أو الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت أو ذهبت الحاجة اليها أحرقوها (٢)

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال في الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكرد والعرب وغيرهم . ومنها ماجاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما أصاب مصر لما فتحها الفاطميون

### تفرق المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والأتراك ، أو بين الوزراء والاجناد ، أو بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما أصابهم من التضييق والاحتقار ، هان على عمالهم في اطراف المملكة أن ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان أسبقهم اليه أبعدهم عن مركز الخلافة . وأسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لانه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها ،

وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب  
 هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك  
 فالاكرد ، مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من  
 العمالة الى الامارة الى الملك أو السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ،  
 فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكرد .  
 فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . اما  
 العربية فسيأتى ذكرها في الكلام على العصر العربى الثانى

## الدول الفارسية في ظل العباسيين

### الدول الصفري

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخففا بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاثراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا أيديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم

على أن الذين استقلوا من القواد أو الامراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . ففرغت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك أهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ الطاهرية	خراسان	٢٠٥ - ٢٥٩ هـ	ظاهر بن الحسين
٢ الصفارية	فارس	٢٥٤ - ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣ السامانية	ماوراء النهر	٢٦١ - ٣٨٩	نصر بن احمد الساماني
٤ الساجية	أذربيجان	٢٦٦ - ٣١٨	يوسف بن أبي الساج (*)
٥ الزيارية	جرجان	٣١٦ - ٤٣٤	مرداويج بن زيار (**)

فانظر كيف تفرغت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصره العلويين من أن يعيدوا دولة

(\*) لم يكن الساجيون دولة ، وإنما كان يوسف بن أبي الساج أحد الولاة الذين استبدوا بالامر فترة قصيرة تحت طاعة ولاية آخرين ، وقد خلفه اثنان من أهل بيته ، وقد حكموا في ناحية من الري وشمل سلطانه وقتا ما قزوین وأبهر و زنجان و أذربيجان . وقد استقل يوسف بن أبي الساج بتأحيته فترة قصيرة من ٣٠٦ الى ٣١٢

انظر : زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، ج١ ، ص ٧١

(\*\*) امتدت املاك مرداويج بن زيار حتى شملت الري وقزوین وهمدان وكشكور ودينور وبروجرد وقم وقاشان واصبهان وجرا بلقان وطبرستان وجرجان . وقد استعاد هذه النواحي من مرداويج نصر الساماني سنة ٣١٧ ، غير أن وشمكير بن زيار عاد فاستبد بها سنة ٣٢٣ عاما واحدا . انظر نفس المصدر ، ص ٧٢



الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا - كما ترى في الجدول - حتى قامت دولة آل بويه ، وهى أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية

### دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجبلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك أيام الرشيد ، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن على الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه في أواخر القرن الثالث فأجابوه

وجد آل بويه الاقرب الذى أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبوشجاع ، كان له ثلاثة أولاد : على ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، وأحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم أولاده في الجندي لأنها كانت يومئذ بابا من أبواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ، ثم اتسعت أحواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أن يقطعه على أعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جارى عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد ، فأجابته الراضى وبعث اليه بالخلة . وأخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز ، وساروا غربا حتى اتوا بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤ هـ فزحبت بهم وخلع عليهم ولقبهم بالألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، واستبدوا بالملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد . ولما أفضت إمارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الاسلام .

وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ (✽)

(✽) كانت القاعدة التى جرى عليها أولئك الأمراء المستقلون هى « المقاطعة » ، أى مقاطعة الخليفة ( الاتفاق معه ) على مبلغ من المال يؤدونه له كل سنة في نظير استيادهم بأمور الناحية مع الخطية له والاعتراف بسلطانه . وقد بدأ ذلك من أيام الرشيد ، فقد قاطع إبراهيم بن الأغلب على مبلغ سنوى من المال في نظير استيادته بأمور إفريقية . وقد اتسع العمل بهذه الطريقة مع الزمن ، وخاصة خلال خلافة المعتضد بالله ( ٢٧٩ - ٢٨٩ ) ، فقد كان طائفة قاسيا ، قليل الكفاية الإدارية ، فخافه أمراء النواحي وبدأوا يستقلون ، وفي أيامه خرج عمرو بن الليث الصقار في فارس ، وبدأت حركة القرامطة على يد حمدان قرمط في الكوفة وعلى يد أبى سعيد الجنائى في البحرين ، وظهر ابن حوشب في اليمن وأبو عبد الله الشيعي في المغرب ، ونصر بن أحمد الساماني مؤسس الدولة السامانية فيما وراء النهر ، وزاد الأمر في أيام المكتفي ( ٢٨٩ - ٢٩٥ ) والمقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) ونستطيع أن نسمى عهده بعهد الوزراء ، فقد تولى

الوزارة نفر من اقلد وزراء العصر العباسي الثاني كابن الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة ، ولكن احوال الدولة كانت قد بلغت من الفساد مبلغا اعجز هؤلاء الوزراء عن اصلاحه ، لم انهم كانوا جميعا ، رغم كفايتهم اميل الى الفساد منهم الى الصلاح ، وقد روى السيوطي عبارة عظيمة الدلالة لابن ابراهيم وهي : « ما علم محمد بن جرير الطبري بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : « ما الخير ؟ » قيل : « ببيع ابن المعتز » قال : « فمن رشح للوزارة ؟ » قيل : « محمد بن داود » قال : « هذا الامر لا يتم » . قيل له : « كيف ؟ » قال : « كل واحد منهم ذكرتهم متقدم في معناه ، على الرتبة ، والزمان مدبر الدنيا مولية ، وما ارى هذا الا الى اضمحلال وما ارى لمدته طولا » ( تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢ )

وقد لقي المقتدر احوالا ، وعزل عن الخلافة ثم عاد ، وفسد حال الدولة في ايامه تملعا ، وخلفه اخوه القاهر ( ٣٢٠ - ٣٢٢ ) وقد وصفه الصولي بأنه كان « أهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة ، مدمنا للخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة ، لاهلك الحرث وابوابها ، وقد بلغ من فساد رايه ان حفر في داره نحو خمسين مطمورة تحت الارض واحكم حكومة امثال هؤلاء كان نظام المقاطعة خير ما يمكن اتباعه . وقد انتهى الامر بالخلفاء الى تفويض أحد القواد بالقيام بكل شؤون الدولة باسم الخليفة ، وبهذا نشأ نظام « امرة الامراء » وكان ذلك في ايام الرازي ، واول امراء الامراء هو ابن رائق ، وقد تنازل له الرازي عن سلطانه كاملا . قال مسكويه ( تجارب الامم ١/ ١٨٨ ) : « فترسل اليه الرازي ماكرد الديلمي من الساجية ، وعرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء » ورد اليه تدبير اعمال الخراج والضيايع واعمال الماعون في جميع النواحي ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وامر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك ، وبأن يكتب ، وانفذ اليه الخلع واللواء مع ماكرد الديلمي وخادم من خدم السلطان . ولم ينفع ذلك الحل ، لان القواد تنافسوا على امرة الامراء ، كما كان الوزراء من قبل يتنافسون على الوزارة ، ثم ان المشاكل الاساسية للدولة ، وهي مشاكل سياسية وادارية ومالية ، لم تحل وظلت تزداد مع الزمن

# الدول التركية في ظل العباسيين

## الدول الصفرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس . واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سنى نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ - ٢٩٢ هـ	أحمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ - ٥٦٠	عبد الكريم ستق (*)
٣ الاخشيديّة	مصر	٢٢٣ - ٣٥٨	محمد الاخشيدي
٤ الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ - ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم ، أى من الامارة الى السلطنة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام ، واولهم سلاطين الدولة الغزنوية التى منها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند وناشر الاسلام فيها

(\*) يريد المؤلف بالدولة الايلكية دولة ايلخانات فارس ، وهى دولة مغولية اسلامية كبرى قامت في فارس ، وشملت البلاد الواقعة بين بحر قزوين والمحيط الهندي ومن نهر السند الى الفرات ، وكانت عاصمتها تبريز . وقد أنشأ الدولة ايل خان حسن حفيد ارغون بن هولاكو ، وقد ازدهر أمر الدولة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ( الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ) وقامت بينها وبين دولة المماليك علاقات صداقة حينا وحرب حينا ، وحاول الايلخانات انتزاع الشام من المماليك فلم يستطيعوا ، وقد دخل هذا الفرع من المغول الاسلام منذ أيام ارغون بن هولاكو ، ولكن الدولة لم تأخذ طابعا اسلاميا حقيقيا الا في عهد سلطانها غازان - أوقازان - خان . وكانت دولة الايلخانات سنية المذهب  
انظر :

D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, IV  
Hammer Purgstall, Gesch. der Ilchane, 2 Vols.  
Howorth, History of the Mongols, Part III  
Quatremère, Mémoire sur la vie et les ouvrages de Raschid-eldin (Histoire des Mongols de la Perse, écrite en persan par Raschid el-din. Paris, 1836.  
W. Barthold, Persidskaya nadpis' stienie Anijskoi mececi Manuce.  
St. Petersburg, 1911 بالروسية

## الدولة السلجوقية وفروعها

على أن هذه الامارات نشأت فروعاً للدولة العباسية ، وكان أمراءها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر ، عظم أمر الشيعة في العالم الاسلامي وتضعفت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس ، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق ، فجاءت في حال الحاجة اليها ، لانها لم تشع المملكة العباسية ونصرت مذهبها ( السنة ) بعد أن كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت أن تستولى على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من أقاصى الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والكراد والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبته دفعة واحدة (\*) ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الأبيض . وأصبح العالم الاسلامي

(\*) يسمى جد السلاجقة دقاق أيضاً ، ويلقب بتيغور بالغ أي صاحب القوس الحديدى . وكان دقاق أميراً من أمراء قبيلة الغز التي كانت في ناحية قينيك . وقد اختصم دقاق مع ملك من ملوك الترك يسمى بيغو ، لأن بيغو أراد أن يفرض بلاد الاسلام فعارضه دقاق ، وكانت النتيجة أن أخذ دقاق قبيلته وأهله وهاجر بهم الى حدود بلاد الاسلام ، واستقر عند نهر سيحون . وهناك اعتنق سلجوق وآله الاسلام . وقد ذهب بعض علماء الروس الى أن سلجوق تحول الى النصرانية أولاً ، ثم الى الاسلام ، وليس لدينا ما يثبت ذلك ، وحجتهم أن أبناء سلجوق كانوا يحملون أسماء مسيحية : ميكايل وموسى واسرائيل . وكانت الظروف مواتية لسلجوق في الناحية التي استقر فيها وهي ما وراء النهر (Transoxania) حيث كان السامانيون والقرخانيون يتنازعون على السلطان فانضم سلجوق ومن معه من الغز الى السامانيين ، وما زال هو وابنتاه من بعده يحاولون حتى سيطروا على بلاد ما وراء النهر ، ثم أخذوا يتحشرون بالبويهيين . وكان الغز السلاجقة من أهل السنة ، فكان هذا مثار النزاع بينهم وبين البويهيين الشيعة . وقد تمكنوا من السيطرة على فارس ، ثم استلحاهم الخلفاء لانتقادهم من البويهيين ، فانقلوا الى العراق وبدأ نجمهم يصمد

والمرجع من السلاجقة ودولهم كثيرة جداً ، نجد أهمها في مقال « سلاجقة » في دائرة المعارف الإسلامية

تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، اكبرها دولة السلاجقة في المشرق ، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب ، والثالثة دولة بنى أمية في الاندلس . فشان الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التى تقدمتها ، لان هذه امارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، واما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وانقذت الخلافة العباسية من الضياع على ايدى البويهيين وغيرهم من الشيعة . والدولة الايلكية نشأت مستقلة أيضا ، لكنها قلما أثرت في المملكة الاسلامية

والسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام ، وفي أيامهم تكاثرت نزوح الاتراك الى المملكة الاسلامية في فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق في ظل أبناء جلدتهم ، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الاسلامية ، بأمرى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى في أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعملناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

ونظام الملك فارسى الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا . واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

- ١ - السلاجقة العظام (\*) حكموا من سنة ٤٢٩-٥٥٢ هـ  
٢ - سلاجقة كرمان (\*\*) ٤٣٣-٥٨٣ هـ

(\*) السلاجقة العظام هم : طغرل بك ( أنشأ الدولة سنة ١٠٢٨ وحكم حتى ١٠٦٣ ) ، ألب أرسلان ( ١٠٦٣ - ١٠٧٢ ) ، ملك شاه ( ١٠٧٢ - ١٠٩٢ ) ، برقيارق ( ١٠٩٢ - ١١٠٤ ) ، ملك شاه الثانى ومحمد ( حكما من ١١٠٤ حتى ١١١٧ ) ، سنجر ( ١١١٧ - ١١٥٧ ) . وقد شملت دولة السلاجقة الكبار فارس كلها والعراق . وكان دخول السلاجقة بغداد على يد طغرل بك ( في رمضان ٤٤٧ - ديسمبر ١٠٥٥ ) وسلم اليه الخليفة العباسى مقاليد الأمور ولقبه بملك المشرق والمغرب ، وقد امتد سلطانهم الى الموصل . ومد ألب أرسلان حدود الدولة حتى شملت أرمينية وآسيا الصغرى ، ثم دخلت الشام في طاعتهم سنة ١٠٩٢/٤٨٥ بل خطب لهم في اليمن وعدن . وبعد موت ملك شاه تنازع أولاده وأتابكة الدولة على العرش ، فتفرقت الدولة وانقسمت الى دول ، وظلت على ذلك الحال حتى مجيء الصليبيين

(\*\*) دولة سلاجقة كرمان أنشأها قاورد قره أرسلان بك بن شغرى بك بن هولاكو ، وقد هاجر هذا الأخير بين تبعه من الغز وفتح كرمان واستقر فيها وأنشأ فيها هذه الدولة سنة ١٠٤١/٤٣٣ ، ثم استولى على عاصمتها بردسير واتخذها عاصمة له . وقد خضع قاورد السلطان ألب أرسلان . وعند وفاة هذا الأخير طمع قاورد في أن يخلفه سلطانا على الدولة السلجوقية كلها ، ولكنه انهزم وقتل . وقد أقر ألب أرسلان ابنه سلطان شاه سلطانا على سلاجقة كرمان . وقد توالى على عرش سلطنة كرمان السلجوقية سلسلة من الحكام الأقوياء أهمهم - بعد سلطان شاه الذى حكم حتى ١٠٨٤/٤٧٧ - توران شاه ( ١٠٨٤ - ١٠٩٤ ) ، إيران شاه ( ١٠٩٤ - ١١٠٠ أو ١١٠١ ) وأرسلان شاه ( ١١٠١ - ١١٤٢ ) ومحمد شاه ( ١١٤٢ - ١١٥٦ )

- سلاجقة الشام (١\*) ٤٨٧ — ٥١١ هـ  
 ٤ — سلاجقة العراق وكرديستان (٢\*) » » » ٥١١ — ٥٩٠ هـ  
 ٥ — سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى) (٣\*) » » » ٤٧٠ — ٧٠٠ هـ

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

#### انتقال الملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في ايام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم اتابك ، وهو لفظ تركي معناه « الاب

وطغرل شاه ( ١١٥٦ — ١١٦٩ ) وبهرام شاه وأرسلان شاه ( ١١٦٩ — ١١٧٤ ) وتوران شاه الثاني ( ١١٧٤ — ١١٨٣ ) ومحمد شاه الثاني ( ١١٨٣ — ١١٨٣ ) وبه انتهت الدولة (١\*) في سنة ١٠٧٠/٤٦٣ — ١٠٧١ دخل صاحب حلب في طاعة الب أرسلان ، فانقلبت جماعة من جند السلاجقة من التركمان الى فلسطين بقودها اتسز بن ابق ، فاستولى على الرملة والقدس وبقيّة فلسطين فيما عدا عسقلان التي ظلت في أيدي الفاطميين . ثم استولى على دمشق سنة ١٠٧٦/٤٦٨ . وقد حاول اتسز دخول مصر ، ولكن بدر الجمالي وزير الفاطميين رده عنها ، وتبعته جيوش الفاطميين في الشام ، فتخرج مركزه واستغاث بالامير تتش بن الب أرسلان ، فاقبل تتش ودخل دمشق ، ثم اتهم اتسز بالروق وقتله واستولى على الشام . وقد حاول تتش الاستيلاء على حلب دون جدوى . ثم انهزم تتش امام مسليمان سلطان دولة سلاجقة الروم أو آسيا الصغرى ، فأسرع الب أرسلان وعين على الشام الامير آق سنقر البرسقي جد آل زنكي ، ولكن تتش عاد الى دمشق بعد موت الب أرسلان ، وعندما مات تقسم دولته ابنائه دقاق ورضوان ، فأخذ رضوان حلب وأخذ دقاق دمشق ، وقد ظلا يحكما حتى مجيء الصليبيين (٢\*) بعد موت السلطان محمد السلجوقي عام ١١١٨/٥١١ خلفه ابنه محمود ( وكانت سنة ١٣ سنة ) على سلطنة دولة السلاجقة كلها ، عدا خراسان حيث كان عمه سنجر قائماً بالسلطنة . وبهذا انقسمت دولة السلاجقة الى قسمين : قسم في خراسان وما يليها غرباً ، وقسم في العراق وكرمان ، وقد عرف القسم الثاني بسلطنة سلاجقة العراق وكرمان . وخلف محموداً على السلطنة ابنه داود ( ١١٢١ — ١١٢٢ ) ثم طغرل الاول ( ١١٢٢ — ١١٢٣ أو ١١٢٤ ) ثم مسعود ( ١١٢٤ — ١١٥٢ ) وملك شاه ( ١١٥٢ — ١١٥٣ ) ومحمد الثاني ( ١١٥٣ — ١١٥٩ ) وسليمان ( ١١٥٩ — ١١٦١ ) وأرسلان شاه ( ١١٦١ — ١١٧٥ ) وطغرل الثاني ( ١١٧٥ — ١١٩٤ ) . وقد تولى هؤلاء جميعاً السلطنة وهم اطفال ، فقام بأمورهم مربوهم أي اتابكتهم ، ولهذا تعرف الدولة بدولة الاتابكة . وقد كان التنافس شديداً على السلطان بين السلاطين واتابكتهم من ناحية ، وخلفاء بغداد من ناحية أخرى . وقد انتهى الامر بتركهم بغداد للخليفة وانتقال عاصمتهم الى همدان

(٣\*) مؤسس هذه الدولة سليمان بن قنطلميش بن أرسلان ( وهو اسرائيل ) بن سلجوق . وقد كان أبوه قنطلميش من كبار رجال الدولة السلجوقية ايام طغرل بك . فلما تولى الب أرسلان أبي الخضر له ، وحاربه فانهمز على مقرية من الرى ( ١٠٦٤/٤٥٦ ) . وبعد انتصار الب أرسلان على البيزنطيين في موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ انتقل سليمان بن قنطلميش الى آسيا الصغرى ليعاود اقتطاع جزء من اراضي الدولة العثمانية ينشوء فيه دولة له ، فقل سنة ١٠٧٧ نجده في نيقية ، ولكنه ارتد عنها واستولى على انطاكية من الارمن ( ١٠٨٥/٤٧٧ ) ولكنه اختلف مع تتش صاحب دمشق مما اضطر ملك شاه الى التدخل ، فأقبل الى آسيا الصغرى واستصحب سليمان ابن قنطلميش معه الى العراق . وعندما تولى سلطنة السلاجقة برقياروق اقبل قلع أرسلان بن سليمان ابن قنطلميش الى آسيا الصغرى وهناك أنشأ امارة سلجوقية كبيرة عاصمتها قونية ، سميت بسلطنة سلاجقة الروم ، أي ارض الروم ، أو سلاجقة آسيا الصغرى ، وقد عمرت هذه الدولة طويلاً ومرت بها ظروف مختلفة اثناء الحروب الصليبية ما بين صعود وهبوط ، وظلت قائمة حتى قضى عليها سلاطين آل عثمان عام ١٣٠٢/٧٠٢

المراجع : المراجع عن السلاجقة كثيرة جداً ، تجد بياناً بأهمها في ختام كل جزء من اجزاء مقال السلاجقة الذي كتبه بلرتولد على الاغلب في دائرة المعارف الاسلامية

الأمير « (\*) » ، واستعملوه أولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، إلا الفرع الرومى فى آسيا الصغرى فإنه ظل فى حوزة السلاجقة ، حتى أتى العثمانيون فى أواخر القرن السابع - واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى ممالكهم الاتابكة وغيرهم وسنى حكم كل دولة منها :

١ - الدولة البورية	فى دمشق	من سنة ٤٩٧ - ٥٤٩
٢ - » الزنكية	» الجزيرة والشام	» ٥٢١ - ٦٤٨
٣ - » البكتيجنية	» اربلاء وغيرها	» ٥٠٩ - ٦٧٠
٤ - » الارحية	» ديار بكر وماردين	» ٤٩٥ - ٧١٢
٥ - دولة الشاهات	» أرمينيا	» ٤٩٣ - ٦٠٤
٦ - أتابكة أذربيجان	» أذربيجان	» ٥٣١ - ٦٢٢
٧ - الدولة السفريه	» فارس	» ٥٤٣ - ٦٨٦
٨ - » المزارسية	» لورستان	» ٥٤٣ - ٧٤٠
٩ - » الخوارزمية	» خوارزم	» ٤٧٠ - ٦٢٨
١٠ - » القطنفة	» كرمان	» ٦١٩ - ٧٠٣ (**) )

وما زالت هذه الممالك فى حوزة الاتابكة وغيرهم من ممالك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكسحوها كلها واستولوا عليها

#### سلاجقة الروم :

أما الفرع السلجوقى الذى ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهى بلاد الروم فى اصطلاح تلك الايام . على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع أسماء العائلات السلجوقية التى كانت تتولاها :

ونضيف إليها ما يلى :

تاريخ البيهقى ، ترجمه من الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والامتناد صادق نشأت ، القاهرة ١٩٥٧

السلوك لمعرفة دول الملوك لطفى الدين أحمد بن على القريرى ، المجلدان الاول والثانى ، قام على نشرهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والمجلد الثالث على وشك الظهور  
أبو شامة : كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والسلاجقية ، بتحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦

Stevenson, Crusaders in the East, Oxford, 1930.

Stephen Runciman, The Crusades, 3 vol. Cambridge 1948-1955.

(\*) الاصح : مرمى الأمير ، وهو مكون من مقطعين : اطا : بج

(\*\*) هذه كلها دول تركية صغيرة لا يتسع المجال للتطبيق عليها جميعاً ، وكلها مذكورة فى معجم الإنساب والاسرات الحاكمة لزمايور ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين

اسم العائلة	اسم الامارة
آل كراسى	١ - ميسيا
» حميد	٢ - بيسيديا
» كرميان	٣ - فريجيا
» تاكة	٤ - ليسيا
» سروخان وايدىن	٥ - ليديا
» منتشا	٦ - كاريا
» قزل احمدلى	٧ - بفلاغونيا
» قرمان (١) (*)	٨ - ليكونيا

وما زالت هذه الامارات فى سلطة الامراء السلاجقة حتى اتى العثمانيون فاستولوا عليها وانشأوا الدولة العثمانية فى أوائل القرن الثامن للهجرة

---

(١) Lane Poole's Moh. Dynasties

(\*) ورد بيان هذه الدويلات واسماء اصحابها وامرائها والواضع التى قامت فيها فى معجم الانساب الذى سبق ذكره ، فتراجع هناك



# الدول الكردية في ظل العباسيين

## الدول الصغرى

الأكرد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخشونة وجفاء ، يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون ، وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الأمم الشرقية التي دانت للإسلام في إبان التمدن الإسلامي وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالفرزوكما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الأكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن .

ونظرا لتمسكهم بالبداءة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في أعمالها الا قليلا ، فلم ينبغ فيهم أحد من رجال الامارة المستقلة أو أهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنويه بن حسين البرزكاني ، زعيم بعض قبائل الأكرد في كردستان ، في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور ( أو الدينور ) وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيرا فحكمت من سنة ٣٤٨ - ٤٠٦ هـ ثم استقل من الأكرد أبو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وبائع خلفه للفاطمين حينما من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ

## الدولة الايوبية :

على ان الأكرد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ - ٦٤٨ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلا وسياسة وبسالة وتدبرا ، أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر وبائع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وأنقذ بيت المقدس من أيديهم ، ومآثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن الأكرد في أيام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته وأولاده وأولاد اخوته ،

ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليتهم الاثراك ، كماغلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للماليت بمصر دولتان تعرفان بالسلطين المماليت كما سيحيىء

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام قد اثر في أمم المشرق تأثيرا خاصا وساقها الى التمدن تدريجا ، فتساقبت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار أسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامى . فأول من أسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهم أولا الفرس وهم أقرب أمم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا أسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاثراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم أقرب من الاثراك الى العالم الاسلامى يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاثراك أقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر أو المغول فنهض هؤلاء وأغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ماكادوا يحتكون بالعالم الاسلامى حتى أخلدوا الى النظام وأنشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب ، خصوصا قبائل البربر في شمالى افريقيا كما تقدم (\*)

(\*) أشار المؤلف هنا الى ظاهرة من اعظم ظواهر التاريخ الاسلامى ، وهى اكبر دليل على ان الاسلام في ذاته قوة حضارية كبرى ، وان فيه حوافز معينة تدفع الاجناس التى تدخل فيه الى التنظيم والترتيب وانشاء الدول ، وفي ظل الدول تنشأ الحضارات . ويلاحظ ان كل شعب دخل في الاسلام تمثله في كيانه واعتبر نفسه حامل لواء من الوية الاسلام ومضى ينشره فيمن يليه ، واذا نحن قارنا من دخل الاسلام على ايدي العرب بمن دخله على ايدي غيرهم لوجدنا ان العرب لم ينشروا الاسلام الا في جزء صغير من العالم الاسلامى اليوم ، والباقى ضمه الى الاسلام شعوب أسلمت على يد العرب او غيرهم ، ويكفى ان نذكر ان الاسلام المنتشر اليوم في افريقية (عنا مصر والمغرب وشمال السودان ) وفي الهند وتركستان واندونيسيا والفيليبين يرجع الفضل فيه الى أمم بعيدة كل البعد من العروبة ، بل لاتعرف العربية . وكل شعب يدخل الاسلام يسرع الى انشاء دولة على غرار دولة الاسلام الاولى ، وهذه الدولة هى الاداة التى تعمل على نشر الاسلام . وهذا صحيح فيما يتصل بشعوب آسيا وافريقية ، ويكفى ان نلاحظ ان شعوب المغرب كلها كانت قبل الاسلام مجرد قبائل ، فعرفت في ظل الاسلام كيف تنشأ الدول والحضارات، واذا كان المؤلف قد وقف طويلا عند دول المشرق فنحن نشير هنا الى دول المغرب التى أقامها البربر انفسهم دون عون من العرب . كدولة بنى زيرى الصنهاجيين في افريقية وهى المعروفة اليوم بثونس ، ودولة الرابطين صاحبة الفضل الاكبر في انقاذ الاسلام الاندلسى من الضياع المبكر ثم في ادخال الاسلام الى غربى افريقية ، ودولة الموحدين وهى من اعظم ما انشأ المسلمون من الدول حضارة وقوة ونظاما وسياسة ، وما جاء بعدها من دول المرينيين والوطاسيين والحفصيين مما يطول ذكره . والاسلام من هذه الناحية اعظم قوة ممنوية تنظيمية عرفها التاريخ ، وهذه ناحية لم ينتبه لها واحد من مؤرخى الاسلام ، ولا ابن خلدون نفسه ، وهى جديرة بأن تدرس على حدة

## الخِلافة والسلطة

### او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى أحد أصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم أمور الرعية ، فبعث في السنة الثالثة للهجرة ابازيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابوزيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن »

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لان الامير كثيرا ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معا ، كما تولاهما يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان ابن عبد الملك (١) ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في النبي ( صلعم ) سياسيا ودينيا تفرعت في ايام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن ( حوالى سنة ١٩١٠ ) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي ( صلعم ) وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية أيضا لما يقتضيه الجهاد من الحرب واسبابها ، كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ، ويدخل في ذلك ولاية الاعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، اى ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهى الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد (\*) جاز للرياسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسية ، او

#### (١) ابن الاثير : ج ٥

(\*) لم تذهب الحاجة الى الجهاد ولكن القوة عليه ضعفت . وطوال العصور الوسطى ، بل حتى القرن السابع عشر ، كان الاتراك العثمانيون يجاهدون في سبيل الاسلام ، بل ان الجهاد هو العنصر الاساسي في سياسة هذه الدولة . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أهل الشمال الافريقى يجاهدون في البحر الابيض ، وكان القرس والهنود والحضارة يجاهدون جهادا سلميا في نواحي آسيا ، وهو جهاد جليل مد رواق الاسلام حتى المحيط الهادى . وحتى الحرب العالمية الاولى كان خلفاء آل عثمان يتحدثون عن الجهاد ويحاولونه رغم عجزهم عنه . واليوم يجاهد كثير من مسلمى الهند في نشر الاسلام في شرق افريقية وبعض نواحي أمريكا اللاتينية . والخلاصة ان الجهاد عنصر داخل في تكوين الدعوة الاسلامية ، وهو من الناحية النظرية فرض لازم على كل مسلم

تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة ، كما حدث في النصرانية وغيرها  
ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية ،  
لان النصرانية انتشرت أولا في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . واما  
الاسلام فانه ظهر أولا في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لان أقدم  
أهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمرأؤهم ، نشروا الاسلام في  
الأرض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم . فلما تأيد الدين وقامت دولة  
المسلمين ورغب الأمراء في السلطة الدنيوية ، كان منصب الخلافة من أكبر  
أسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على أذهان الناس في تلك الأيام ، فقد كانوا  
لا يجتمعون الا تحت رايته وخصوصا في الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى  
الآن

على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حدا فاصلا بين الخلافة  
والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة ،  
خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل على وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم  
ير المسلمون بدا من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك، لكنهم استنكفوا  
من أن يسموه « خليفة » أو يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكا » ،  
وهو يأبى الا أن يجمع الرياستين لعلمه أن الرياسة الدنيوية وحدها لا تنفيده  
شيئا - ذكروا أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر  
الأمر له وقال : « السلام عليك أيها الملك » فضحك معاوية وقال : « معليك  
لو قلت يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جدلان ضاحكا ؟ والله  
ما أحب أنى وليتها بما وليتها به »

فيظهر من ذلك أنهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ،  
ويعتقدون أن بنى أمية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسياسة  
الى الملك البحت

### الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا أن الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الا  
بالدين أو ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها  
الا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين ، بأن تجعل للملوكها  
مزية على سائر الناس . وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من  
تقييد الحكومة بالشورى ، وهى أفضل الحكومات وأطولها عمرا ، والا فانها  
تنحل سريعا ، ويكفى لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص  
الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده . وإذا تدبرت تاريخ الدول  
الاسلامية رايت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا في طول بقائها واتساع نطاقها -  
اعتبر ذلك في الدول التى نشأت في أثناء التمدن الاسلامى من الفرس والترك

والكرد والجركس ، كالبويهيين والسلاجقة والابوييين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارة السياسة ، ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التى جمعت بين الخلافة والسلطة ، كالعباسيين والفاطميين والامويين فى الاندلس ، مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول الاعجمية رايت اطولها عمرا وأوسعها ملكا الدولة التى جمعت بين السلطتين وهى الدولة العثمانية . وبنو أمية فى الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا ، فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما فى الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوفقوا الى اعوان عرفوا أن العامة لا تحكم بمثل الدين ، فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا : « خليفة الرجل فى أهله أفضل من رسوله فى حاجته » (١) كما تقدم . والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه ، وأما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من الشكوك

فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس ، وهم من بنى هاشم ومن أولى الناس بالخلافة ، كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية ، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح (١) وغرس فى أذهان الناس بتوالى الأزمان ان الخليفة العباسى اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات (٢)

وكان الخلفاء لا يأتفون من ذلك التفخيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم فى عصره ، فقد ذكروا أنه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : « فكأنه بعد الرسول رسول » (٣) فكيف يكون حال الخلفاء فى عصر الاضمحلال ، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفى اولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟ واذا شاخت الدولة تمسك أهلها بالعرض وتركوا الجوهر ، فلا غرو اذا سمو الخليفة فى أيام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » (٤) أو قالوا قول ابن هانئ للمعز الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار (٥)

(١) لم يقل بهذا الا نفر من المستبدين من رجال الدولة الاموية ، وقد أنكره عامة المسلمين كما رأينا  
(١) ابن الأثير ١٩٨ ج ٥ (٢) الفخرى ١٢٥ (٣) الاغانى ١٨ ج ١٢ (٤) المسعودى ٢٨٠ ج ٢  
(٥) ابن الأثير ٢٤٥ ج ٨

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس ، والاصل في هذا التقديس انما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي ، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر - ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، فهو امير الناس في السلم ، وقائدهم في الحرب ، وامامهم في الصلاة ، وهو قاضيهم وفتيهم كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في اول الاسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران ، عمد الخليفة الى ائابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه ، والقاضي نائبه في القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية ، وكذلك في المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية ، فهو يفتقر ايضا الى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رآيت الخلفاء يقربون اهل العلم ولا سيما في اوائل الاسلام ( وهم يومئذ الحفاظ أو القراء ) وكان اليهم المرجع في حل المشكلات الدينية او القضائية أو الفقهية ، وهي اساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلامية . ونظرا لتمسك العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد في الدولة ، فلا يقطع الناس بأمر هام الا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء ، فاذا انكر الفقهاء بيعه أحدهم أنكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشورتهم في عصر الراشدين والدولة على سداحتها لم يلبسها غش ولا دهاء ، فاذا نهوا الخليفة أو الأمير عن عمل انتهى وأخذ بنصيحتهم

فلما طمع بنو أمية في الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش ، كان في جملة ما أهملوه من قواعد الراشدين الأخذ بأقوال أهل العلم ، لأنهم لو أطاعوهم ما تيسر لهم الملك . فقاسى العلماء في أوائل دولة الأمويين عذابا شديدا من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضى أهل الدولة وأبى البعض الآخر الا الحق ، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم - بدأوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بنى أمية ، وقد أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية بن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جراءة أهل العلم على الخلفاء وانكار الأمويين ذلك . وقد فصلناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب

فلما استتب الامر لبنى أمية حبست الافكار وتقيدت الالسنه ، ولم يتقدم من العلماء فى مناصب الدولة الا المملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملا الا بمشورة فقهاء المدينة ، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر ابن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء فى زوايا الاهمال معظم ايام بنى أمية . فلما تسلط العباسيون واطهروا انهم يريدون احياء السنه وتقويم ما اعوج من سبل الدين فى عهد الامويين ، ظهر اهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء واکرموهم فعادوا الى جراتهم فى خطاب من يائسون منه اصفاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف - وقد اشرنا اليها ايضا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب - وكما فعل سفيان الثورى لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه وبقربه ، فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « اما بعد ، فاني كتبت اليك اعلمك انى صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فانفقته فى غير حقه وانفذته فى غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وانت ناء عنى حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك . فأما أنا فاني قدشهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غدا بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون ! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفسة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل . ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن واهل العلم ( يعنى العاملين ) ؟ أم رضى بفعلك الابتام والارامل ، أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ » (١)

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه (٢) وكان أكثر الخلفاء الاولين من بنى العباس اذا لقوا فقيها او زاهدا طلبوا اليه ان يعظهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . واشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامه ، مثل توسط الامراء والقواد فى تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يعنى الفقهاء عن الواسطتين جميعا ، لان عامه المسلمين ينقادون الى فقهاءهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامه النصراني الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والامراء لنفسى هذا السبب أو لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين ، لان الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالا وجاها ولكن

(١) الديمري ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١

ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء ينعنون للعامة باسم الدين أيضا . حتى أنهم كثيرا ما كانوا يضطرون الى مسابرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفا لما في نفوسهم أو مناقضا للواقع ، كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي (صلعم) فقبلها المهدي منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وإنما خاف ان كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور في الدين (١)

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الاموي مع اشتهاؤه بالخلافة والتهتك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطوية ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتي بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلي فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب (٢) (✽)

(١) كتاب الاذكياء ٩ (٢) الاغانى ١٤١ ج ٦

(✽) لم تعرف الدولة فصل الناحية الدينية عن الناحية السياسية كما عرفه العالم المسيحي، ففي العالم المسيحي كان السلطان السياسي هو الاصل ، وكان يمثل امبراطور الدولة الرومانية ، ثم تسربت المسيحية وانتشرت بين أهل الدولة ، وكان يمثلها رجال دين هم رؤساء الجماعات المسيحية السرية ، ولا أصبحت المسيحية ديانة معترفا بها امام قسطنطين ، ثم ديانة رسمية للدولة الرسمية امام ثيودوسيوس الكبير نشأت الكنائس ونظمتها ، وأصبح رجال الدين هيئة - او هيئات - رسمية تطالب بالسلطة الزوجية على الناس وتقوم بالطقوس الدينية اللازمة لمناسبات الميلاد والتعميد والزواج والطلاق والوفاة وما الى ذلك ، وما زال أمر الكنيسة ينظم حتى أصبحت سلطة كاملة لها نظامها ورجالها وأدواتها وقوانينها وأموالها . وبدا النزاع بين هذه السلطة الجديدة والسلطة الزمنية ، اى بين الكنيسة والامبراطور ، وهو نزاع شغل العصور الوسطى كلها

اما في العالم الاسلامي فان الدولة نشأت من اول الامر كأداة للمحافظة على الدين والعمل على نشره ، اى أنها نشأت في ظل الدين ، وكان لابد ان تكون تابعة لصاحب السلطان الاعلى في الجماعة الاسلامية وهو الرسول صلوات الله عليه او من يحل محله . غير أن الدولة التي نشأت أداة من ادوات العقيدة لم تلبث ان اتسع مداها وعظم سلطانها وتعقد تركيبها ، حتى أخذت الحيز الأكبر من اهتمام الخلفاء ، نظرا لبسطة العقيدة الاسلامية واستغنائها عن رجال يقومون على طقوسها ، ونظرا لانتشارها من تلقاء نفسها دون حاجة الى تبشير أو دعوة أو وعظ ، ومن ثم فقد غلب الطابع المدني على شؤون الدولة الاسلامية ، وتحول الخلفاء الى ملوك ، لا يارادة معاوية بل لان ذلك كان الاتجاه الطبيعي للامور ، ولا يمكن أن يقال ان خلفاء بني العباس كانوا أكثر عناية بالدين من خلفاء بني امية . وقد قامت بأمر الدين جماعات من أهل العلم والبحث ، فوضعوا علوم الدين والمذاهب وقواعد المعاملات ، وتألفت منهم مع الزمن جماعات الفقهاء ، ولم يكونوا رجال دين بل علماء دين . وفي خلال العصر العباسي الاول كان الخليفة يتمسك تمسكا شديدا بسلطانه الروحي على الناس ، ولهذا لم يكن للفقهاء سلطان وان كان لهم احترام عظيم ، فلما تخلى الخلفاء عن ذلك الجانب الروحي احتاجوا الى من يعطي سلطانهم جلال الدين فاحتاجوا الى الفقهاء ، وبدأ هؤلاء ينشئون لانفسهم دولة داخل الدولة ، وأصبح لابد لاعطاء اوامر رجال الدولة طابعا شرعيا من تأييدها بفتاوى ، فظهر المفتون او اصحاب الفتيا ، وكان لهم شأن عظيم في الاندلس ، ثم في دولة الاتراك العثمانيين ، وأصبح الافتاء وظيفة ثابتة من وظائف الدول الاسلامية



فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لا يستغنون عن بيعته (\*) لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليدا او عهدا بولاية ذلك البلد ، او ان يلقبه ويخلع عليه ، واذا ابى الخليفة ان يجيبه غضب وعد ذلك تحقيرا له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته

فالامارات او الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية ، في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان اصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين في العام ، مع انهم في امن من سطوته ، وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كان شأن الاجناد الاتراك وامرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلصا لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خاليا يوما واحدا ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستلحق العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم ، مثل آل بويه وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه واكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهية ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعي على غير مذهب الخليفة . وكان يغالى في التشيع ويعتقد ان العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقها ، فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه واعاد من امر الخلافة ما قد نسي ، وامر بعمارة دار الخلافة والاكثر من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام (١)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم احد منهم هددوه بالخروج من بغداد ، فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يفضب العامة (٢) ويجرئهم على خلع الطاعة ، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ - ولذلك لم يكن من سبيل

(\*) الاصح هنا ان يقال « تأييده » لان الخليفة كان لا يبايع اولئك الامراء والملوك والسلاطين ، بل يؤيدهم باعلان رسمي يرفقه بخلع خاصة تسمع الخلع الخلافة . اما المبايعه فتصدر منهم له ، أى انهم يبايعونه بالخلافة

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٢ ج ٩

الى نزع سلطته أو الاعتراض عليها الا من وجه دينى ، فكان الدين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف (١) أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد (٢) ولما رأى أبو مسلم الحراسانى أهل اليمن فى مكة قال : « أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تباعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين فى القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبى على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسى فى بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية فى غاية الاضمحلال والضعف ، وهو فى غنى عن بيعتها ، ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم فى ايجاد خليفة يبايعونه (٣) ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به (٤) على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا فى بغداد ، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا فى احترامهم واکرامهم (٥) مع علمهم ان أولئك الخلفاء لا يفنون عنهم شيئا ، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالإطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسى بالقاهرة ، ويطلبون التقليد منه أو المنشور لاثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك (٦) فما الذى بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من اثر ذلك فى أذهان العامة ؟ ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تدينا ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٢) كتاب الاذكياء ٢٧  
(٣) أبو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٩  
(٥) القزوينى ٣٠١ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٢

ومما يستحق النظر والاعتبار أن ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والأتراك والأكراد والبربر والجركس وغيرهم ، مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني ، بعد تضعضه بفتوح المغول ، ولا ادعاها أحد من العرب غير قریش . وأول سلطان غير عربى بويع بالخلافة السلطان سليم العثمانى

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن ، من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا اذا طمعوا في السيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لانفسهم نسبا في قریش ، كما فعل أبو مسلم الخراسانى لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة ، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسبا في بنى العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس (١)

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم في أواخر العصر العباسى ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة أخرى . على ان بعضهم طمع في النفوذ الدينى من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسى في أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعل له ولى عهده ، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب (٢) ولم يوفق الى مراده

ولما أفضت السلطة الى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة أيضا ، ولكن على أن يتزوج السلطان طفرا بك السلجوقى ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها اليه ووسط قاضى الرى في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج ، اذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ في استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان الا أن يجاب . وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة الى القبول - فعقد لعلها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة فى المذهب (٣) اذ يكفى من الخليفة تنازلا أن يتزوج

(١) ابن الاثير ٨ ج ١٠

(٢) ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨

(٣) الفخرى ١٢٣

بنات الملوك لا أن يزوجهن بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طفول بك .  
ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية ، قبل الارض بين يديها  
وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا  
قامت له ، وظل اياما يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق  
لائتمام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم  
تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد  
فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ،  
فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

## العصر العربي الثاني

## الأمارات العربية والعصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني (\*) العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم ،

(\*) لم يتحدث من عصر عربي ثان إلا المؤلف ، وهو رأى من آرائه الخاصة في تقسيم عصور التاريخ الإسلامي ، وهو رأى جدير بالتقدير ، ولنا عليه ملاحظات : (١) لا يمكن وضع هذه الدول كلها تحت عصر واحد ، فقد اختلفت أزمانها اختلافا كبيرا ، فالدولة الأموية في الأندلس قامت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، أي في نفس الوقت الذي قامت فيه الدولة العباسية تقريبا ، وقامت دولتا الإدارة والأغلبية في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ، في حين قامت دول الحمدانيين والعقيليين في القرن الرابع ، وقامت دولتا الزيديين والمرادسة في القرن الخامس ، وعلى هذا فلا يمكن اعتبار ظهور هذه الدول معينا لعصر خاص ذي طابع متميز . (٢) ثم أن الكثير من هذه الدول كانت عربية بالاسم ، في حين كان رجالها وجندوها من غير العرب ، كالدولة الفاطمية مثلا ، وهي في هذه الناحية لا تختلف عن الدولة العباسية ، بل هذه الأخيرة أظهر عروبة وأكثر اعتمادا على العرب ، ومن هنا لا يجوز أن نخرج الدولة العباسية من عداد الدول العربية لمجرد أن وزراءها وكتابها وجندوها - أو أكثرهم - يتعبر أصح - كانوا من غير العرب . (٣) ولا ينبغي أن نتصور أن آل حمدان مثلا أنشأوا دولتهم انتصافا للعرب من غير العرب ، فقد كان معظم اعتمادهم على غير العرب ، وكانت أساليب إدارتهم أشبه بأساليب العباسيين واليوهيين ومن اليهم ، بل هم من حيث الإدارة أسوأ الدول التي عرفها الإسلام على الإطلاق ، فقد كان ظلمهم ومسفهم ونهبهم أموال الناس مضرب المثل . ولم يكونوا هم وبنو مرداس وبنو عقيل الأغاصيين للسلطان بالقوة في ناحية من نواحي الدولة العباسية ، مثلهم في ذلك مثل اليوهيين (٤) ثم أنه ليس هناك ما يدعو إلى تقسيم الدول إلى عربية وغير عربية بحسب أصحابها ، لأن هؤلاء جميعا كانوا مستمسكين بفكرة العروبة مهتمين بلغتها وآدابها ، وقد قام السلاجقة بأجل الخدمات للغة العربية بما أنشأوا من المدارس والمعاهد

وبعد هذه الملاحظات العامة نبدى ملاحظات فرعية هي : (١) لا يمكن وضع الدولة الأموية الأندلسية والدولة الرندسية مثلا في كفة واحدة ، فشتان بين دولة كبرى كدولة بني أمية ومشيخه قبيلة استمدت بالامر زمنا في ناحية صغيرة من نواحي العالم الإسلامي . ولا معنى كذلك لوضع بني دلف العجليين إلى جانب الدولة الفاطمية أو حتى دولتي الإدارة والأغلبية ، فشتان ما بين هذه وتلك من حيث الطبيعة والقوة والانتساع والخدمات التي أدتها للإسلام والعروبة (٢) ليس صحيحا أن « العرب الذين كانوا يطعمون في أحياء العصر العربي ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين كانوا ينزحون إلى الغرب فينزلون الأندلس » لأن أحدا لم يهاجر من الشرق إلى المغرب لهذه الغاية ، بل كان أهل الأندلس أنفسهم يرون أن الدولة العباسية هي قلب العروبة وأصلها . (٣) ليس من المحقق أن على بن محمد صاحب الزنج قد انتحل الدعوة العلوية للزنج بالدولة العباسية ، لأن الثابت أن الرجل كان يقود حركة اجتماعية ، حركة انصاف الزنج من الظلم الذي كانوا يقاسونوه ، ولكنه هو أفسد الدعوة بسوء تصرفه وضعف تفكيره السياسي (٤) لم يقل أحد أن الأمال كانت متعلقة بالدولة الفاطمية لأحياء العصر العربي ، فإن رجال الدولة كانوا من البربر والأتراك والسودان ، ولم يكن عربا من رجالها الا قليل جدا ، أما البقية ففرس أو عجم أو بربر أو ترك ، وفيهم الكثير من النصارى واليهود والأرمن (٥) وأضح جدا أن قوله : « فالعصر العربي الثاني عبارة عن أحياء العصر العربي في المغرب بعد انحلاله في الشرق » لا يطابق الواقع (٦) أن تفكير محمد علي في إقامة دولة عربية غير ثابت ، وربما يكون قد لجأ إلى ذلك لإعطاء حركته طابعا يشد أزره أمام الأتراك ، ولم يكن محمد علي نفسه عربي الميول ، بل كانت طبيعته التركية أغلب عليه ، وربما يكون صاحب هذه الفكرة ابنه إبراهيم ، فقد نشأ في مصر واستعرب وأحب المصريين والعرب . وما يلاحظ من اجتهد محمد علي في أحياء اللغة العربية إنما جاء نتيجة البيئة المصرية التي قامت فيها دولته ، وكان اهتمامه أول الامر موجها نحو اللغة التركية ، وكانت هذه اللغة هي اللغة الرسمية لدولته فترة طويلة ، ولكنه لم يستطع الاستمرار في دعوته التركية إزاء ضغط العصر المصري العربي ، واتجاهه إلى أحياء ثقافته العربية

وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة ، بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية ، وتغلب الفرس في الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع اعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة ، فذلوا وتقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم ، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر ، حتى الاكراد والاعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك الا قليلا لتغلب الاتراك في مصالح الحكومة

على ان بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس واجنادهم الاتراك في القرن الرابع للهجرة ، وراوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بنى تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية احبوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظم فيه أبو الطيب المتنبي

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضا دولة عربية أخرى اسمها المرداسية ، نسبة الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب من المضرية ، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ - ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بنى عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٢٨٦ - ٤٨٩ هـ ، وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالزيدية نسبة الى مزيد الشيباني من قبيلة أسد، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ - ٥٤٥ هـ

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الاول وفي بلاد غير عربية ، فالاولى أن تعدا من الدول الاعجمية ، وهما الدولة الدلفية التي أنشأها أبو دلف العجلي في كردستان ، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان ، واذا أضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الادارسة التي ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثمانى دول ، هذا ييانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ - الادريسية	مراكش	١٧٢ - ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ - الاغلبيية	تونس وغيرها	١٨٤ - ٢٨٩	ابراهيم بن الاغلب

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
٣ - الدلفية	کردستان	٢١٠ - ٢٨٥	أبو دلف العجلي
٤ - العلوية	طبرستان	٢٥٠ - ٣١٦	الحسن بن زيد
٥ - الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ - ٣٩٤	بنو حمدان
٦ - المزيديّة	الحلة	٤٠٣ - ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ - العقيلية	الموصل	٣٨٦ - ٤٨٩	بنو عقيل
٨ - المرداسية	حلب	٤١٤ - ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات انعريية الصغرى التى ظهرت فى بلاد اليمن ، كالزيادية فى زبيد ، واليعفورىة فى صنعاء ، وغيرهما

على ان هذه الدول قلما اثرت فى احياء سطوة العنصر العربى أو ارجاع شوكة العرب ، لانها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، الا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا بأكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ فى أذهان الناس أن الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين ، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون أصحاب العصية العربية ، وأكبر أعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم ، قد انشأوا دولة عربية فى الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سياتى الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون فى احياء العنصر العربى ، ويكبرون ذهاب دولة العرب فى ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون فى الاندلس أو يقيمون فى افريقيا فى ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

وأكثر العرب نفورا من تلك الدولة وأشدهم بغضا لها شيعة العلويين ، لاسيما بعد أن قضى على آمالهم فى الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض أصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب فى أوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ولم يطمع أمراؤها فى لقب الخلافة

وبقى فى الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعةهم الموالى الفرس ، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما فى أيديهم بعد فتنة الامين والمأمون واستبداد رجال الاتراك فى الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسى والعربى جميعا ، يئسوا من نصرة الموالى فنزح بعضهم الى المغرب تدريجا ، وظل البعض الآخر فى المشرق يترصدون ضعفا يبدو لهم من الدولة



العباسية ، فيفتنمون الفرصة للوثوب بها لايبالون بمن يستنصرون او على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين ، وطورا بالاكراد او الديلم او غيرهم من الامم الناقمة على الاتراك ، او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفز أحد منهم بإنشاء دولة غير الحسن ابن على في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ، ولم يطل عمرها . وكثيرا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج في العراق ، فانه أقلق راحة الدولة العباسية وأجنادها وعمالها بضعة عشر عاما ، بما جمعه من اباقي العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباح في ضواحي البصرة والكوفة ، واستنفض سائر السودان فتركوا أسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٥٠٠٠ (١) وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه على بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعى وتشتت رجاله

علي ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب ، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية ، فجاءوا مصر وفتحوها في أواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي أكبر دول الشيعة ، وسيأتي ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسبا في العرب . وكانت الامال متعلقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين ، فان أهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين (٢) على أنهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر ، لذهاب دولة آل بويه من المشرق ، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك ، وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها ، فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سنى والثاني شيعى

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية وأخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي ، أعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان

(١) الفخرى ٢٢٧ (٢) ابن الاثير ٩٢ ج ١

العنصر العربى قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجىء ، فعاد العنصر العربى الى الضياع ، الا امارات صغيرة ظهرت فى جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقيا الى الآن ( حوالى سنة ١٩١٠ )

فالعصر العربى الثانى عبارة عن احياء العنصر العربى فى المغرب بعد انحلاله فى المشرق ، واكبر العوامل فى احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يقم للعرب قائمة فى الدولة الاسلامية من ذلك الحين - الا ما أبدته بعض القبائل من النهوض فى بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية ، كقيام الوهابية فى نجد والدراويش فى السودان . ولما عزم محمد على مؤسس العائلة الحديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى فى أوائل القرن التاسع عشر، اراد أن يستعين على انشائها بعصبة اسلامية ، وأقوى العصابات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبة التركية للدولة العثمانية ، فاختار عصبة العرب ، فحامت الآمال حوله ، وخصوصا بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل ، فأحيا العنصر العربى ونشط العصبة العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته فى غرضه السياسى ، لما حال دون مطامعه من أغراض دول الافرنج فى المملكة الاسلامية ، ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية ، بتمهيد السبيل للنهضة التى نحن فيها الآن ، أما ما تتناقله الجرائد من أخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا

فالنهضة العربية فى العصر العربى الثانى الذى نحن فى صددده قلما أثرت فى احياء العنصر العربى . وقد تقلبت على كل من الدولتين الاموية فى الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة فى سياستها وشؤون حكومتها لآبأس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا فى الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية فى أكثر احوالهما

## سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان كان شديدا مثل جده عبد الملك ، نجا من مذبحة أهله في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعا في انقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقدون على الأمويين . فلما وصل به إلى المغرب سعى له في جمع الأحزاب ، فقطع مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وفيها من موالى بني أمية نحو خمسمائة رجل ، فأخبرهم بقدم مولاه وحرصهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضربة واليمينية - وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه إليهم ، فدخل الأندلس وتولى أمورها (\*) سنة ١٣٨ هـ ( ٧٥٦ م ) ولذلك سموه الداخل

وقد حكم عبد الرحمن أولا باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر في بادئ الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، (\*) شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في أرجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرته ابن عمه حروبا ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما آتس منه تردددا صاح فيه : « أقطعها والا قتلت نفسي ! » فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أمويي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء ، ثم سموهم الخلفاء . واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي إهان مالك بن أنس أمام المدينة ، لما علمه من افتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع العلويين ، فاعتنم

---

(\*) الصحيح أن بدوا وموالى بني أمية الذين انضموا إليه لم يحاربوا إلا بعد أن عبر عبد الرحمن إليهم ، فهو الذي خاض الحروب وكسب المواقع ، ولم يتول أمور الأندلس إلا بعد أن كابد بنفسه من الشدائد أضعاف ما كابده بدر والموالى  
(\*) صحته : عبد الملك بن عمير بن مروان بن الحكم الأموي ( انظر ترجمته في نفع الطيب للمقرئ ، طبعة معى الدين ح ٤ ص ٥٩ )

الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم واکرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه . فالامويون رأوا فيه اماما كبيرا ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بنى العباس . ورأى مالك في الامويين ملجأ كبيرا وتعزية لما ذاقه من شدة بنى العباس . فشاع مذهب مالك في الاندلس من ذلك الحين ، وكانوا قبل على مذهب الاوزاعي مثل اهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأى مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (١) (\*)

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته (\*\*) ، وكانا متشابهين من عدة أوجه : منها ان والده كل منهما بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور . واتفقا في أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المفيرة بن الوليد بن معاوية (٢) (\*\*\*) وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والقدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده ، فسخط على بدر مولاة لفرط دلاله عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦هـ الى مكان بقى فيه الى أن هلك ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد بلائه في انشاء دولته (٢) (\*\*\*\*) . وقتل عبد الرحمن أيضا أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه (٤) ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما (\*\*\*\*\*) . وقام

(١) نفح الطيب ٧١٩ ج ٨ (\*) القصة هنا تخالف الواقع بعض الشيء ، فان مالكا أولا لم يطعن في خلافة العباسيين ، ولكنه افتي اهل المدينة بأنبيعة المنصور لا تلزمهم ، وانهم في حل ان يبايعوا غيره ، ولم يكن لعمل مالك هذا صدى في الاندلس ، وقد وقع ذلك بينما كان عبد الرحمن يؤسس دولته ، ولم ير مالك في دولة عبد الرحمن ملجأ ، ولم يتصل به . وكان لدخول مذهب مالك الى الاندلس أسباب وظروف أخرى غير ما وقع بين مالك والمنصور ، وأصحاب الفضل في ذلك نفر من تلاميذ مالك من اهل المغرب والاندلس ، وربما كانت مدرسة المالكيين في مصر وامامها عبد الرحمن بن القاسم هي السبب الاكبر في شيوع مذهب مالك في الاندلس والمغرب (\*\*) هنا ايضا مبالغة ، فقد كان المنصور فاتكا لا يبقى على خصم ولا يتردد في القتل ، في حين أن عبد الرحمن الداخل كان أميل الى الرفق ، ولم يلجأ الى القتل الا عند الضرورة القصوى

(٢) نفح الطيب ٧١٥ ج ٢ (\*\*) العبارة منقولة عن المقرئ كما أشار المؤلف ( طبعة محيي الدين ، ٣٥/٤ ) وقد ذكر المقرئ اسم ابن أخيه المقتول هذا على الصورة التي أوردها المؤلف ، وكذلك ابن حزم في جمهرة الانساب ، ص ٨٦ (٣) ابن الاثير ٥ ج ٦

(\*\*\*\*) الفرق واضح في العاملين ، ففي حين أن المنصور غدر بأبي مسلم وقتله شر قتلة اكتفى عبد الرحمن بإبعاد بدر . وقد ذكر المقرئ قصته وما دار بينه وبين عبد الرحمن من مكاتبات ( نفح الطيب ، طبعة محيي الدين ، ٣٩/٤ - ٤٠ )

(٤) نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢ (\*\*\*\*\*) المقارنة هنا ايضا غير سليمة ، لان عبد الرحمن لم يغدر بأبي الصباح ، وإنما غدر هذا به ، فحاربه عبد الرحمن وقتله ، في حين أن المنصور أوقع بأبي سلمة على صورة بغية . انظر ، نفح الطيب ٤٨/٤

اليمانية رجال ابي الصباح يطلبون بثاره ، فأوقع عبد الرحمن بهم واكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم انهم يصحجون على غل وحقد ، فانحرف عنهم الى اتخاذ الممالك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليتهم ، فاقتنى موالى الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدو على شواطئ افريقية واستوفدهم ، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم واحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا في خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠.٠٠٠ رجل ، غلب بهم على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

#### الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوروبا يتجرون ببيعهم في انحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجا . والسبب في رواجه أن قبائل السلاف ( الروسيين ) نزلوا في أوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو ( السكلاف ) والسرب والبوهيم والدلات وغيرهم (\*) . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم ، فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى ، عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقيا ومنها الى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان ، من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود - ولا يزال أهل جورجيا والجرس الى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ( الى ما قبل الحرب العالمية الاولى ) - فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء أمامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، الى أن يحطوا رحالهم في فرنسا

(\*) السلاف تحريف للفظة اللاتينية Sclavus بمعنى العبد ، وقد اطلق أهل الدولة الرومانية هذه التسمية على الشعوب التي كانت تسكن شرق نهر الدنيبر ، لأن تجار الرقيق كانوا يأسرون أولادهم ويأتون بهم رقيقا . واللفظة العربية « الصقالبة » إنما هي اللاتينية Sclavus . والسرب تحريف للفظة اللاتينية Servus بمعنى الخادم ، وقد اطلقت هذه التسمية على ذلك الجنس كما اطلق لقب الصقالبة على الروس . وأما البوهيم فهم أهل إقليم بوهيميا من أقاليم المانيا ، واسمه بالالمانية Boehmen وكان أهلها يعيشون ظواجن متنقلين ، فأطلق اللفظ على كل متنقل يعيش على هواه فقيل بوهيمي . والدلات هم أهل دلماشيا ، وهي الساحل الشرقي للبحر الادرياتي ، وهي اليوم في يوغوسلافيا

ومنها ينقلونهم الى اسبانيا ( الاندلس ) فكان المسلمون يتساعون الذكور للخدمة أو الحرب ، والآنث للسرى . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى الجنس الصقلى ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ، ومنها « صقلبي وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال (\*)

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب فى الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ ) فانه استكثر من اقتناء الممالك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالاندلس (\*\*) ، فجعل الممالك من المرتزقة قبلت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لجمجمة السنثهم ، ثم تدرج الامويون فى استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا فى أيام عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسى بالأتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكته هذه فى أوربا عن سائر ممالك الاسلام فى آسيا وأفريقيا ، ولم يكونوا يطمعون فى التغلب على الممالك الأخرى ، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين (١) مخافة أن يقع أحد منهم فى أيدي العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيع لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

### ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها فى أيام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلا كريما توفرت الثروة فى خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد فى بغداد من حيث الرغد والرخاء . وخلفه ابنه الحكم المستنصر ، وكان محبا للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد ، وبلغت مملكة الاندلس فى أيام هذين الخلفيتين الى اوج مجدها سطوة وأبهة وثروة ، وأخذ شأن الخلافة بعدهما فى الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالاحكام ، وهم موالى الامويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والأتراك فى الدولة العباسية (\*\*\*)

(\*) كان الذين يقومون بهذه التجارة اليهود خاصة ، وكانت لهم مواضع يقومون فيها بخصاء الرقيق أهمها مدينة لردان الحالية

(\*\*) سبق أن ذكر المؤلف أن أول من فعل ذلك عبد الرحمن الداخل ، وهو الأصح (١) ابن خلدون ٢٢٨ ج ١ - \* والواقع لا يؤيد ابن خلدون فى ذلك

(\*\*\*) لم يكن الذين تقاسموا تلك الدولة الاموية فى الاندلس ، وهم المعروفون بملوك الطوائف ، كلهم من موالى بنى أمية من البربر والصقالبة ، بل كان أكبرهم وأهمهم من عرب الاندلس ، فكانت هناك أمارات عربية ( مثل بنى مباد فى أشبيلية وبنى هود فى سرسطة وبنى جهود فى قرطبة ) وأمارات بربرية ( مثل بنى زيرى بن مناد فى غرناطة وبنى حمود فى مالقة ) وأمارات صقلبية ( زهير العاصرى فى المرية ومجاهد العاصرى فى دانية والجزائر الشرقية )

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الامويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال أخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً (\*\*) ، حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة في أيام هشام بن الحكم في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة ، وهو عربي الاصل من اليمنية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فتكبحهم بدسيسة وأخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجند الصقالبة وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم (\*\*) واستقدم اليه رجلا من برابرة افرقية وزنانة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بنى أمية ، ولأن العباسيين أرسخ قدما في الخلافة لقرابتهم من النبي ( صلعم ) (\*\*\*) فانقسمت مملكة الاندلس في أوائل القرن الخامس

(\*) لم يستبد البربر والصقالبة بالوظائف في دولة بنى أمية بالاندلس ، وإنما شاركوا فيها فقط ، وظلت الصدارة دائما للعرب أو للمنتسبين الى أصول عربية ، بل كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يفضلون الشاميين على غيرهم . وقد حاول عبد الرحمن الناصر ان يعلى مكانة مواليه وصقالبته على العرب ، فكانت لذلك نتائج سيئة ، فعدل عن ذلك ، وعاد العرب الى السلطان في عهد ابنه الحكم المستنصر (\*\*) لم يؤخر المنصور محمد بن ابي عامر العرب عن مراتبهم ولم يسقطهم من الدواوين ، وإنما استبد بالامر من دونهم وأبقاهم الى جانبهم دون عمل تقريبا ، ثم أنه لم يستخدم صقالبته في الوظائف الكبرى ، ولم ينتفع بالبربر الا في شئون الجيش ، ولم تنكسر شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين ، وإنما الذي انكسر هو جاه البيت الاموي نفسه . أما العرب فقد ظل لهم مركزهم وسط الفوضى التي عمت بعد سقوط الخلافة ، وزاد تمسك الناس بالعروبة ، بل ظلت هي العامل الوحيد السليم الذي ظل يحفظ للاندلس ، أو لما بقى منه ، قوته وتماسكه بضعة قرون

(\*\*) كان إيمان الناس في الاندلس بالبيت الاموي وفضله اقوى بكثير من إيمان الناس في المشرق بالبيت العباسي ، لأن بنى أمية الاندلسيين استنقلوا البلاد اول الامر من الفوضى التي شعلت الاندلس خلال فترة الولاة ، التي سبقت مجيء عبد الرحمن الداخل ( ٧١٢/٩٢ - ٧٥٦/١٢٨ ) ، فقد وجد عبد الرحمن البلاد وسوى بين أهلها ووضع نظاما ثابتا صالحا للحكم السليم ، وعرف عن طريق توزيع السلطات بين العناصر المختلفة ، كيف يحافظ على التوازن بينها ، فهو لم يعهد بالوظائف والولايات الى أهل بيته كما فعل الامويون والعباسيون ، بل أبعد آله عن مراكز الادارة الفعلية ، ولم يعهد في الامور الى وزير واحد ، بل الى عدد من الناس ، كان فيهم العربي والمولى والبربري والمولد ، وهو نفسه لم يسم أولئك الرجال وزراء ، بل جد لقب الوزارة فيما بعد ، وجعل لكل منهم اختصاصا ، ومن هنا فلم يستبد أحد بسلطان مطلق كما كان الحال مع وزراء العباسيين ، وأصبح من اليسير إبعاد من يراد إبعاده منهم عن الادارة أو اسقاطه عنها بأمر من الأمير

وقد أكمل الذين أتوا بعد عبد الرحمن بناء الادارة على الاسس التي وضعها ، فأصبح كبار الموظفين هؤلاء وزراء ، ثم ميزوا واحدا منهم بلقب الحاجب ، فأصبح شبيها برئيس الوزراء . وإلى جانب ذلك لم يفصل الامويون بين الادارة والجيش ، فلم يعد هناك قواد متخصصون في قيادة المسكر ، بل كان يقود الجند واحد من الوزراء يختاره الأمير ، ولم تكن هناك قيادة عامة للجيش ، وإنما كانت هناك قيادة للحملات ، أما رئاسة الجيش فكانت للأمير نفسه ، ومن هنا

## الهجرة الى امارات تولها اصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر

لم يتسع المجال لاحد من القواد ليستبد بالدولة كما حدث في الدولة العباسية ، ولم يصبح الجند سادة الدولة ولم يعد لقادتهم هذا السلطان الخطر الذي صار لقادة الجند في الدولة العباسية . والى جانب ذلك استعان الامويون في الاندلس بالفقهاء على صورة أحسن وأحكم مما حدث في الشرق ، فاختراروا عددا منهم يشاورونهم في الاحكام ، وأطلقوا على كل منهم لقب فقيه مشاور ، ولم يجعلوا منهم مع ذلك هيئة ذات كيان ، بل كانوا يشاورون من يرون مشاورته منهم دون تفريق ، ومن هنا أصبح هؤلاء الفقهاء المشاورون قوة معنوية دينية كبرى دون أن يكونوا « سلطة » يخشى خطرها ومنافستها ، واستطاع الامراء أن يستخدموا هذه « القوة » في موازنة قوى الاداريين والمسكرين دون أن يخشوا سلطانها أو حرص أفرادها على السلطان ، وإذا ظهر من بين الفقهاء رجل ممتاز له شخصية وعلم ونزوع الى السلطان اعتبروه رئيس المشاورين أو رئيس الفتيا ، وربما سمي الشيخ الرئيس دون تعيين أو تقليد رسمي بذلك ، فأصبح أولئك الفقهاء سلطة معنوية كبرى تؤيد العرش وتضمن له ولاء الجمهور وتوازن سلطة الاداريين والمسكرين ، ثم أن أولئك الفقهاء عملوا على القضاء على كل مذهب مخالف للمذهب ، حرصا على مصالحهم ، وكانوا مالكية ، فلم يند في البلاد مذهب آخر مخالف لهذا المذهب ، وأيد الامراء الفقهاء في ذلك لما فيه من توحيد الرأي في البلاد ، أي أن سياسة الامراء ضمنت توازنا طيبا بين القوى وتوحيدا بين صفوف الشعب ومكنت لهم من أن يمسكوا بالزمام ، فأصبحوا سادة منفردين بالسلطان دون استبداد ، آمنين من المخاوف الكثيرة التي أفسدت على العباسيين أمورهم ، ولم يعودوا يخشون الوزراء أو القواد ، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين الى تكة وزير أو الى مصادرته الا في النادر ، وأصبحوا في نظر الجميع ميزان البلاد ورمز الوحدة وضمن العدل ، فأيدهم الجميع وآمن بهم الشعب وسألت الامور سيرا طيبا

وما دام السلطان موزعا على هذه الصورة ، فإن عمال الدولة الذين يلون الوزراء والقواد لم تتلاش شخصياتهم وينعدم سلطانهم كما كان الحال في الشرق ، وأصبح لكل منهم سلطان وهبة وضمن ، فقاضى قرطبة مثلا كان المفروض ان يكون من اتباع رئيس الفتيا ، ولكنه رغم ذلك كان شخصية ممتازة لها وزنها وقوتها وسلطانها ، وبينما كان رجال مثل أبي يوسف وأحمد بن أبي دؤاد مستبدين بشؤون القضاة استبدادا تاما في الدولة العباسية ، فتلاشت أهمية قضاة بغداد وغيرها من العواصم ، نجد قاضى قرطبة ممن يحالسون الأمير في الاندلس ، فيشاورهم ويشاورونه ، وربما اختلفوا مع رئيس الفتيا أو مع فقهاء المشيخة ، فيحكم الى الأمير فينصره ويمززه ، مما جعل للقضاة في الاندلس هيئة واجاه لا تقاس بهما هيئة قضاة بغداد وجاههم ، بل كان قضاة النواحي في الاندلس ذوى سلطان وهبة لا يستطيع عامل الناحية ان يستبد بهم أو يفرض عليهم سلطانه ، وكان باب الامل مفتوحا لهم على الدوام . بل ان رؤساء أهل الدمة - وهم المسبون في الاندلس بالقوامس ( جمع قومن ) - كانوا متصلين بالامراء اتصالا مباشرا ، فلا يظلمهم عامل أو يستبد بهم وزير ، وكان لهم مركز لا يقل عن مراكز الوزراء ، وقد احترمهم الامراء وقدرهم ، لانهم كانوا يضمنون ولاء من يتبعهم من أهل الدمة ، ومن هنا ، وعلى الرغم من كثرة الدمين في الاندلس ، والنصاري منهم بصفة خاصة ، لا نسمع عن مضايقات كهذه التي كانت تصيبهم في الشرق ، من الزامهم بلباس معين أو سلوك خاص ، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين علاقات ود وصداقة ، بل حدث في كثير من الأحيان ان كانوا أوفى لآخوانهم المسلمين من المسلمين أنفسهم . والأدلة على ذلك كثيرة . وكان الدميون جميعا يعلمون تماما أن سلامتهم وضمن مصالحهم متوقفان على قوة الأمير وثبات البيت المالك

لذلك كله كان للبيت الاموى في الاندلس مركز معنوى يختلف اختلافا تاما من مركز العباسيين في الشرق ، فبينما كان الولاء الروحي الحقيقي للمسلمين في الشرق مع العلويين وولؤهم الظاهري للعباسيين ، نجد ان الولاء كله في الاندلس كان للامويين ، فهم رمز العروبة والاسلام وضمن الوحدة والعدالة ، وميزان القوى والسلطات ، ومن هنا فاننا نجد أهل الاندلس مخلصين للبيت الاموى اخلاصا صحيحا عميقا ، وقد تمكن هذا الاخلاص في قلوبهم بفضل السياسة الرشيدة التي سار عليها الامراء والخلفاء . وعندما استبد المنصور محمد بن ابي عامر بالسلطان دون الخليفة هشام المؤيد ظل الشعب ينظر اليه على أنه فاسد لا يند أن يزول ، وكان هذا أكثر ما أخاف ابن ابي عامر ودفعه الى محاربة العمد التي قام عليها سلطان بني أمية من فقهاء ووزراء ورجال ادارة وعسكريين ، فاضطهدهم واستبد بالامر من دونهم وارهقهم بجنده المرتزق الذي أتى به ، وجله من زنادة المغرب ، وقد انتهت سياسته الى تحطيم الوحدة وابحصاد هنشرين قوين متخاصمين متنافسين : الاول عنعر الاندلسيين مابين عرب وبربر قدماء واندلسيين أسلموا



والموالى ، فتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ،  
ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك أشهرهم مع اسماء اماراتهم :

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة (ج)	٤٠٧ - ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ - ٤٨٤
بنو زبرى	غرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ - ٤٦١
بنو ذى النون	طليطلة	٤٢٧ - ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ - ٤٧٨
بنو هود التجيبون	سرقسطة	٤١٠ - ٥٣٦ (***)

واستمرىوا واهل ذمة احتفظوا بدينهم وان استعربوا لسانا ونكرا. واسلوب حياة ، والثانى عنمر  
البربر الجدد ومن انضم اليهم من جند ابن ابي عامر من صقاليتة الذين اتى بهم ، ثم انه اجتمع  
في القضاء على كل من خاف منافسته من امراء البيت الاموى ، فلم يبق الا انصاف والعاجزين  
عن الادارة والحكم

وعندما مات ابن ابي عامر سنة ١٠٠٣ ميلادية وخلفه ابنه عبد الملك لفترة قصيرة انتهت سنة  
١٠٠٦ وآراد ابنه الثانى عبد الرحمن الملقب بشنجل ان يسير على سيرة ابيه واخيه انفجرت  
الثورة في قرطبة ، ووقف العامريون مابين بربر وصقاليتة ورجال ادارة وجها لوجه امام الشعب  
الكاره لهم ، وقد حاول الشعب ان يجد اميرا امويا يعهد اليه في الخلافة فلم يوفق ، وانتهر عمال  
النواحي والاطراف الفرصة فاستبدوا بنواحيهم ، وتقسمت الدولة الى امارات متنافسة متعادلة  
هى التى تعرف بممالك الطوائف ، وتفككت وحدة الدولة تفككا تاما بزوال العامل الرئيسى في  
الوحدة ، وهو البيت الاموى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل ولاء الناس متجها الى البيت الاموى ،  
فخلال القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) ظلت القلوب كلها متجهة نحو بنى امية ،  
وظل الناس يحلمون بعودتهم الى السلطان ويتحسرون على ايامهم ، بأكثر مما نجد في المشرق  
نحو العباسيين ، وكل كيار كتاب الاندلس خلال هذا القرن وما جاء بعده امويون في نزعاتهم ، كما  
نجد عند ابن حيان وابن حزم وابن بسام وابن خاقان ، بل ان عبد الله بن العربى وهو من فقهاء  
القرن السابع الهجرى اموى النزعة والميل ، وفي كتابه « العواصم من القواصم » دفاع مجيد  
عن بنى امية ، المشاركة منهم والمغاربة . وفي القرن العاشر الهجرى ( السادس عشر الميلادى )  
نجد المقرئ يتحسر على ايام بنى امية ، ويجعل من « الرواية » اسطورة عاطفية يفرد لها  
صفحات بعد صفحات

(\*) كان لبنى حمود فرعان ، احدهما في مالقة ( ١٠٣٥ - ١٠٥٧ ) والثانى في الجزيرة  
الخضراء ( ١٠٣٥ - ١٠٥٨ )

(\*\*) أوجز المؤلف هنا بيان ملوك الطوائف في الاندلس ايجزا شديدا ، فرايت أن أرى  
بأهمهم هنا بصورة أوفى :

اشبيلية

بنو عباد ٤١٤ - ٤٦٣/٤٦٣ - ١٠٧٠

قرطبة

بنو جهور ٤٢٣ - ٤٦٣/٤٦٣ - ١٠٧٠

مالقة

بنو حمود ٤٢٧ - ٤٤٩/٤٤٩ - ١٠٥٧

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رايت ، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم  
الموحدين ، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك ، والخصام متوالياً  
والافرنج يغتزمون ضعفهم وانقسامهم ، ويسترجعون اماراتهم واحدة بعد  
واحدة وبلداً بعد بلد ، حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس .  
وأخر مدينة افرنج من تلك المملكة غرناطة ، وكانت في حوزة  
بنى نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ ، توالى عليها منهم  
بضعة وعشرون ملكاً ، آخرهم أبو عبد الله محمد بن علي ، فاستخرجها

#### الجزيرة الخضراء

بنو حمود ٤٢٧ - ١٠٣٥/٤٥٠ - ١٠٥٨  
غرناطة

بنو زيري بن مناد الصنهاجيون ٤٠٦ - ١٠١٥/٤٨٣ - ١٠٩٠  
ولبة (Huelva)

البكريون ٤٠٢ - ١٠١١/٤٤٣ - ١٠٥١  
بطلوس (Badajoz)

بنو الانطس ٤٥٨ - ١٠٦٥/٤٨٧ - ١٠٩٤  
طليطلة

بنو ذي النون ٤٢٨ - ١٠٣٦/٤٧٨ - ١٠٨٥  
سرقسطة

استبد بها أول الامر منفر بن يحيى التجيبى ، ثم انتزعها منه بنو هود ٤٣١ - ١٠٣٩/٥٠٤ - ١١١٠

#### السهلة

وتسمى أيضاً سهلة بنى دزين أو شتمرية الغرب ٤٠٢ - ١٠١١/٤٩٧ - ١١٠٣  
بلنسية

استبد بها أول الامر مبارك ومظفر من صقلية العماريين ثم صارت أمورها الى :

بنى عبد العزيز العماريين ٤١٢ - ١٠٢١/٤٥٨ - ١٠٦٥  
ثم انضمت الى طليطلة ٤٥٨ - ١٠٦٥/٤٦٨ - ١٠٧٥

ثم عادت الى العماريين ٤٦٨ - ١٠٧٥/٤٧٨ - ١٠٩٤  
دانيية

أبو الجيش مجاهد العمارى وبنوه ٤٣٢ - ١٠٤٠/٤٦٩ - ١٠٧٦  
ثم انضمت الى اماره سرقسطة ، ثم دخلت في طاعة المرابطين ، وعاد بنو هود الى السلطان

فيما بعد في سرقسطة ، ٤٦٩ - ١٠٧٦/٤٨٤ - ١٠٩١  
مرسية

موالى العماريين ٤٠٧ - ١٠١٦/٤٧١ - ١٠٧٨  
الريية

خيران ومظفر العماريان ١٠٢٨/٤١٦ - ١٠٤١  
ثم انضمت الى بلنسية ٤٣٠ - ١٠٣٨/٤٣٣ - ١٠٤١

ثم استبد بها بنو صمدح ٤٣٣ - ١٠٤١/٤٨٤ - ١٠٩١  
وكان هناك أمراء طوائف صفار غير هؤلاء ، ضربنا صفحا من ذكرهم لان اماراتهم صارت الى

غيرهم . وقد صارت امارات الطوائف - عدا سرقسطة - الى المرابطين ، وعدا طليطلة فقد  
استولى عليها الفونسو السادس ملك قشتالة سنة ١٠٨٦

الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر أبو عبد الله ، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس (\*)

(\*) مر المؤلف مرورا مريما بما كان بعد ملوك الطوائف في الاندلس ، ولم يتسع امامه المجال للكلام على دولتي المرابطين والموحدين وهما من اعظم دول الاسلام ، ولا يتسع مجال التعليق هنا أيضا للتحدث عن هاتين الدولتين كما ينبغي ، وكذلك لم يتحدث عن أصحاب غرناطة وهم بنو نصر أو بنو الأحمر ، ويستطيع القارئ أن يجد تفاصيل عن هذه الدول الثلاث في المواد الخاصة بها في دائرة المعارف الإسلامية ، وقد ألف في تاريخ المرابطين الأستاذ خانتو بوش فيلر J. Bosch Vilà مؤلفا طيبا مختصرا بالاسبانية بعنوان المرابطين « Almoravides » صدر سنة ١٩٥٧ . وألف المستشرق الاسباني أمبروزيو هويثي ميراندا Ambrosio Huici y Miranda مؤلفا ضخما عن الموحدين بالاسبانية صدر منه إلى الآن جزآن بعنوان Los Almohades . أما بنو نصر فقد تحدث عنهم في ايجاز الأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه « نهاية الاندلس » وهو يطبع الآن طبعة جديدة ، وتوفر على دراسة تاريخهم الدكتور أحمد مختار العبادي ، وكتب بحثا قيما بالاسبانية عن « محمد الفتي بالله سلطان غرناطة وعصره » ولم ينشر بعد ، وكتب عن الموحدين أيضا الدكتور سعد زغلول فؤاد ويحده الرئيسي بالفرنسية عن « أبي يعقوب المنصور الموحدي » . ويجد القارئ ايجازا لتواريخ دول المغرب ( أي ما يسمى عادة بمراكش ) من الفتح إلى اليوم في كتاب الأستاذ محمد بن عبد السلام عبود « تاريخ المغرب » جزآن ، تطوان ١٩٥٧ . وكتبه كتابا مختصرا في تاريخ تونس السيد الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب . ونضيف تعليقا على ما ذكره المؤلف أن آخر ملوك غرناطة أبا عبدالله محمد بن علي لم يفر ، بل سلم البلد إلى فرناندو وإيزابلا ملكي قشتالة وأرغون وسار إلى أندلس حيث لبث بعض الوقت ثم استأذن في الانصراف إلى المغرب ، ولجا إلى بني مرين ، وتجد تفصيل ذلك في الجزء الأول من « إزهار الرياض في أخبار عياض » للمعري

# الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

## الشيعية في المغرب

قد علمت حال الشيعة في أيام بنى أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية ، وخصوصا في أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقا وغربا كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته (❖) . فأتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين ، فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرا ، ومنهم صاحب البريد فحملة الى المغرب في أيام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ، على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبي (صلعم) لأن أصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بنى بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غضبوا الخلافة من مستحقها ، فأشار بعضهم على معز الدولة لبويهى أن ينقل الخلافة الى العبيديين أو لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه . عرض خاصته قائلا : « ليس هذا برأى » فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ،

(❖) لم يبايع المنصور لادريس بن عبد الله بن الحسن ، لان ادريس كان صغيرا وقت الدعوة السرية لاهل البيت خلال العصر الاموي ، وكان يحجبه عن الترشيح للخلافة أبوه عبدالله . واذا كان المنصور قد بايع أحدا ، فيكون ذلك لمحمد بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . ويقال ان محمدا هذا تنازل عن حقه في الخلافة للعباسيين قبل موته كما سبق أن روينا . أما الذي تصدى للقضاء على الادارسة فهو هارون الرشيد ، وقد حاول ذلك ولم يوفق ، ويقال انه بعث من قتل ادريس الاول بالسلم ، وذلك غير ثابت ، ثم بايع أهل المغرب لادريس الثاني ابن ادريس الاول سنة ١٧٧ هـ وقد اتصل ملك الادارسة في المغرب الاقصى حتى سنة ٣٠٥ هـ . وكان الذي قضى على دولتهم مصالة بن جبوس المكناسي قائد الفاطميين

ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك ، فرجع معز الدولة عن عزمه (١)

على أن الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة ، وأحيا البويهيون كثير من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين (٢) وحملوا الخليفة على أن يخطب لعصدة الدولة في بغداد ، أي أن يذكر اسمه في الخطبة ، فخطب له وهو أول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين ، والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة . فحصل الاتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة (٣) نكاية بهم

#### الشيعة في مصر

على أن ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال إليها ، وكانت قصبتها قبلا مدينة المهديّة بافريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي ، وللمؤرخين في انتسابهم اليه أقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وأن السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصفيرا لشأنهم (٤)

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا أولا أهل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسني وبعض أهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث أن حمل الى المنصور واختفى (٥)

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب أحوال الخلفاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس ، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل أبي طالب الى العراق فأخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأى العلوية ، لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفا للخليفة - يحكى أن رجلا من الجنود اقترب ذنبا أوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٦٥ ج ٩  
(٤) المقرئ ٢٤٩ ج ١ (٥) المقرئ ٢٢٨ ج ٢

عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل أن يضرب الجندی المذكور مائة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . وإذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة . ففاسى العلويون عذابا شديدا بسبب ذلك

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٣٥٤ هـ اضطهد الشيعة لانه تركى ولائنه على رأى الخليفة العباسى ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا . حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى . فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلى كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين ، وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله ، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم فى افريقية الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين

### سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التى قلدت الدول العباسية فى نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخارى ، وهويشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها فى نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء . وجعله مرجع القضاء فى الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه فى الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس فى حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقا تكفيهم ،

فضلا عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلوات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيبا لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناسا في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه ، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ للملك ، فضربوه وطاقوا به في المدينة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهوديا وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي » (١)

وتمشي سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الأوامر على الناس أن يحفظوا كتاب «دعائم الاسلام» و «مختصر الوزير» وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا (٢) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوى الارحام ، فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه (٣) تأييدا لحقهم في وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي وهي منفردة بالارث (٤)

#### ادوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ (٢) المقرئ ٢٥٥ ج ١ (٣) المقرئ ١١١ ج ١

(٤) بسط القول في الدعوة الفاطمية ومراتبها ومراكزها الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « في ادب مصر الفاطمية » (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٩ وما يليها ، وبين كيف ان الفاطميين وضعوا نظاما محكما للعناية للديهم ، فالف خلفوهم الكتب الرئيسية في المذهب ، وحفروا رجالهم على وضع الكتب فيه ، ثم رتبوا العناية مراتب ودرجات ، وجعلوا لكل ناحية من نواحي الدولة الاسلامية داعيا رئيسيا يتبعه دعاة يسرون جميعا وفقا لخطة مقررة ويجرون في الدعوة على منهج ثابت ، وأنشأوا للدعوة مراكز خاصة في المساجد ، وخصصوا مكانا خاصا في القصر لقراءة كتب الدعوة وتفسيرها ، وأنشأ الحاكم في سنة ٣٩٥ دارا خاصة سماها دار العلم ، « وقد حمل الى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً قط لملك من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فجلس فيها النجوم وأصحاب النحو واللغة والأطباء .. » الى آخره ، نقلنا عن خطط المقرئ (٣٣٤/٢) وجعل على رأسها عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي القضاة . وأفاد الدكتور محمد كامل حسين في هذه الناحية من مقدمة كتاب «دوران المؤيد في الدين داعي الدعوة» و « راحة العقل » لاحمد حميد الدين الكرمانى و « سيرة الاستاذ جودر » ، وكلها كتب قيمة تلقى ضوءا كاشفا على الدعوة الفاطمية وأصولها وأساليبها . وتحدث عن الموضوع أيضا الدكتور عبد المنعم ماجد في مقدمة « الرسائل المستنصرية » التي نشرها (القاهرة ١٩٥٣) ، وكذلك الدكتور جمال الدين الشيال في مقدمة « انماط الحنفا » للمقرئ

العباسية ، فقد رأيت أن نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركا بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ في اولها مشتركا بين هذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم أشداء ، مساكنهم في شمال افريقية ، وقد نصرُوا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق (\*\*) وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذابا شديدا ، لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا في أيام موسى بن نصير في أواخر القرن الاول (\*\*\*) . ولما نقم الناس على بنى أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال (\*\*\*\*) وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام في أواسط افريقية ، مثل فضل الاتراك في نشره في أواسط آسيا الى الهند والصين ، لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها ، لاسيما قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدي أول خلفائهم في أواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي ، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله «سنة ٣٢٢ هـ» ثم المنصور بنصر الله «سنة ٣٣٤ هـ» ثم المعز لدين الله «سنة ٣٤١ هـ» وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي أيام المعز

وانظر أيضا :

- Asaf, A.A. Fayzee, A chronological list of Imams and Da'is (J.B.B.A.S.) 1934  
— Materials for an Ismaili Bibliography (J.B.B.R.A.S.) Vol. II, 1935.  
— Quadi al-Nu'uman. P.R.A.S.1934.  
Hamadany, H.E., A History of the Ismaili Da'wat and its literature during the last phase of the Fatimid Caliphate (IRAS) 1932.  
Ivanow, W, A Guide to Ismaili literature (London 1933)  
— The Organisation of the Ismaili Propaganda (J.B.B.R.A.S.) 1940  
Lewis, B., The Origins of Ismailism. Bombay 1942.

(\*) قام على نشرها في المغرب دعاة ارسلمهم الفاطميون ، ثم انضم الى الدعوة فريق من برابر صنهاجة أهمهم قبيلة كتامة وعلى يديها قامت الدولة الفاطمية في المغرب  
(\*\*) انظر : فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٤٧ .  
(\*\*\*) انظر عن ذلك

Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. 2, Paris.



لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبيه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته ، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفى العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ وكان يقدر فضل البربر ، فقدمهم وقربهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر ) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم . فاستبد في أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيا وقد تاقت نفسه الى الولاية ، فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرا من رجال دولة أبيه وجده ، فنضعض البربر وقوى الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شقيقت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته في الشام ، فأناه أمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جندا من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد أن كانوا وجوها وأكابر أهلها (١)

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليتهم وقوادهم (الأتابكة ) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف ، وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على

الاستئثار بالنفوذ ، وطال تنافسهم حتى أخرجوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب إلى نور الدين زنكي واستنجد به على رجل آخر كان ينافسـه في الوزارة وهو ضرغام ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد الدين شيركوه في جند من المماليك ، فرد الوزارة إلى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر إلى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد أحتدمت ، فزاد تدخل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه ، ومع بن أخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الأيوبي الشهير \* ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة ، وهي كالوزارة ، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأبيه نور الدين . فلما مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة إلى السنة وقبض على أزمة الاحكام . واستفحل أمر الصليبيين في تلك الايام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها إلى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها . وأنشأ الدولة الايوبية ، وهي كردية الجنس سنية المذهب ، فعادت مصر إلى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله إلى الاستئثار من المماليك الاتراك والجراكسة للجندية ، على جاري العادة في تلك العصر ، حتى اذا كثروا استبدوا بشئون الحكومة وطمعوا في السلطة . فلما ضعف أمر الدولة الايوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الأولى من سنة ٦٤٨ - ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ وكانتا تباعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة ( المستعصم ) فر من بقي من بني العباس ، والتجأوا إلى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختر واحد منهم قلده الخلافة وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتح مصر سنة ٩٢٣ هـ وكان الخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم ، فبايع للسلطان سليم وسلم إليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين من ذلك الحين (\*)

(\*) اختصر المؤلف الكلام في هذا الفصل اختصاراً شديداً ، ويبدو انه اكتفى بذلك في هذا المقام ، لانه فصل الكلام في تاريخ مصر الاسلامية في كتابه « تاريخ مصر الحديث » في مجلدين ، وهو من كتبه الجيدة ، ويعتبر من اقيم كتبه وحيدا لو نشر نشرة جديدة

العصر المغولي أوليتري

## انهلال الدولة الإسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، ففترعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي أو كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تباع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ، ثم أصابها ما أصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين

على أن الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ، ثم اقتسمها ماليكهم الاتابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الإسلامية قد تولاهما الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة وماليكهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى أشرفت على الانحلال ، وانما استبقاها أصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة . وأصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم ، كأنهم اقتسموها فيما بينهم ، وهم : ( ١ ) الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراد الأيوبية في مصر والشام (ح) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف أجناسها وأطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانهلال دولته ، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الإسلامي (\*)

---

(\*) الكلام هنا عام ، فان الوضع العام في العالم الإسلامي لم يكن هكذا تماماً خلال القرن الثاني عشر الميلادي الذي ضعف فيه أمر السلاجقة وتفككت دولتهم ، فقد تقاسم المشرق دول الاتراك والتتر وبقايا السلاجقة ، ثم ان الدولة الأيوبية لم تكن كردية الا من حيث أصل مؤسسها ، وقد استعان الأيوبيون من أيام صلاح الدين نفسه بالعرب والاتراك والماليك وهم من أجناس شتى . أما دولة الموحدون فلم تباع للخليفة العباسي ، اذ كان الموحدون انفسهم خلفاء ، والذين بايعوا للعباسيين هم الرابطون الذين سبقوهم

فلما رأى أعداء الدولة الإسلامية المحيطون بها ضعفتها وانقسامها عمدوا إلى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللات من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يدخلونها بعشرات الألوف فيكتسحون أذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبائا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد أحيانا على عدة آلاف غير القتلى (١) - كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم . على أنهم لم يستطيعوا فتحا ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب أمم الأفرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد تكاثفوا لاكتساح المملكة الإسلامية بحجة الدين لأن القبر المقدس فيها ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينما ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الأيوبي ببسائله ودهائه وتديبره ، فغلبهم على ما في أيديهم وأخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم وأخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئا فشيئا ، حتى أزالوهم من الشام تماما على أيام الناصر قلاوون

أما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقباثلهم وبطونهم ، وهم في خشونة البدادة وقوة الإبدان ، وقد توفقوا إلى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية إلى حدود العراق ، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع

### المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالى بحيرة بيكال ( أو بيكال ) في جنوبى سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم ، لأنهم لم يظهروا الا بظهور جنكيزخان في أوائل القرن السابع للهجرة ، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل ، يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن ، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الأمم ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠.٠٠٠ خيمة ، فإذا حسبنا في الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠.٠٠٠ نفس ، فلما كانت أيام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاما ، كما خرج بدو العرب في أول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبدادة على الحضارة ، لأن المسلمين

كانوا فى أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا فى الترف وانقسموا على أنفسهم ، كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام - والتاريخ يعيد نفسه

### جنكيزخان

كان والد جنكيزخان أميرا على ١٣ قبيلة من المغول ، تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهد متبادلة بينهما . ولد جنكيز خان سنة ٥٤٨ فسموه تموجين وهو اسمه الذى كان يعرف به فى نشأته الاولى . وبعد أربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ، وأصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه . وكان تموجين شديد البطش من حداثته ، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائعه فهابه الناس ، على انه لم يستغن عن استنجد الخان الاعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته فى اماره أبيه وزوجه ابنته

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوى البدن شجاعا صبوراً على التعب والجوع والعطش والبرد والالام ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد فى أعضاء أسرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الامراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعاده الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى ألقى سبعين رجلا منهم فى الماء الغالى وهم أحياء

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده ، وأدرك تموجين ذلك فسعى فى اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح ، فعزم على محاربته فتحارباً فانتصر تموجين فخافه الامراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروبا فاز فيها ، فازداد أمراؤه تعلقا به واحتفلوا بتهنئته احتفالا عظيما فى سهل على ضفاف سىلنكا ، فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم خطيبا وكان قوى العارضة فأبدع . ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك ، وأصبحت تلك اللبادة أثرا مقدسا عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سىأخذ بيدك ويشد أزرعك » فإذا فرطت فى سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ، وبذلك رجالك نبذ النواة » . وفى هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على

خلفائهم وأمرائهم فى صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام ، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكا على المغول . وكان فى جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتى ، قد رأيت فى منامى كأن رب السماء على عرشه النارى تحلق به الارواح ، وقد أخذ فى محاكمة أهل الارض ، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين ، وأن يسمى جنكيز خان أى الملك العام » . ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك أيها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الاله » . ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فصار أولا نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيز خان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الالباء اشهار الحرب . فحمل جنكيز خان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلا ونهبا ، والصينيون يومئذ أسبق الامم فى الاختراعات الحربية ، فاستخدموا النار اليونانية التى استعان بها اليونان على دفع العرب (\*) وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيزخان زاحفا حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة ، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أى غربى بلاده وهى مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، وأقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والأتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه ، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت فى أواخر أيامها على معظم العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من أفغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمي سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنسه يزيد على ٧٠٠٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلا ونهبا مما تقشعر له الابدان (\*\*)

(\*) استخدم الصينيون البارود من اقدم الازمنة ، وعن الصين أخذه ماركو بولو الى أوروبا ، أما النار اليونانية التى كان البيزنطيون يستخدمونها فكانت خليطا من السوائل الريصة الاشتعال ، يظن ان من بينها البترول ، اخترمه رجل سورى ممن كانوا يخدمون فى الاسطول البيزنطى ، وعن البيزنطيين أخذه العرب فيما بعد وسماه النفط ، وهو غير البترول - على عكس ما يظن - وكان الذين يقومون بتركيبه وقذفه على الاعداء يسمون « النفاطين » (\*\*\*) انظر عن ذلك كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للاستاذ حافظ حمدى ، القاهرة

ومما حمّله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ماوراء النهر ( تركستان ) ليشتروا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيز خان . وكان لحوارز مشاه هناك نائب ، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ مامعهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير مامعهم وكان شيئا كثيرا ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره في هذه المعاملة أن المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم(\*)

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكيز خان ، حمى غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : « تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم ؟ » تهيأوا للحرب . فاني قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحي الجماعة ، وأعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « أن خوارزمشاه يقول لك : أنا سائر اليك ولو أنك في آخر الدنيا ، حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك » - فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم في أوائل الاسلام

وقد فعل جنكيزخان كما قال تماما ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غربا ، وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم الا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء أبقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا أهلها وجعلوهم في ذمتهم ، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدنا من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا محل الافاضة في سيرة هذا الرجل (١) وانما يقال بالأجمال انه تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي - أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ،

(\*) انظر تفصيل ذلك في المرجع المشار اليه ، ص ٧٠ وما يليها

(١) راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة



ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتتوكوت والافغان والهنود والفرس والأتراك غيرهم

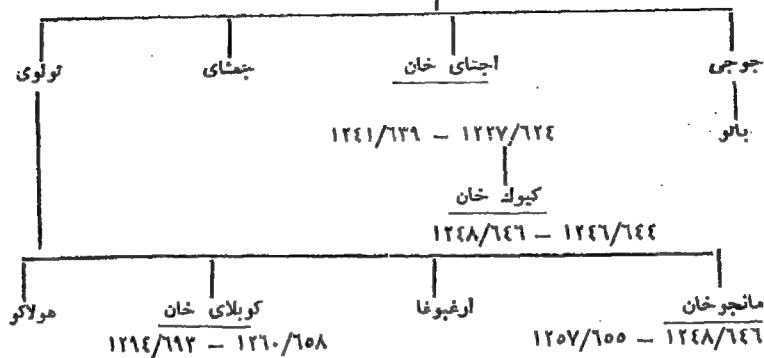
أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ، فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب في انشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة ، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابهم فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها : أن أولاد جنكيز خان الذي أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاي وطلوي وجوجي وجقظاي ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ، ويعرف ملوكها بالخانانات وهم :

- |   |                                  |                      |
|---|----------------------------------|----------------------|
| ١ | دولة أقطاي في زنجاريا وغيرها (*) | من سنة ٦٠٣ - ١٠٤٣ هـ |
| ٢ | طلوي في بلاد المغول              | ٦٥٤ - ٧٥٠            |
| ٣ | جوجي في بلاد القفجاق وغيرها      | ٦٢١ - ٩٠٧            |
| ٤ | جقظاي في ما وراء النهر           | ٦٢٤ - ٧٦٠ (***)      |

(\*) زنجاريا ، وتسمى أيضا زنجاريا ، سهول واسعة تقع جنوبي بحيرة بيكال ، وهي تقع الآن في جمهورية منغوليا الداخلية إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وأهلها مسلمون . وأقطاي يسمى أيضا أجتاي  
(\*\*) هؤلاء الأربعة هم أولاد جنكيزخان ، واليك تسلسل أولاده ، وقد وضعنا خطأ تحت الذين تمكنوا من إعادة وحدة المملكة المغولية وحكمها كما كانت في عهد جنكيزخان

جنكيزخان (١٢٠٦/٦٠٣ - ١٢٢٧/٦٢٤)



ويبين أن هولاكو الذي دخل بغداد وخربها حفيد جنكيزخان وهو أصغر أبناء تولوي وابن أخى كيوك خان  
نقلا عن حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩) من ٢٧٦  
وأبليخانات فارس الذين سيأتي ذكرهم هم هولاكو ومن ولى الملك من أبنائه وأحفاده ، وقد دخلوا في الاسلام من عهد ابنه أباقا

فالدولة الاولى (أقطاي) كانت لها السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمننا تاريخها في هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام ، نعني به فرع « هولوكو » وهو ابن طولوى بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤هـ ، وعزفت دولته فيها بدولة ايلخان أو مغول الفرس ، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ، وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه - وذلك أنه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد

#### هولوكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت في أواخر الدولة ، فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في اصلاحه ، وبما أن الحكومة سننية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها . وكان الخليفة في أيام هولوكو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر . فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقائد الجند ( الدوادار ) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبرا ، فكتب الى هولوكو سرا وأطمعه في ملك بغداد ، وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولوكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدمهم ، بعث الدوادار فيمن بقي ببغداد من الجند بهم لا يزيدون على ٢٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت

أما هولوكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد ، وأرسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي ، فأنفذه لخبرة هولوكو بشأن الصلح ، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة : « ان هولوكو يبيحك في الخلافة كما فعل بسطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر » . وحسن له الخروج الى هولوكو ، فخرج اليه في جمع من أكابر أصحابه ، فأنزلهم في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد . فلما اجتمعوا أمر

هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، الا الاطفال فأخذوهم في جملة الاسرى والسبى . ودام القتل والنهب في دار السلام أربعين يوما ، ثم نودي بالامان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدي والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفا من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماما ، بل انتقل من بقى من العباسيين بعد مذبحة هولاكو الى مصر ، وأقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها ، فقتع بما دخل في حوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام وأورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن «٦٥٤ - ٧٥٠ هـ» وانقسمت الى ولايات صغيرة مازالت في اضطراب وتضعف حتى اخضعها تيمور لك

#### تيمور لك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيرا عند جقطاي بن جنكيز خان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي في ما وراء النهر : ثم نرقى الى رتبة الوزارة فطمع في الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكرديستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ، ثم حول اعنة خيوله شرقا نحو الهند، فغزا كشمير ودلهي، وتحول غربا لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لك في فتوحه الى انقره وحارب بايزيد وأسر سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبإيعاض سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل أن ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدرا فعادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على أن الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمور لك ينقضى العصر المغولي ، وبانقضائه ينقضى الدور الاول من تاريخ الاسلام

## الدور الثاني

### من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ، ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي ، وأنما علاقتهم بهذا التمدن أنهم جاءوه والدولة الاسلامية في آخر دورها الاول ، وفي منتهى التضعف والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن والالان ، فزادوها ضعفا وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد ، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار ، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على أن ذلك كان مقدورا للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ، وللدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام . فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في أيدي أولئك المماليك ، وبعضها في أيدي بعض أعقاب الايوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الایلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتميمورية وغيرهم . وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الاتابكة . وشمالى أفريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين الا الدولة النصرية في غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعاذى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال احوالها تجمعها خلافة أضعف منها ، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية

تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعف عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يؤس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مرارا . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردوهم الى بلاد المجر ، وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطئ اسبانيا ، فارتعدت أوروبا خوفا منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق ، ثم ساروا جنوبا غربيا حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في أيام السلطان سليمان «سنة ٩٢٦ هـ - ٩٧٤ هـ» من بودابست على ضفاف الطونة الى أسوان على ضفاف النيل ، ومن

الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامى الغربى تحت جناح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سببا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية ، حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم ، لان سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسما بلا رسم ونهض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فانشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية (\*)

---

(\*) الى هنا ينتهى المؤلف من ذلك الجزء الذى خصصه لنشوء الدولة الاسلامية وتاريخها السياسى ونظمها الادارية ، وقد شاء أن يجعله تاريخا عاما فأتسع المجال أمامه وانفص في عصور الراشدين والامويين والعباسيين ، واستنفذ في ذلك معظم الجزء ، ثم اراد ان يفسط الحوادث والنظم ابتداء من العصر العباسى الثانى الى عصره ( قبل الحرب العالمية الاولى ) فأعسوزه المجال ، ومر بنحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام مرا سريعا ولكنه مفيد . وربما كان علره في ذلك أن هذه العصر لم يدرس بعد ، وخاصة فيما يتصل بدول الاسلام في آسيا ، فان مراجع تاريخها لم ينشر معظمها ، وما نشر منها لم يدرس بعد ، والكثير منها الى ذلك فارسى او تركى او مغولى ، مما نرجو ان يوفق الى دراسته والتمكن منه نفر من الباحثين المحدثين . أضف الى ذلك ان طموحه شاء ان يتناول غرب مملكة الاسلام أيضا ، فتحدث عن دول المغرب والاندلس، وهذه بدورها ميدان فسيح لا تزال نحاول الايام بأطرافه وسير اقواره ، فجاء حديثه عن هذا الجناح الغربى من عالم الاسلام حديثا مختصرا ، ولكنه ينفع القارئ الراغب في الايام وتكوين فكرة عامة عن تطور دولة الاسلام . أما دول الممالك فقد تحدث عنها بإسهاب في كتاب آخر قيم له اختصه بتاريخ مصر العام ، جعل عنوانه « تاريخ مصر العام » وهو في جزأين حافظين بالمادة الطيبة ، فعلى الذين يريدون دراسة تواريخ الدول المصرية كما يروها العلامة جرجى زيدان ان يقرأوا ذلك الكتاب

# فهرس

الموضوع	صفحة
هذا الجزء .....	٥
مقدمة الطبعة الاولى .....	٧
موضوع هذا الجزء .....	٨
<b>العصر العربى الاول</b>	
تمهيد فى العرب قبل الاسلام .....	١٤
البدو والحضر .....	١٤
العصبية العربية قبل الاسلام .....	١٦
أنساب العرب .....	١٧
عصبية النسب .....	١٩
العرب والعجم قبل الاسلام .....	٢٠
الأمومة والحوالة .....	٢١
توابع العصبية العربية : الحلف .....	٢٣
الاستلحاق .....	٢٤
الخلع .....	٢٥
العبيد فى الجاهلية .....	٢٦
العبيد عند العرب .....	٢٧
الموالى فى الجاهلية .....	٢٨
النزلة الاجانب فى الجاهلية .....	٣٢
الابناء .....	٣٢
سياسة الدولة فى الجاهلية .....	٣٣
مناقب العرب فى الجاهلية .....	٣٤
الوفاء .....	٣٤
الجوار .....	٣٥
الارحية .....	٣٦
<b>سياسة العرب فى عصر الراشدين</b>	
الجامعة الاسلامية .....	٣٨
الجامعة العربية .....	٣٩

## صفحة

## الموضوع

٤٠	الانسياس في الأرض
٤٢	طبقات عربية اسلامية
٤٤	سياسة الخلفاء الراشدين
٤٤	أبو بكر
٤٥	عمر بن الخطاب
٤٦	عثمان بن عفان
٤٦	علي بن أبي طالب
٤٨	انتشار العرب في الأرض
٥٠	الاستكثار بالتناسل
٥٠	انتشار العرب بالفتح
٥٢	انتشار العرب بالمهاجرة
٥٤	العبيد والموالي في الاسلام
٥٤	الرق في الاسلام
٥٨	الموالي في الاسلام

## سياسة الدولة في عهد الامويين

٦١	انتقال الخلافة الى الامويين
٦٣	معاوية وعلى
٦٥	رغبة بني أمية في السيادة
٦٥	العصبية العربية في عصر الامويين
٦٥	العرب وقريش
٦٧	القبائل اليمينية والمضرية
٦٩	عصبية العرب على العجم
٦٩	العرب والموالي
٧٢	آثار بني أمية في الاسلام
٧٣	العصبية الوطنية في عصر الامويين
٧٣	تحضر العرب بعد الفتح
٧٥	تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض
٧٧	اصطناع الاحزاب في عصر الامويين
٧٧	سياسة معاوية
٨٠	عمرو بن العاص
٨١	بذل المال في عصر الامويين
٨١	العطاء من بيت المال

## صفحة

## الموضوع

٨٥	تدقيق على ويخل ابن الزبير
٨٦	الاستكثار من الأموال في عصر الأمويين
٨٧	عمال بنى أمية
٨٧	الاسلام والجزية
٨٩	الصدقة والرشوة
٩٠	الاستخفاف بالدين وأهله
٩٠	استهانة بعض الامويين بالمقدسات
٩١	الخلافة والنبوة في رأى بعض العمال
٩٣	الفتك والبطش في عصر الامويين
٩٤	بسر بن أرطاة وقتل الاطفال
٩٦	خزانة الرؤوس

## الموالى وأحكامهم في عصر الامويين

٩٩	نقمة الموالى على العرب
١٠١	زواج الموالى بالعربيات
١٠٣	أهل الذمة وأحكامهم في عصر الامويين
١٠٦	العهد النبوية
١٠٧	عهد عمر
١٠٩	نسبة هذا العهد الى عمر
١١١	عهد عمر ومناقبه
١١٣	نصارى الشام وقيصر الروم
١١٦	الامويون وأهل الذمة
١١٨	الخلاصة

## العصر الفارسي الاول

١٢٣	انتقال الخلافة الى العباسيين
١٢٣	الشيعة العلوية
١٢٥	الشيعة العباسية
١٢٦	بيعة المنصور للعلويين ونكته

## سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

١٣٠	المنصور والدولة العباسية
١٣٣	سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية
١٣٣	الموالى الفرس
١٣٤	الفرس والعرب قبل الاسلام



الموضوع	صفحة
أمهات الخلفاء .....	١٨٥
فساد الاحكام في الدولة العباسية .....	١٨٧
التنازع على النفوذ .....	١٨٧
أنواع المصادرة ومقاديرها .....	١٨٨
ابتزاز الاموال .....	١٩٠
الجانوسية واللصوصية .....	١٩١
تفرق المملكة العباسية .....	١٩٢
<b>الدول الفارسية في ظل العباسيين</b>	
الدول الصغرى .....	١٩٤
دولة آل بويه .....	١٩٥
<b>الدول التركية في ظل العباسيين</b>	
الدول الصغرى .....	١٩٧
<b>الدولة السلجوقية وفروعها</b>	
انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة .....	٢٠٠
سلاجقة الروم .....	٢٠١
الدول الكردية في ظل العباسيين .....	٢٠٣
الدول الصغرى .....	٢٠٣
الدول الايوبية .....	٢٠٣
<b>الخلافة والسلطة</b>	
الخلافة لازمة للسلطة المطلقة .....	٢٠٦
الخلفاء والفقهاء .....	٢٠٨
الدولة الاسلامية والخلافة .....	٢١١
الخلافة في غير قريش .....	٢١٣
<b>العصر العربي الثاني</b>	
الامارات العربية والعنصر العربي .....	٢١٦
<b>سياسة بني أمية في الاندلس</b>	
الصقالبة .....	٢٢٣
ملوك الطوائف بالاندلس .....	٢٢٤
<b>الدولة الفاطمية</b>	
الشيعة في المغرب .....	٢٣٠
الشيعة في مصر .....	٢٣١
سياسة الدولة الفاطمية .....	٢٣٢
أدوار الدولة الفاطمية .....	٢٣٣

## صفحة

## الموضوع

١٣٥	استخدام الموالي الفرس
١٣٧	أهل الذمة في الدولة العباسية
١٣٩	اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي
١٤٢	تعصب العامة على النصاري
١٤٤	تحاسد النصاري
١٤٨	العصية العربية في العصر العباسي
١٤٨	سياسة التقسيم
١٥١	ذهاب عصية العرب بذهاب دولة الامين
١٥٣	الشعوبية والعرب
١٥٥	نكبة الوزراء الفرس
١٥٥	الوزراء الفرس قبل البرامكة
١٥٦	الوزراء البرامكة ، مرتبتهم في الدولة
١٦٠	نكبة البرامكة
١٦٢	الشيعة العلوية بخراسان
١٦٣	الرشيد وجعفر
١٦٦	الامين والمامون ( أو العرب والفرس )
١٦٨	الفضل بن سهل وعلى الرضا
١٧١	الاسرار في الدولة العباسية
١٧٢	اختلاط الانساب بعد الاسلام
١٧٢	أبناء الاماء
١٧٣	الخلفاء الهجناء

## العصر التركي الاول

١٧٦	الأتراك القدماء
١٧٦	الأتراك بعد الاسلام
١٧٧	الجند التركي في الدولة العباسية
١٧٧	المعتصم والأتراك
١٧٩	الجند التركي ومصالح الدولة
١٨١	الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية
١٨٢	سبب نفوذهم
١٨٣	قرق الخدم وطبقاتهم
١٨٤	القواد والوزراء من الخدم
١٨٥	تأثير النساء في سياسة الدولة

## الموضوع

## صفحة

## العصر المغولي أو التتري

٢٣٨	.....	انحلال المملكة الاسلامية
٢٣٩	.....	المغول
٢٤٠	.....	جنكيز خان
٢٤٤	.....	هولاكو وسقوط بغداد
٢٤٥	.....	تيمور لنك
	.....	الدور الثاني
٢٤٦	.....	من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال



ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة